كتاب الهلال

عصاميون عظماء من الشرق والغرب

بأقلام

نخبة من كبار الكتاب

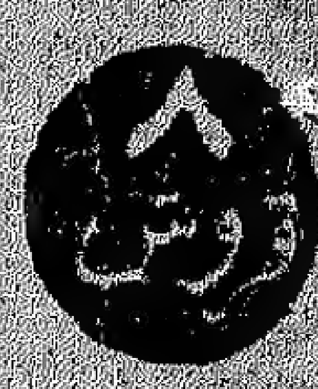
أشرف عليه

محمد فريد أبو حديد

العدد ٣٥

سلسلة شهرية

تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٥ - جمادى الأولى ١٣٧٣ - فبراير ١٩٥٤

No. 35 — February 1954

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال - بوستة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) - مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا - سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا - الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ - فى الامريكتين ٥ دولارات - فى سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

عصاميون عظماء
من الشرق والغرب

بأقلام

نخبة من كبار الكتاب

أشرف عليه

محمد فريد أبو حديد

ترجم الجزء الثانى من هذا الكتاب عن كتاب

Lives Of Poor Boys Who Became Famous

تأليف : ساره بولتون

SARAH K. BOLTON



بقلم الاستاذ محمد فريد أبو حديد

الحياة منذ الأبد فسيحة للذين يبصرون آفاقها ، والارض منذ القدم غنية للذين يستطيعون أن يستخرجوا خيراتها ، ولم يأت جيل من البشر الى هذه الدنيا الا ليجد فرصة تنتظره فى ميادين النشاط التى لا يمكن ان تخمد ما بقيت الحياة الانسانية

والحياة على قدمها تتجدد دائما لكل جيل من الأجيال المتعاقبة ، والآفاق المشرقة تتجلى دائما لكل من يريد أن يرتاد مطالعها ، ما دامت نفوس الناس وطبائعهم تحتفظ بالجذوة التى وهبها الله للجديرين بالحياة

وقد كانت الحياة من ناحية أخرى تضيق منذ الأزل بالذين لم يستطيعوا أن يبصروا ، وكانت تضن بخيراتها ونعمها المادية والمعنوية على الذين لم يستطيعوا ان يؤدوا أدوارهم كما يؤديها الجديرون بالحياة . كانت الحياة دائما مجدبة خاوية أمام الأجيال التى لم ترسم لنفسها غاية تحرص على الحياة من أجلها

فالنجاح والخذلان والمقدرة والعجز تسير جنبا الى جنب منذ بدء الحياة ، والفرق بين حالى السمو والاسفاف ينشأ من قلوب الناس أنفسهم ، لأنهم هم الذين يصنعون

مصائرهم بأيديهم عندما يختارون طريقهم فى الحياة ويحددون لأنفسهم غايتها ووسائلها

الحياة الانسانية مغامرة متجددة فى كل عصر ، لأنها تعرض على الأحياء فى كل جيل انماطا شتى من الآمال والدوافع والفرص ، وتدع الناس يختارون لأنفسهم ما يشاءون منها ، ويتحملون عواقب اختيارهم بغير هوادة أو تسامح . ولهذا لم تخل العصور المختلفة من وجود النوابغ النابهين ووجود الهمل الخاملين ، كما انها لم تخل من وجود الأمم الحية القوية والأمم الضعيفة المنحلة

الحياة تجدد مناظرها أمام كل جيل ، وتلون لهم الدوافع والأهداف بألوان مبتكرة فى كل مرة وتنوع لهم صور العقبات التى تلقيها فى سبيلهم ، حتى يخيل اليهم أن الأجيال السابقة لم تجرب شيئا من هذه التجارب التى يمرون بها ، ولكن الحقائق الأبدية دائما واحدة وان تغيرت مناظرها وألوانها ، والمغامرة الانسانية دائما واحدة وان تجددت مواقعها وميادينها . فنحن جميعا سواء كنا من الأفراد أو الأمم ، نحن البشر الذين ينتشرون فى أركان هذه الارض الفسيحة من مشارقها الى مغاربها ، نشترك فى مغامرة بغير أن نفطن الى هذه المشاركة ، وهذه المغامرة التى نشترك فيها فى عصرنا هذا حلقة من سلسلة طويلة مرت منها حلقات كثيرة وما تزال منها حلقات كثيرة أخرى فى طى الخفاء وراء حجب الغيب ، والحلقات المختلفة من هذه المغامرة الانسانية الأبدية هى السر الاكبر فى كل ما أحرزته الانسانية من التقدم فى الحضارة والعلوم والافكار والمبادىء. كل جيل يخلف وراءه تراثا من ثمار تجاربه ونشاطه لكى يبدأ الجيل التالى من حيث انتهى الجيل الذى سبقه

ولكن الأمم والشعوب المتشاركة فى هذه المغامرة العامة ليست سواء فى نصيبها من المغامرة. كل منها يختار لنفسه

آماله ودوافعه وفرصه ويتحمل عواقب اختياره ، فمنها أمم وشعوب تسمو وتسود ، ومنهـا أمم وشعوب تلهو عن السمو والسيادة اذا ضللتها قلوبها وعقولها عن الغاية الجديرة بالحياة الانسانية

ومن الأمم والشعوب من ينحرف عن جادة الحياة عندما يخرج عن جادة العدالة . فهى تنصرف الى مغامرة تافهة تتعلق فيها بالسفاسف وتنحدر فيها مع الميول والأوهام السخيفة فلا تستطيع أن تتبين الغاية الكبرى التى أعدت للبشر . ومثل هذه الأمم والشعوب تهوى مع ميولها وأوهامها الى مصـيرها المحتوم الذى يسيطر فيه الطغيان والفساد والخمول . عند ذلك تتحول مغامرتها الى مسخرة تنطوى على النفاق والحرص والجبن والأنانية

ولقد مضى علينا دهر نحن معاشر الشعوب العربيـة ، كنا فيه ويا للأسف نخبط فى حياة مزيفة . كان ميـدان الحياة عندنا مسرحا للميول التافهة والأوهام السخيفـة . وكانت عوامل الطغيـان والفساد والخمول تسيطر علينـا وتجرفنا عن جادة العدالة . وكان نظام مجتمعنا نتيجة لهذه الحياة المزيفة قائما على حدود ظالمة ، وامتياز طبقة من الأمة على ما سواها ، فبعدت كل أحوالنا عن العدالة . كان البعض منا يستند الى سيطرة الطبقة التى ينتمى اليهـا فى حدود النظام الجائر الفاسد ، على حين كان البعض الآخر يحرم من فرص الحيـاة وتوضع فى اقدامه القيـود الثقيـلة حتى لا يستطيع النهوض . وكانت شرعة الطغيـان تجعل كل خداع مباحا وكل غش ممكنا وكل تزييف مقبولا . ولهذا صـارت السيادة وقفا على البعض دون البعض حتى آلت آخر الامر الى سيادة من لا يستحقون أن يكونوا سادة

وكان من اكبر ما يثـير قلوب المفكـرين وطلاب الحق والعدالة أن هذه الحال قد ادت الى خذلان الشعوب العربية

وهم ورثة أمة استطاعت فى يوم من الأيام أن تكون فى ذروة المجد الانسانى فى شتى ميادين النشاط وأن تخلف للبشر جميعا تراثا نفيسا فى العلم والفن والادب والمثل العليا . كانت الأمة العربية فى وقت من الأوقات هى أمينــة الجنس البشرى على الحضارة وهى رائدة التقــدم فى كل ميادين الروح والعقل والفن . فما كان أشد على النفوس من أن تنحدر هذه الشعوب الى مهاوى الضعف والانحلال وتلقى مصير الشعوب اللاهية فى أهوائها وأوهامها

ولكننا بحمد الله قد نجونا من الهوة التى كان ذلك العهد المظلم يسوقنــا اليهــا ، وأخذنا فى سبيل تحطيم الطغيان والفساد ، وعقدنا العزم على أن نفتح ميدان الحياة على مصراعيه ، ونبيحه لكل من يريد أن يجول فيه

هكذا تصير مغامرة الحياة جديرة بالشعب الذى ورث عن أجداده تقاليد المجد الرفيع وهكذا يستطيع الجميع أن يقفوا وجها لوجه أمام ظروف الحياة وأمام الطبيعــة التى لا تعرف المحاباة ولا التزييف ، ولا العوامل المصطنعــة او الحدود الجائرة

لقد آن لنــا أن نستقبل الحيــاة بكل ما فينا من قوة الارادة والعقل والروح لنعيش كما عاش أجدادنا من قبل ، وكما تعيش الأجيال الحيــة المجاهدة التى تستحق نعمة الحياة . هذا عهد جديد يطلب من أهل هذا الجيل من أبناء الشعوب العربية ان يقوموا بأداء واجبــاتهم التى فرضها ميراثهم العظيم من أجيال الآباء ، ذلك التراث الذى تعاون على تكوينه كل الأسلاف الذين حملوا أمانة التقدم الانسانى مدى قرون كثيرة . وعلينا نحن أن نضيف الى هذا التراث العظيم نصيبا من ابتكارنا ومن نشاطنا ومن تفكيرنا . فهذا هو سبيلنا الوحيد لتحطيم بقية القيود التى خلفتها لنا عصور الانحراف والظلام . وعلى شباب هــذا الجيل خاصة أن

يسارع الى معرفة نفسه حق المعرفة وأن يتغلغل فى أعماقها ليعرف ما يستطيع وما لا يستطيع ويرسم لحياته غاية يحرص عليها ويحب ان يحيا من أجلها ويبذل لها كل مقدرته وكل ارادته وكل عاطفته بل يودع فيها روحه ليكون تحقيقها تحقيقا لوجوده . لكل منا جانب خاص يمكن ان يكون موردا عزيزا للخير والبركة اذا عرفه وأخلص فى الاستفادة منه . وكل من يقدر على التفوق فى ناحية من النشاط الانسانى يمكن أن يصبح من رواد الانسانية اذا اتجه بقلبه الى الانتفاع بهذه الميزة . قد يكون العامل الصغير رائدا للانسانية اذا عرف من نفسه ناحية يتميز بها ويعمل على استغلالها كما قد يكون الزارع والطبيب والمعلم والأديب والفنان . كل منا يكون من رواد الانسانية اذا عرف ناحيته التى يبرز فيها وركز كل نشاطه فى خدمتها . ونحن فى هذه الفترة من حياتنا نعيش فى عهد انتقال من عهد العبودية والطغيان الى عهد التحرر والعدالة، وهذه الفترة من اخطر الفترات التى تمر بها الأمم فى اول عهود نهضتها . ذلك لأن الشعب المطحون اذا خرج من تحت النير الثقيل لا يتاتى له ان يثب مرة واحدة فى الفضاء الطلق . وعندما تتحرر النظم وتزول الحدود والعقبات القديمة تبقى آثار الماضى فى داخل النفوس والضمائر تعمل عملها فى خفاء . فالمستعبدون يحتفظون بكثير من آثار الطغيان حتى بعد أن تفك قيودهم ، وعليهم اذا أرادوا التحرر حقيقة أن يجاهدوا أنفسهم وضمائرهم أولا

هذا هو الجهاد الأكبر . هذا هو الجهاد الذى يحتاج الى كل عزائمنا وكل اخلاصنا وكل صراحتنا . والترياق المضمون الكفيل بتطهير الأنفس والضمائر من آثار الطغيان هو نفس الدواء الذى يمد الشعوب للثورات على الطغيان ،

هو تحويل الأفكار بالعلم والبحث وتحريك القلوب بالفنون والآداب

ان هـذه النهضة الحديثة التى عمت الشعوب العربية ومهدت لها السبيل الى الوعى بحقوقها وبوجودها ، انما هى وليدة للتراث العلمي والفنى والأدبى الذى خلفه لنا العلماء والفنانون والأدباء فى عشرات السنين الأخيرة ، مضافا الى التراث القديم الذى خلفته الأجيال المجيدة الأولى . فاذا كنا نريد حقاً أن نطهر نفوسنا من آثار الماضى المظلم وأن نزيل كل ما علق بها من سمومه وأدرانه ، واذا أردنا أن نداوى العقد الفكرية والنفسية التى خلفتها لها أعوام طويلة من الفساد والاسفاف ، واذا أردنا أن نوجه بصائرنا وأبصارنا الى آفاق جديدة وغايات سامية فى حياتنا . اذا أردنا ذلك كله كان لابد لنا من حركة علمية جديدة وحركة فنية أدبية تدفعنا الى الأمام وتنير لنا طريقنا الذى بدأنا السير فيه

ان من أشد الأخطار علينا أن ننسى أو نتجاهل قيمة الفكر والفن والأدب أو أن نضعها فى غير المكان اللائق بها فى مقاييس القيم التى نقيس بها شؤون حيـاتنا . ان الفكر والفن والأدب تنمى ثروتنا الانسـانية ولا أظن ان أحدا يجادل فى ان الثروة الانسانية لها المحل الأول بين أنواع الثروة . قد نستطيع أن نبنى وأن نعمر وأن ننشىء المصانع والخزانات وأن نمد الطرق ونختط المـدن والقرى وأن نتم كل ذلك على أحسن الوجوه وأبرعها ولكن هذه الاصلاحات تذهب كلها هدرا اذا لم تدعمها تنمية الثروة الانسانية . المستشفى بغير الطبيب الانسان الشاعر بمسئوليته المتحرر من آثار العبودية والفساد لا تزيد على بناء خاو خرب ، والمدرسة بغير المدرس الانسان الشاعر بجلال وظيفتـه والمخلص فى الايمان بحريته والعامل على تحرير تلاميـذه لاتكون سوى مجموعة من حجرات فيها مقـاعد جلوس

للأطفال ، بل قد تكون اسوأ من ذلك واقل قدرا . وهكذا كل المنشئات وكل المرافق المادية لا تساوى شيئا اذا لم يملأها العنصر الانسانى السامي

فكل حركة تؤدى الى تقوية الفكر والفن والأدب تخدم مستقبل هذه الشعوب العربية الطامحة الى العلا والحرية والعدالة ، وكل عامل على زيادة هذه الحركة يؤدى خدمة جليلة لاخوانه من أبناء هذه الشعوب العربية

▭

وقد كنت منذ حين احاول القيام بشيء من واجبى فى هذا الميدان الذى اظن انى استطيع ان اجول فيه بقدر طاقتى ، لأشارك فى التوجه مع قومى من ابناء الشعوب العربية الى الآفاق الجديدة التى بدأت تطلع علينا . هذا واجب أحسست دفعه فى أعماق قلبى ولم أملك الا ان أطيع دفعه بقدر ما أتيح لى من جهد ومقدرة

وقدعرضت على فى الشهورالأخيرة فكرة جديدة وجدتها تلائم وجهتى وفكرتى . وذلك ان مؤسسة فرنكلين المساهمة الأمريكية طلبت الى ان أشرف على اخراج كتاب فى اللغة العربية ينفع الشباب بما فيه من أمثلة على الكفاح فى الحياة والتفانى فى تحقيق غاية نبيلة لها . واقترحت على ترجمة كتاب « حياة أولاد فقراء صاروا من المشاهير » وهو من الكتب المعدودة التى لقيت نجاحا عظيما فى أمريكا وسائر أقطار الأرض ولا سيما بين قراء الشباب . وقد وجدت فيه سيرا عدة للمشاهير من رجال العلم والعمل والفكر . وهي نماذج بشرية تظهر كيف يستطيع الفرد ان يشق طريقه الى المجد بقوة نفسه وصدق عزمه ومتانة خلقه . فما كدت أطلع عليه حتى اهتز قلبى أملا وابتهاجا لأن تلك

السير تصف كيف جاهد هؤلاء العظماء منذ أيام صباهم وكيف عانوا المشقة من الضيق والفقر والحرمان ، ثم كيف وقفوا وجها لوجه أمام الظروف الشديدة التى أحاطت بهم حتى أخضعوها لارادتهم وجدهم واستطاعوا أن يسيروا خطوة خطوة نحو الغاية التى رسموها لأنفسهم فما زالوا حتى تسنموا المجد وخلقوا من ورائهم قصة تراث نفيس فى العلم أو الفن أو الفكر أو الخدمة الانسانية

فحياة هؤلاء الأبطال أكبر مثال يمكن أن يوضع أمام الشباب فى هذا الجيل ليروا فيه صور أنفسهم كما ينبغى أن تكون صور أنفسهم اذا تحللوا من قيود الماضى ودخلوا الى ميدان المغامرة الانسانية العادلة ، وكافحوا بكل ما فيهم من قوة الذكاء والعزيمة والخلق المتين

لقد كان شبابنا دائما يقنع بالمطالبة ، ويحلق مع أحلام اليقظة ويتعلق بالأمانى ، ثم ينظر حوله الى المعين الذى يأخذ بيده لأن الحياة كانت لا تفتح أبوابها الا لمن كان له سند من أهل السلطان الذين استأثروا بالسيادة . ولكن هذا العهد عهد المغامرة الحرة أو ينبغى أن يكون هكذا . وشبابنا مطالب بأن يدع المطالبة والتعلق بالمنى وأحلام اليقظة وأن يستعيض عن ذلك كله بالمبادأة . هذه الحياة أمامه فليضرب فيها بذكائه وقوة عزيمته ومتانة خلقه . وهذه أمثلة لصغار كانت تحيط بهم الأشواك ثم بنوا لأنفسهم ذكرا خالدا

وقد رايت أن أزيد الكتاب قدرا بأن أضيف اليه مجموعة من سير بعض مشاهير العرب الذين بنوا لأنفسهم ذكرا خالدا فى ميادين الحياة المختلفة ، وقد نشأوا فقراء كأمثالهم فى البلاد الأخرى تحيط بهم الأشواك . وكان نصيبى فى هذا الكتاب أن ترجمت بعض فصوله وراجعت بعض فصول أخرى ترجمها شاب أديب له قصة طريفة أود أن أسجلها هنا .

عرفت الأستاذ سعد الغزالى خريج كلية الآداب عندما كان يعمل فى الصحافة . ورأيت أن يقوم بترجمة فصول من هذا الكتاب لما عرفت فيه من قوة النفس ومتانة الخلق وبلاغة القلم والمقدرة الممتازة فى معرفة اللسان الانجليزى . ولكنه ما كاد يبدأ فى الترجمة حتى دعى للانخراط فى سلك الجندية تأدية لواجبه الوطنى . فكان من أكبر ما يدعو الى سعادتى أن يزورنى فى زيه العسكرى لنتذاكر فيما ترجم ونقرأه معا ونعيد فيه النظر معا . فكنا نمثل جيلين من أبناء مصر يتعاونان على خدمة اللغة العربية الشريفة والشعوب العربية الشقيقة . هذه آية تبشر بأن اجيال مصر تتعاون فى خدمة الوطن والعروبة . وكانت أكبر مكافأة لنا ان نحس اننا قدمنا الى اخواننا شيئا يختلط بقلبينا ونرجو أن يصل الى قلوبهم أيضا

واما السير التى أضيفت الى الكتاب فلم يكن لى فيها الا فصل واحد وهو ترجمة الأستاذ العظيم على مبارك معلم مصر الأول . وكان من حسن الحظ أن أستجاب الى النداء نخبة من كبار الأدباء ورجال الفكر ورجال الأعمال فكان لهم الفضل فى أن الكتاب أصبح شاملا لأروع المثل فى العالمين الغربى والشرقى . .ولست استطيع ان اوفى حق هؤلاء الفضلاء من الشكر وحسبهم انهم ارضوا انفسهم بالمشاركة فى خدمة الثقافة العربية . فقد كتب الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد سيرة للزعيم العظيم سعد زغلول وكتب الدكتور سعيد عبده ترجمة للجراح الأكبر على ابراهيم .. وتفضل الأديب الكبير طاهر الطناحى فكتب فصولا ثلاثة عن جرجى زيدان المؤرخ ، وسليم تقلا الصحافى الأديب ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم .. كما تفضل الشاعر المبدع والكاتب البارع عادل الغضبان فكتب فصلين احدهما عن رجل جمع بين ميادين العمل ، وميادين الانسانية وهو

سمعان صيدناوى وعن نابغة آخر جمع بين الابداع فى الفن والابداع فى الأدب وهو جبران خليل جبران

وما كان يمكن أن يصدر كتاب عن سير عباقرة العصاميين بغير أن يكون فى مقدمتهم رائد الاقتصاد المصرى الأول طلعت حرب وكان صاحب الفضل فى ترجمة حياته السيد محمد رشدى عضو مجلس الادارة المنتدب لبنك مصر . وقد تفضل عالم الموسيقى الدكتور محمود الحفنى فكتب سيرة حياة فنان مصر الأول فى الموسيقى عبده الحامولى

وقد رأيت أن أدخل شيئا من التعديل على عنوان الكتاب فجعلته « عصاميون عظماء » وهو لا يختلف فى معناه عن عنوان الكتاب الأصلى الذى ترجمنا أهم فصوله

وكتاب « أطفال فقراء صاروا من المشاهير » واحد من عدة كتب ألفتها سيدة أمريكية بارعة ، هى سارة بولتون التى قضت حياة حافلة بالتأليف والتعليم والخدمة الاجتماعية فى أواخر القرن الماضى ، اذ كان ميلادها فى عام ١٨٤١ وانتهت حياتها العريضة فى عام ١٩١٧ ففيما بين هذين التاريخين ألفت عدة كتب قيمة منها مجموعة من كتب السير توفرت فيها على ترجمة حياة العظماء الذين نشأوا فى صفوف الفقراء وجاهدوا حتى بلغوا أوج العظمة . وكتاب « أولاد فقراء صاروا من المشاهير » واحد من أحب هذه الكتب الى القراء ، اذ طبع لأول مرة فى عام ١٨٨٥ وأعيد نشره فى عام ١٩٤٧ بعد أن نقح وروجع . ومما يجدر بى ذكره انه قد وزع منه أكثر من ٨٥٫٠٠٠ نسخة وما يزال يتدفق الى القراء الى اليوم والذى أرجوه من هذا العمل الذى توفر عليه هذا العدد من كبار المفكرين والكتاب والأدباء من أجيال شتى بين الشباب والشيخوخة أن يدخل شيئا من الرضى الى قلوب نريد لها أن ترضى وأن يزدهر أملها . وأن يخرج كل من يقرأ هذه الفصول مستبشرا ، فان الحياة فسيحة لكل عامل مجاهد

محمد فريد أبو حديد

الجزء الأول

عصاميون من الشرق

سعد زغلول



سعد زغلول

« كان عصاميا وهو طالب ، وعصاميا وهو موظف ، وعصاميا وهو محام ، وعصاميا وهو قاض ، وعصاميا وهو وزير ، وعصاميا وهو نائب ، وعصاميا وهو زعيم »

عظيم كل حياته عصامية

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

ما هى العصامية ؟

عند كثير من الناس ان العصامية هى مجرد الانتقال من حالة الخمول والفقر الى حالة الجاه والثروة

ولكن المرء قد ينتقل من الخمول والفقر الى الجاه العريض والثروة الوافرة ولا يحسب من العصاميين ، لأنه لم ينتقل هذه النقلة بعمله وجده بل كان الفضـــل فى غناه ونفوذه للمصادفة ولا يندر أن تجيئه المصادفة بغير حسبان وعلى الرغم منه ، ومن هذا القبيل اننى أعرف تاجرا كان يتبرم بما عنده من البضائع الكاسدة ومنها الصبغة المعروفة باسم « التفتة » والكبريت ، ثم انقطعت هذه الاصناف بعد اعلان الحرب العالمية الاولى فتضاعف ثمنها واصـــبح الرجل من الاغنياء ذوى النفوذ ، ولو انه نجح فى بيع بضائعه قبل ذلك ببضعة اشهر لأبقاه النجاح حيث كان من الخمول والكساد

وعلى نقيض هـــذا قد يولد المرء فى بيئة الجاه واليسار ويبلغ الذروة من العصامية ، لأنه بلغها منفردا بين أمثاله من أبناء الوجهاء والاغنياء

فالعصامى هو الذى ينجح فى تكوين نفسه سواء نشأ فى مهاد الفاقة أو مهاد اليسار

والكلمة العربية مأخوذة من اسم عصام الذى سود نفسه ولم يكن لأحد غيره فضل فى تسويده

نفس عصام سودت عصاما
وعلمتــــه الـكر والاقــداما

والكلمة الانجليزية التى تقابلها معناها « صانع نفسه » Self made وتقرب منهـا الـكلمة الفرنسية التى تقول عن العصامى أنه ابن عمله Fils de ses œuvres

وبهذا المعنى يحسب سعد زغلول من العصاميين ، بل يحسب عصاميا عدة مرات لا مرة واحدة ، لأنه صنع نفسه فى كل مرحلة من مراحل حياته على نحو لا يستطيعه أمثاله فى بيئته

كان عصاميا وهوطالب ، وعصاميا وهوموظف ، وعصاميا وهو محام ، وعصاميا وهو قاض ، وعصاميا وهو وزير ، وعصاميا وهو نائب ، وعصاميا وهو زعيم

الطالب العصامى

ينتمى من جهة أبيه وجهة أمه الى أعلى طبقة من طبقات الريف فى بلده ، وكان قصاراه أن يتعلم القراءة والـكتابة والحساب كما يتعلمها أمثاله ، ثم يرشح نفسه للعمدية أو المشيخة ، أو يقنع بمورده من زراعة الارض وبيع محصولها ، كما يصنع المئات من أوساط الفلاحين .. ولكنه أتم التعليم ولم يقنع بالقسط الذى يناله الصبى المتعلم فى مكتب القرية ، ولم يقنع بتعليم البندر والبلدة القريبة كمطوبس ورشيد ، فأرسله أهله الى القاهرة ليتم تعليمه بالجامع الازهر ، وهو يومئذ جامعة القطر كله يتبرك الآباء والابناء بطلب العلم فيه

قال لى من عاصر سعدا فى مكتب قريته ان التلاميذ كانوا يطالبون باعادة ربع من القرآن الكريم أو ربعين على الاكثر بمراجعة المعلم ، فكان سعد لايقنع بأقل من ثلاثة أرباع ولا يفعل ذلك لارضاء معلمه لأن معلمه كان يضيق بهذا الاجتهاد الذى يرهقه بمزيد من المراجعة لو سار التلاميذ كلهم على

منهج سعد فى الاعادة ، ولكنه كان يعيد ما يعيده ليفعل شيئا يزيد به على النظراء

وسمعت سعدا يقول غير مرة عن فضل التعليم الأزهرى يومذاك انه كان تعليما حرا بأفضل معانى الحرية ، لأن الطالب كان يختار معلمه ويمتحن معلميه قبل أن يمتحنوه

وكان هذا حقا هو النظام المتبع يومئذ فى الجامعة الأزهرية ، فكان كل شيخ يجلس الى حلقته ليلقى درسه فى موعده ، وكان يتفق فى الوقت الواحد أن يلقى درس النحو او الفقه أو البلاغة ثلاثة اواربعة من العلماء ذوى الاجازات ، فيستمع الطالب الى كل منهم ويختار من يرتضيه بعد سماعه ، ولا اكراه عليه لو اختار ثم عدل عن اختياره بعد حين

وينجح سعد أكبر نجاح فى ذلك الامتحان : نريد امتحانه هو لأساتذته ولا نريد امتحان الأساتذة اياه . فانه اختار أستاذا لا نظير له بين علماء عصره ، واختاره بعد أن وازن بينه وبين جميع الأساتذة لأنه كان يلقى دروسه حيث يقيم خارج الجامع ، ولم يؤذن له يومئذ بالقاء دروسه فيه

ذلك هو مصلح الشرق العظيم جمال الدين

ونحن نقول اليوم مصلح الشرق العظيم ويقولها معنا الشرق الاسلامى كله ، ولكنه لم يكن فى ذلك العصر عند الاكثرين الا الزنديق جمال الدين ، والملحد جمال الدين ، ومنهم من كان يستكثر عليه اسمه فيذكره باسم ضلال الدين أو الافغانى الافاق ، ووصفته حكومة ذلك العصر حين طردته من مصر فقالت انها « ابعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية ، بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس الى الاقطار الحجازية ، لازالة هذا الفساد ، من هذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين ، البادى من افعالهم الظاهرة ، انهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة ! . . »

فلا ريب انها كانت عصامية نادرة تلك التى ألهمت سعدا أن يختار أستاذه على صعوبة الاختيـار بين هذه الاقاويل وهذه الاباطيل ، ولا ريب أنها كانت عصامية أندر منها تلك التى أفردته بين شبان المصريين الذين حضروا على جمال الدين بما بلغ من عظمة الزعامة بعد ذلك ، فلم يكن منهم أحد قاد أمته كما قادها هو بعد جيل

الموظف العصامى

وخرج الشاب المقدام من الطلب الى وظائف الحكومة فعمل كاتبا فى « الوقائع المصرية » ، فكان عصاميا فى هذا العمل ، لأنه نهج بالكتابة منهجا لم يسبقه اليه الكتاب

ففى عصره كان التزام السجع شائعا بين الكتاب المعدودين من أهل البلاغة ، ومنهم أساتذته الذين يقتدى بهم نظراؤه ولعل القارىء قد لاحظ من بيان الحكومة عن نفى جمال الدين ان السجع ملتزم حتى فى أمثال هـذه الاوامر الرسمية ، وكأنما أراد كاتب البيان أن يلقى فى روع القراء انه يتكلم عن جمال الدين وهو كفؤ للكلام عنه ببلاغته وعلمه ، فصاغ بيانه على ذلك الاسلوب ..!

فلما أخذ سعد فى الكتابة شق طريقه فى الاساليب على سنة العصامية التى لا تمتاز بشىء كما تمتاز بقدرتها على شق طريقها لنفسها ، وأطلق قلمه من قيود السجع المتكلف الا ما كان فى تعبيره عن المعنى أصح من أسلوب الكلام المرسل، وكتب بلغة كلغة العلم الحديث فى تقرير المعاني واجتناب الحشو والفضول ، كقوله من فصل عن الشورى : « .. ومن البديهى الواضح ان نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها ، فانها ليست الا عبارة عن معانى أحكام مرسومة فى أذهان أرباب الشريعة وعلمائها ، أو مدلولا عليها بنقوش مرقومة فى الكتب ، ولا يكفى فى تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد فى ذلك من وجود أناس يتخلقون بأخلاقها ويظهرون

بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير فى طريقها ، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضى الله عنه الناس فى خطبته الى تقويم ما عساه يكون فيه من الاعوجاج فى تنفيذ أحكام الشرع الشريف ، وقال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » اذ لا يخفى ان هذه الآية الشريفة عامة فى دعوة الملوك وغيرهم الى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده حاكما كان أو محكوما . وليس الأمر هنا للندب كما فهم بعضهم ، بل للوجوب والفرض كما صرح به العلماء .. »

هذا مقال كتب قبل نيف وسبعين سنة ، ولو كتب اليوم لما ميزه القارىء من أحدث الأساليب فى القصد وصحة الأداء

واستفاد سعد من عمله فى « الوقائع المصرية » مالا يستفيده كل عامل فى تحريرها ، اذ كان من موضوعات « الوقائع » أن تنشر نقدا متواليا لأحكام المجالس الملغاة ، فعكف على دراسة المسائل القانونية واستعان على فهمها بما يعلمه من فقه الشريعة ، ولم يلبث أن رشحه علمه بالشريعة والقانون لوظيفة شبيهة بوظائف القضاء ، فوقع عليه الاختيار لوظيفة ناظر قلم القضايا بمديرية الجيزة ، وكان من اختصاصها اصدار الاحكام فى كثير من المواد الجزئية

المحامي العصامي

وترك وظائف الحكومة بعد الثورة العرابية ليشتغل بالمحاماة ، فاسبغ على هذه الصناعة كرامة لم تكن معهودة لها بين أهلها ولا بين جمهرة الأمة فى ذلك الحين ، وحسبنا من الدلالة على هوان شأنها يومئذ انه كما قال فى خطابه للمحتفلين بتوليته القضاء قد لجأ اليها « والخجل يستر وجهه لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها » . وخطب فى

ذلك الحفل زميله حسن الشمسى فقال : « ان فى القضاة من تغالى فى حب الاستقامة حتى ارتاب أن يكون فى طائفتها مستقيم .. »

وهذه هى الصناعة التى أعطاها كعادته ما لم يكن لها قبل اشتغاله بها ، وما لم تأخذه قط من مشـــتغل بها قبله : أعطاها المكانة التى ترشح واحدا من أبنائها لمركز القاضى بمحكمة الاستئناف ، وكان أول محام أسند اليه منصب قاض فى تلك المحكمة (سنة ١٨٩٢).

القاضى العصامى

وأصبح المحامي العصامى صانع نفسه ، قاضيا عصاميا صانعا لنفسه كذلك ، فتعلم اللغة الفرنسية وتقدم لامتحان الحقوق فى باريس ، فنال اجازتها بدرجة متفوقة ، وجعل اسمه علما من اعلام القضاء المصرى يفخر به قضاة مصر وطلاب القانون فيها حتى اليوم

وما شأن قاض والتعليم وهو فى محكمته بين قضاياه ؟.. لاشأن له به ولا لوم عليه اذا اكتفى بعمله وليس هو بالعمل اليسير ، ولكنه اذا كان قاضيا كسعد فرض على نفسه فى كل صناعة ما لم يكن مفروضا عليه ولاعلى أحد من أبنائها ، فمن منزله صدر المنشور بانشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ ، وبارشاده وتدبيره نشأت الجامعة وكتب لها البقاء

وكانت معونته على كل عمل من أعمال التربية القومية مشجعا للقائمين بها على اختلاف هـذه الاعمال ، فساعد الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ومصطفى كامل صاحب اللواء على احياء الصحافة المصرية ، وساعد قاسم أمين على الدعوة الى تحرير المرأة ، فلم يجد قاسم من يهدى اليه كتابه غير سعد زغلول

وتكررت فى القضاء تلك الخصلة التى لازمته فى كل مرحلة من مراحل حياته ، فكان القـــاضى الاول الذى انتقل من

القضاء الى الوزارة حين أريد تجديد التبعـــات الوزارية ، وندع التقدير هنا للغرباء لأن أفضل الفضل ما شهد به الغريب

قال المسيو دى هولتز الذى خطب فى الاحتفال بتوديعه القضاء لأنه كان أكبر المستشارين سنا : « ربما خطر ببالك عندما تركت المحاماة الى القضاء ان ذلك كان شرفا لك ، نعم انه كان شرفا ولكنه شرف لنا معشر القضاة ، شعرنا به عقب وجودك بيننا اذ تمكنا من أن ننظر عن كثب الى أخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك »

وقال المركيز زتلاند فى ترجمته للورد كرومر : « ان كرومر نفسه قد خطا فى سبيل صبغ الحكومة بالصبغة الشعبية المحبوبة خطوة الى الامام قبيل رحيله من مصر حين أوصى بتعيين مصرى معروف بنزعته الوطنية وزيرا للمعارف ، ونعنى به سعد زغلول .. »

وكان لورد كرومر يلقب فى مصر بقيصر قصر الدوبارة ، ويقول شاعر الامير فى تشييعه بعد اعتزاله :

أو حاكما فى أرض مصر بأمره
لا سائلا أبدا ولا مسئولا

فتمام التقدير الذى رأيناه من دى هولتز وزتلاند أن نسمع قيصر قصر الدوبارة يقول عن سعد انه علمنى كيف أحترمه .. ولم يقلها كرومر قط عن احد سواه

الوزير العصامى

كان أول وزير مستقل بارادته مع المستشار الانجليزى على ما كان معلوما يومئذ من الزام الوزير أن يستمع الى المستشار ، وفقا لبرقية اللورد جرانفيل

ولم يكن مستقلا عن المستشــــار وحسب ، بل بلغ من استقلاله انه حافظ عليه امام الخديو واللوردكتشنر مجتمعين متفقين ، فطلب عزل الوصى على دائرة الاميرة صالحة وهو

معين من قبل الخديو وصديق شخصى لـكتشنر يصاحبه على الدوام فى رحلات الصيد والرياضة ، ولما حيل بينه وبين محاسبة الرجل استقال من وزارة الحقانية وعاد الى المحاماة

وتبدو كلمة « عاد الى المحاماة » بسيطة سهلة فى هذا السياق ، لأننا عرفنا فى الايام الاخيرة وزراء كثيرين خرجوا من الوزارة وقيدوا أسماءهم بجدول المحامين

أما قبل أربعين سنة فلم تكن بسيطة ولا سهلة ، بل كانت دهشة الناس لها كدهشتهم لخوارق العادات ، فلم يحدث ان وزيرا خرج من الوزارة فاشتغل بعمل آخر كائنا ماكان ، لاعتقادهم ان الوزارة أرفع شأنا من كل عمل فلا يحسن بمن ارتفع اليها أن ينزل الى ما دونها ، والا فهو يهين نفسه ويبتذل اسمه بالعمل كما يعمل خلائق الله !

النائب العصامي

ولحقت بهذه الدهشة دهشة أخرى اكبر منها وأبعد منها عن خواطر ولاة الامور وسائر المصريين

فلم يخطر للخديو ولا للوزارة ولا للعميد البريطانى عند التفكير فى انشاء الجمعية التشريعية ان سعدا سينزل الى ميدان الانتخاب ليطلب أصوات الناخبين ويزاحم المرشحين ، ولعلهم لو خطر لهم هذا الخاطر لاتخذوا له من الحيطة مايريحهم من عواقبه المعروفة والمجهولة .. الا ان العصامية لاتكون جديرة باسمها ان فعلت مايتوقع منها ولم تزد عليه. فنزل سعد الى الميدان على خلاف ما قدروه ، ونجح فى دائرتين لا فى دائرة واحدة ، وتغلب على المزاحمة القوية ومن ورائها سلطان الوزارة وسلطان القصر وسلطان الوكالة البريطانية ، وظفر فى داخل الجمعية بكثرة الاصوات عند الترشيح لمنصب الوكيل المنتخب . أما الرئيس والوكيل

الآخر ، فقد كان دستور الجمعية ينص على اختيــارهما بالتعيين

الزعيم العصامى

ثم برزت العصاميـــة الكبرى فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، فنهض وكيل الجمعية التشريعية بزعامة الامة كلها ، وذهب على أثر اعلان الهدنة الى دارالحماية البريطانية يطالب باستقلال البلاد ، وكانت دهشة لم يتوقعها عميد دار الحماية فقال متعجبا مستوثقا : « كأنكم تطلبون الاستقلال ؟ ! »

قال سعد : « نعم .. ونحن له أهل »

ولحسن الحظ دائما ان العصامية تاتى بغير المتوقع ، فلو أن رجال الحماية البريطانية توقعوا هذه المطالبة لما اعياهم أن يحولوا بين سعد وبين دعوى الوكالة عن الامة . انهم كانوا لايستطيعون أن يخيفوه ولا أن يثنوه عن عزيمتـــه ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يمنعوا كتابة التوكيلات له فى طول البلاد وعرضها ، فلا يظهر صـــوت الراى العام على حقيقته كما ظهر من تلك التوكيلات التى وقعها المصريون بعشرات الالوف

ثم كانت زعامة ولا كل الزعامة

كان فى مصر زعماء يقول الخصم عنهم انهم يتكلمون باسم طبقة الباشوات ولا يتكلمون على هذا باسمها جمعاء

وكان فى مصر زعماء يقول الخصم عنهم انهم شـــبان طائشون يتبعهم طائفة من الطلبة والتلاميذ

وكان فيها زعماء يقال عنهم أنهم لايمثلون اصحاب المصالح الحقيقية ولا يجمعون حولهم من لهم حق الانتخاب

وكان فيها زعماء يقـــال عنهم انهم ينكرون الحماية البريطانية ويرضون بالسيادة التركية ، أو يقال عنهم انهم متعصبون لايؤتمنون على مخالفيهم فى الدين ، او يقال عنهم انهم غير مصريين وليس لهم من الوطنية الصحيحة نصيب

كان فى مصر زعماء ، ولم يكن فيها زعيم

فلما نهض سـعد بأمانة الزعامة اذا بالامة كلها تدين بزعامته ، واذا بها أول زعامة مصرية يتبعها الاغنياء والفقراء والشيوخ والشبان ، والرجال والنساء ، والمسلمون والمسيحيون ، ولم تسبقها فى الزمن الحديث زعامة وطنية الى توحيد وطنى كهذا التوحيد العجيب

وكل هذا بدع فى العصامية لايتكرر فى سيرة كل عصامى خالق لمجده ، ولكنه فيما نرى قد ترك فى سيرة هذا الرجل الفذ محلا لمزية عصامية أعسر على طلابها من جميع هـذه المزايا ، وهى المزية التى تتخطى حواجز العصبية القومية وفوارق المعيشـة البيتيـة ، فقد كانت تقاليد البيت « الارستقراطى » فى مصر تأبى على أهلها أشـد الاباء أن يتزوجوا من أبناء الفلاحين أو بنات الفلاحين ، لأن الطبقة الارستقراطية كانت تتربى على المعيشـة التركية وتتكلم التركية فى بيوتها بدلا من العربية ، ولم يتفق فيما نعلم ان أحدا ممن عاشوا هذه المعيشة رضى بمصاهرة فلاح من الريف على الخصوص ، وكان سـعد من صميم الفلاحين الريفيين فتقبلته هذه البيئة أحسن قبول ، ثم كان أعجاب قرينته به وبأدبه فى بيته مثلا نادرا بين الازواج من بيئة واحدة بل من أسرة واحدة ، فكادت اقامة زوجته فى ضريحه أن تغلب على مقامها بدارها ، وكانت تقضى معظم نهارها فى الضريح ثم تختار للجلوس فى دارها الحجرة التى تطل عليه

وتوفى سعد وهو رئيس لمجلس النواب ، فمن تحصيل الحاصل بعد ما تقدم أن يقال أنه كان كعادته فى هذه المرحلة الاخيرة من عمره : رئيسا ولا كل رئيس

واذا كانت للعصامية طبقات فهذه هى طبقتها العليا ، أو هذه هى العصامية بين العصاميين

طلعت حرب



طلعت حرب

« ما كان يمكن أن يصدر كتاب عن سير عباقرة العصاميين بغير أن يكون فى مقدمتهم رائد الاقتصاد المصرى الاول طلعت حرب »

زعيم الاقتصاد المصرى

بقلم الأستاذ محمد رشدى

عضو مجلس الادارة المنتدب لبنك مصر (١)

حينما طلب مني أن اكتب عن طلعت حرب ـ ولى به رباط خاص ـ تملكتنى حيرة بالغة ، واكتنفنى حياء احسست عجزا عن دفعهما . وفيما انا على هذه الحال ، اذا بناحية كريمة تقطع على طريقى .. تلك هى ان طلعت حرب لم يخلق لأسرته وحدها ، بل اتخذ من أمته أسرة ، وجعل من نفسه لنا جميعا أبا رحيما طوال حياته . والكتابة عنه فيها نفع كبير للمجتمع . ومن واجبى أن أبادر ، فاكتب وفاء لفضله ، وعرفانا بجميله

بدأ طلعت حرب حياته العملية ، كأى شاب مثقف فى عصره ، فما كاد يتم دراسته ويحصل على اجازة الحقوق حتى التحق باحدى الوظائف الحكومية . غير أن نفسه الكبيرة الوثابة أبت عليه أن يخلد الى عمله الرتيب وأن يكتفى من العلم والمعرفة بما حصله من قبل ، فأخذ يستغل أوقات فراغه فى استيعاب ما تضمنته أهم الكتب التى أخرجها كبار العلماء والأدباء والفلاسفة والساسة فى الشرق والغرب ، من السلف والمعاصرين . وحرص على غشيان

(١) الاستاذ محمد رشدى من الدعائم الكبرى لبنك مصر وشركاته ومن كبار الاقتصاديين ورجال القانون المصريين وهو زوج كريمة المرحوم محمد طلعت حرب

المجالس والمنتديات الخاصة والعامة للانتفاع بما يتردد فيها من أفكار وآراء وبما يدور حولها من نقاش وتمحيص . وما لبث قليلا حتى كانت لديه مكتبة زاخرة بأنفس المؤلفات القديمة والحديثة ، وامست داره منتدى يؤمه نخبة من رجالات العلم والأدب والاجتماع والسياسة . فكان لهذا كله أثر كبير فى نفسه غير مجرى حياته ، اذ لم يطق صبرا على قيود الوظيفة واغلالها ، وسرعان ما تحلل منها ، وأخذ طريقه الى العمل الحر

□

وفى ذلك الحين ، كان مثل هذا الاتجاه يعد مجازفة أو مغامرة غير مأمونة العاقبة ، ولم يكن طلعت حرب الشاب المقدام الجسور بالذى يخفى عليه ذلك ، ولكنه أقدم عليه بعد طول تفكير وتقدير وتدبير ، ووضع نصب عينيه أن عليه رسالة يجب أن يؤديها لبلاده ، وهذه الرسالة تقوم على أن مصر يجب أن تبنى نفسها بنفسها ، لكى تسترد عزتها وكرامتها ومجدها ، ومكانتها التى أهلتها لبلوغها عراقة حضارتها ومدنيتها ، وخصوبة تربتها ، وكثرة الأيدى العاملة المخلصة فيها ، وموقعها التجارى والصناعى الممتاز. وهكذا مضى فى سبيله الذى رسمه لنفسه ، مكافحا ذلك الجمود الذى جثم على صدور أبناء الوادى فأفقدهم ثقتهم بأنفسهم وأقعدهم عن استثمار أموالهم فى غير الزراعة على أوضاعها الموروثة ، وأخذ على عاتقه أن يواصل هذا الكفاح بكل ما أوتى من قوة وصبر وايمان ، الى أن يبدد ما يساور مواطنيه من الوهم وخشية مباشرة الأعمال التجارية والصناعية ، ويصلح ما أفسده الاستعمار والاستهتار فى ميادين الاقتصاد القومى ، مما أدى الى تغلغل المصارف

المالية والبيوت التجارية الأجنبية فى جميع انحاء البلاد ، والى تسرب اموال المواطنين الىخارج ديارهم حيث تستثمر لنفع غيرهم . وكانت هذه الأموال قد جاوز مجموعها مائة وخمسين مليون جنيه ، كما هو ثابت فى تقرير المستشار المالى سنة ١٩١٩

وسيلته فى تحقيق الرسالة

استهل طلعت حرب أداء رسالته فى مكافحة صدوف المصريين عن الأعمال التجارية بأن اقترح على صديق له كريم المحتد مرموق فى وسطه ، هو المرحوم فؤاد سليم الحجازى ، أن يفتتحا محلا لتجارة البقالة والألبان ، لكى يضربا لاخوانهما المثل الصالح فى ميدان يعود على طائفة كبيرة منهم بالخير والبركات ، وكان صديقه هذا عند حسن ظنه به ، فافتتحا ذلك المحل ، وسارا فى عملهما لايلقيان بالا الى ما يوجه اليهما من نقد مر ، ونظرات مملوءة بالسخرية والاشفاق ، بل تحدوهما عزيمة صادقة وايمان وثيق بأن العمل لصالح المجموع يسقط فى سبيله كل اعتبار ، ولا تؤثر فى نفس القائم به المظاهر الباطلة ، ثم قاما بدعاية واسعة لفتت أنظار مختلف الطبقات وقضت على كبرياء وانفة باطلتين ، وما هى الا فترة قصيرة حتى تفتحت عيون الكثيرين على ما فى التجارة من خير فاقبلوا عليها فى شتى أنواعها ، وبذلك تحققت الفكرة التى عمل لها ، فنزل وزميله عن محلهما لبعض المصريين

وبعد عامين ، أصدر طلعت حرب فى سنة ١٩٠٧ كتابا كشف فيه عن حاجة البلاد الى بنك وطنى ينشأ بمال المصريين ، وتعمل فيه أيد مصرية ، وتستخدم فيه اللغة العربية . وقد نبه فيه الأذهان الى الأموال الوفيرة العاطلة التى يستثمرها الأجانب فى غير صالح مصر والمصريين ،

وناداهم الى واجب وطنى مقدس هو استثمار مالهم ، والأموال الفائضة فى صالح الاقتصاد القومى ، وأبان لهم أثر المال فى حياة الأمم واستقلالها ، وشوقهم الى أن يعتمدوا على أنفسهم فى جميع حاجاتهم ، وما زال ينشر الدعوة ويجددها فى كل مناسبة ، حتى كانت الثورة المصرية ، فألقى فى أحضانها بذور هذه الدعوة المباركة ، وهو على يقين انها ستنبت نباتا حسنا باذن ربها . وكان هذا فى ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ، حينما افتتح البنك وقدر له الوجود

دستوره فى البنك

وقد وقف طلعت حرب فى ذلك اليوم التاريخى يخطب المؤسسين المكتتبين وعلية الأمة ، فصارحهم بأن البنك لم يقم فى مصر الا ليسد النقص الظاهر فى مرافق البلاد الاقتصادية ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولينير الطريق أمام المواطنين ، وسيعمل على تنظيم الحالة التجارية ، وعلى الاكثار من التاجر الذى يعرف قيمة الورقة التجارية والذى يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الإعتبار والشرف ، وليقيم بناء الصناعات شامخا فى ناحيتها النباتية والمعدنية . ثم أوضح فى جلاء ان العملية المصرفية البحت لم تكن غايته وحدها ، وان صالح المساهمين لن يقوم حائلا بين البنك وبين صالح المجتمع والوطن ، وانه سيعتمد فى احياءِ الصناعات على ثقة المصريين فى البنك ، وستتجلى هذه الثقة فيما يودع فيه من مالهم الفائض . وعلى هذا بدأ هو وزملاؤه خطواتهم معتمدين بعد الله على عطف الأمة وتشجيعها

وهناك حقيقة ظلت مطوية طوال السنوات التى مضت منذ انشاء البنك ، وهى تبرز ناحية من السمو الروحى والاكتفاء الذاتى لطلعت حرب ، تلك هى انه ظل طول

السنوات الخمس التالية لاقامة البنك وانشاء عشر شركات تابعة له لا يتقاضى اى اجر عن عمله المتواصل العظيم !.. ولولا ان حملة الأسهم فزعوا اليه يرجونه فى الحاف ان تكون له مكافاة عن عمله لقاء جهده المضنى ، ولولا انهم أعلنوه ان كرامتهم تأبى عليهم تسخيره وطالبوه بأن يجاهرهم بالقبول مشكورا ، لما أجابهم الى طلبهم ، على انه اشترط الا يكون للقرار اثر عن الأعوام الفائتة

ان فى ذلك لعبرة ، وان فيه لمثلا صالحا للرجل الذى يتصدى للأعمال العامة . فيقينى ان الرجل العام يجب ان ينسى نفع نفسه ، ويجب الا يكون أنانيا تنفر منه الجماعة . ويجب أن يكون التواضع شعاره . وهذه صفات لمسها كل من اسعده الحظ فعمل تحت لواء طلعت حرب . فالحق ان النفع الخاص لم يكن مبتغاه وانما كان يهدف الى احياء الصناعات فى مصر ، واقامتها مصرية صميمة لحما ودما ، يفتح بها ميادين أعمال مختلفة للمصريين ، ويحارب بها ازمة المتعطلين من المصريين

وقد وفق فى تحقيق هدفه ، ورأى بعينيه ان مشروعاته تدر على الشباب المثقف والعمال من أجور ومرتبات ما يقرب من اربعة ملايين من الجنيهات سنويا

وهذه القيمة الكبيرة لم يكن لها وجود من قبل . وقد ظل الشعب المصرى محروما منها قرونا عدة . وكان العبء كله على الزراعة والعمل فيها على نظم بدائية . وهذا الرقم الضخم يقوم الى جانبه ارقام مجهولة . فان اليد العاملة فى الزراعة نقصت نقصا ظاهرا . فكان لهذا اثره فى ارتفاع أجور العمال الزراعيين . ذلك ان الصناعات التى انشأها طلعت حرب قد امتصت عددا كبيرا من عمال الزراعة ، ورفعت من مستوى معيشتهم حتى وصلت الى أربعة أضعاف ما كانوا يتقاضونه وهم عمال زراعيون . وفى

امتصاص الصناعة لهؤلاء العمال تقليل لعددهم أفاد بطريقة غير مباشرة فى رفع أجور الباقين منهم وتحسين مستوى معيشتهم . هذا الى الانخفاض المحسوس الذى أصاب أسعار السلع التى تم صنع نظيراتها فى مصر ، حتى ان الباحث المدقق ليقدر ما أفاد البلاد من جراء الصناعات التى أقيمت عن طريق بنك مصر بأضعاف ما عرف عنها فى الأجور والمرتبات

وهناك ناحية كريمة سهر على تحقيقها طلعت حرب وهى حماية الثروة الزراعية والعقارية الأهلية من الانهيار . وبقدر ما كان عليه من حزم وحرص شديد على مال المساهمين ، فقد وقف فى أزمة سنة ١٩٣٠ الى جانب كثير من البيوت المصرية ، فوقاها العثار وأمنها الشر ، بأن مد فى الآجال ، وخفف الأعباء ، وأحجم عن التصفية ، ولم يقبض يده حيث وجب البذل ، وأزاح عن الكثيرين غاشية الكرب . وكان فى هذا كله مخرج كريم لأسر من أعز الأسر

جهاده فى تأسيس الشركات الكبرى

وهكذا نجح البنك ، واقبل المصريون عليه فى ثقة وطمأنينة فأودعوه أموالهم من نقد واقطان وحبوب ، وما أحس طلعت حرب بالأموال تختزن فى البنك حتى أخذ فى تنفيذ برنامجه الذى رسمه فى خطبة افتتاح البنك من اقامة الصناعات واحيائها فى مصر . فأنشأ مطبعة تزود البنك بالسجلات والمطبوعات والأسهم والسندات ، وهى تعد الآن أكبر دار للطباعة فى الشرق وأحدثها عددا وآلات . وأقام شركة لحلج الأقطان بدأت عملها فى مغاغة بوابور حليج واحد ، وهى الآن تدير تسعة وابورات فى مختلف المدن التجارية فى البلاد

وأحس بعد ذلك حاجة البلاد الى نقل الأقطان بأجور

معتدلة لا ترهق التاجر المصرى ، فاقام شركة مصر للنقل والملاحة . وحين كملت هذه الحلقة تطلع طلعت حرب الى غاية طالما تاق الى تحقيقها للبلاد ، وهى بحق فى المرتبة الثانية بعد الغذاء ، وقد توافرت مادتها فى البـــلاد وكانت مرتعا خصبا للدول الأخرى .. هــذه الغــاية هى غزل القطن ونسـجه واخراجه كساء للشعب بأسعار لا ترهقــه ، ومن مادة نقية متينة ، الى غير ذلك من الاعتبارات التى تحول بين اموال المصريين وتسربها الى الخارج ، فاقام شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، وانها لمفخرة المصريين الآن. وقد روعى فى اقامتها ما فات اعرق الأمم فى الصناعات ، فمن مصنع للغزل ، الى مصــــنع للنسيج ، الى مطبعة للصباغة والتلوين ، الى الاخراج سلعة تباع . كل هذا فى صعيد واحد يشغل رقعة من الارض تبلغ ٢٢٥ فدانا

كفاحه لنجاح الشركات

ومن الخير ان اشير الى حادث خطير عنى به طلعت حرب وشغل باله ، فان مصانع لانكشير وبرادفورد فزعت حين ترامت اليها اخبار هذه الشركة من حسن استعدادها وما ستكون عليه من انتاج لسد حاجة مصر وجانب كبير من الدول الشرقية ، فأعدوا العدة للقضاء عليها ، وكان ان اتحدت مصانع القطن فى انجلترا واتفقت على اقامة شركة لها فى مصر تناهض شركتنا العزيزة وهى ما تزال تحبو ، فلما احس طلعت انهم بداوا تنفيذ مؤامراتهم اوحت اليه خبرته ونفاذ بصيرته بالسفر الى انجلترا ، وبعد دراسة وبحث تم الاتفاق بينه وبين هذه الشركات على قصر عمل الشركة الانجليزية على الطباعة والصبــاغة للغزل والنسيج الرفيع من القطن المصرى ، وعلى ان تقام الى جانبها شركة

مصرية جديدة لغزل ونسج هذا الصنف من الخامات . وفعلا أنشئت شركة صباغى البيضا ، وشركة كفر الدوار ، وبهذا هدأت نفس طلعت حرب

ولما تمت هذه الجولة الكريمة رأى طلعت حرب ان القطن فى البلاد يفيض كثيرا عن حاجة المصانع فأقام شركة لتصدير هذا الفائض

وفى العام نفسه الذى أقام فيه شركة لغزل القطن ونسجه بالمحلة ، أقام شركتين لصناعتى الكتان والحرير ، وبهذا تمت حلقة من الشركات تحقق للبلاد الفائدة المرجوة من محصولاتها الرئيسية وتضمن للشعب كساءه بأسعار غاية فى الاعتدال

ولما أحس طلعت حرب ان سلع شركات القطن والحرير والكتان تواجه حربا خفية فى داخل البلاد ، اذ أحجم الكثير من التجار عن شرائها ، أقام شركة لبيع مصنوعات شركاته ، فتحقق لها النجاح بفضل الله ، وكان أثرها عظيما ابان الحرب الاخيرة

ثم اتجه طلعت حرب الى نواح مختلفة من الاقتصاد القومى ، فأقام شركة لصيد الأسماك وصناعة الأزرار ، وشركة لاستخراج الرخام والجرانيت والبترول والكروم والمنجانيز . كما أقام شركة للطيران كان منها عامل عظيم فى توثيق الرباط بين مصر وفلسطين والشام والعراق ، وكذلك أقام شركة مصر للتأمين ، وقد أصبحت تسد فراغا كبيرا وتقوم بالتامين لصالح شركات البنك والمصريين عامة ، وآخر شركاته شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت

لقد أساء بعض الناس فهم رسالة طلعت حرب ، ورموه بالتعصب لمصريته ، واصراره على احياء الصناعة فى مصر بأيد مصرية ومال مصرى ، كما رموه بأنه يكره الأجانب لذاتهم ولا يرغب فى التعاون معهم . والحقيقة ان طلعت حرب كثيراً ما نادى بأنه يرحب بالتعاون مع الخبراء الأجانب ، وقد استخدمهم فى مختلف النواحى التى لايحسنها المصرى ، لكنه كان تعاونا موقوتا زال حين توافر لديه المصريون فسدوا الفراغ الذى كانوا يشغلونه . وتحقيقا لهذه الغاية أوفد الى الخارج بعثات فى مختلف الصناعات ، وفى مقدمتها الغزل والنسج وادارة وخدمة الفنادق والسينما ، ثم هو علاوة على استعانته بالخبراء الأجانب أشرك الأجانب معه فى كثير من الشركات ، كشركة الطيران ، وشركة التأمين ، وشركة الغزل والنسج الرفيع ، وشركة تصدير الأقطان

عنايته بالمسرح والسينما

كان من يرى طلعت حرب ، وهو رجل العمل والكفاح والجد ، يظنه رجلا عبوسا لاتستهويه الفنون والموسيقى ، ولا يطربه الغناء والصوت الجميل ، لكن تاريخ هذا الرجل على النقيض من النظرة العابرة ، فانه وهو القائم على هذه الأعمال الجبارة ، والمنشىء لهذه المشروعات الضخمة ، لم تفته ناحية الفنون وما لها من اثر فى حياة الشعوب ورقيها ، فقد اعتز بالفنانين وحباهم بعطفه وأمدهم بماله . وحين راى انهيار المسرح المصرى أقام شركة مصر لترقية التمثيل العربى ، ولما طغت السينما بلغاتها الأجنبية على التمثيل انشأ فى سنة ١٩٢٥ شركة مصر للتمثيل والسينما ، وجهزها بأحدث الآلات حتى ضارعت أمهات الشركات فى أوربا وأمريكا

وقد أبت عليه نفسه الا أن تكون الروايات والقصص أداة

طيبة للثقافة والأدب الرفيع . . فأحدثت هذه الشركة فتحا لطبقة الممثلين وغيرهم من الفنانين ، حتى أصبحنا نرى بين المصريين عددا من الممثلين والفنانين يبلغ دخله من الفيلم الواحد آلاف الجنيهات ، بل لقد تجمعت لبعضهم ثروات كبيرة ، وكان من أثر قيام هذه الشركة أن انشئت دور أخرى لصناعة السينما ، وهى وان كانت قد توخت الناحية المالية ، فان هذه الأموال كلها من المصريين واليهم ، وقد حقق وجود هذه الشركة فوائد كثيرة فى نواح عدة

البنك الصناعى

ولطالما نادى طلعت حرب بأن للبشر طاقة ، وأنه وجماعته وانصاره لايستطيعون النهوض باحياء جميع الصناعات على اختلاف انواعها ، وقد أهاب بالحكومة إن تخطو الخطوة الأولى لتنمية الصناعات الأهلية وحمايتها ، وذلك باقامة البنك الصناعى ، ووضع كتابا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ يقع فى ٢٢٥ صحيفة اسهب فيه هو وجماعة بنك مصر فى شرح النظم المعمول بها والمتبعة فى أمهات دول الغرب ، وكشف فيه عما يجب أن تكون عليه علاقة الحكومة بالصناعات ، محددا نصيبها ونصيب الشعب منها ، وانتهى الكتاب الى الضرورة الملحة لانشاء بنك صناعى لتمويل الصناعات التى لم تبعث بعد ، ولتنمية الصناعات القائمة حينذاك ، كما عاهد الحكومة على معاونة بنك مصر للبنك الصناعى الى أن ينهض على قدميه ، فيصبح أخا وفيا لبنك مصر ، ويرتفع مستوى المعيشة ، وترقى حياة الأسرة ، ويحس الأفراد والجماعات بالسعة فى الرزق ويعم الرخاء أرجاء البلاد

طلعت حرب السياسى

وكان طلعت حرب سياسيا من طراز خاص ، فهو وإن

كرس حياته كلها للعمل فى ناحية هى بحق أساس الاستقلال وعماد الكرامة والعزة القومية ، كان ينادى بضرورة اتحاد أمم الشرق وتكتله حتى يسترد مكانته ، وقد بدأ عمله لتحقيق هذه الفكرة بانشاء « بنك مصر سوريا ولبنان » ليكون منه السفير الصالح للرباط الذى يرجوه ، ثم أقام شركة مصر للملاحة البحرية تربط بين مصر والمملكة السعودية ، فضلا عما أنشأته من صلات بين مصر وأوربا . وقام برحلات الى الحجاز جعلت منه أخا محبوبا لدى أهلها ، وبذلك قرب بين البلدين وقضى على ما كان بينهما من جفاء

كذلك قام طلعت حرب بزيارات عدة لكل دول الشرق ، عاملا على التوحيد بينها والألفة بين أبنائها . وهذا النوع من السياسة نوع عملى ناجح أفادت منه البلاد ، وامتد أثره حتى كانت الجامعة العربية .. وكان اتحاد دول الشرق

ولم يقف نشاطه السياسى عند هذا الحد ، بل امتد الى الغرب ، اذ رأى ان بلاده فى حاجة الى الدعاية الدائمة . ولن يكون هذا فى خطاب يلقى أو مقال ينشر ، بل بعمل مادى ملموس وأثر ظاهر محسوس ، فأنشأ فى باريس « بنك مصر فرنسا » فكان منه الدعاية الناطقة بأن مصر غيرها بالأمس ، علاوة على الخدمات الكثيرة التى اداها للمصريين فى الخارج

وكان طلعت حرب الى ذلك كله حريصا على الا يخلط بين السياسة والعمل ، فصرح غير مرة بأنه يجب ان تكون التجارة والصناعة فى هذا البلد فى منأى عن السياسة الحزبية

ولا يفوتنى أن أسجل لطلعت حرب موقفا كريما جديرا

بالتقدير ، قمينا بأن يتخذ مثلا صالحا لمن يعمل فى مقدمة الصفوف منكرا لذاته ، مؤثرا عليها العمل النافع ، فحينما اعترضت البنك تلك الأزمة المعروفة فى سنة ١٩٣٩ عقب قيام الحرب الأخيرة ، ولحقت به مفتريات ما أنزل الله بها من سلطان ، وحينما أساء الى طلعت حرب نفسه بعض الحساد والحاقدين ، بقي هو قوى الايمان بنفسه وبمتانة مركز البنك ، كبير الثقة بأن الحقيقة سيكشف عنها الناس . ذلك انه لم يفكر فى شخصه عند هذه الكارثة ، ومع الالحاح الكبير من مريديه عليه فى أن يتكلم ، أبى الا أن يلزم الصمت وكان يكرر دائما : « ان الفناء مصير كل حى ، وما اريد الا الحياة للبنك وشركاته ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »

وما هى الا فترة قصيرة بعد تنحيته عن البنك حتى ذهب الزبد جفاء ، وأمن البنك والشركات ماحيك لها من دسائس ، فخرج مع شركاته منتصرا ظافرا ، ترد جميعا بحيويتها الكامنة على هذه المفتريات ، وتدل على أن هذه المؤسسات كانت متينة البنيان ، قوية الأساس ، وان المهيمنين عليها كانوا من خيرة الرجال



علی مبارک



علی مبارك

« هو الطفل الفلاح الذى كافح فى طريق من الأشواك حتى عرف آخر الأمر أنه خلق ليكون معلمـــا لأبناء وطنه ؛ فاتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل اخلاصه الى التعليم »

المعلم المصرى الأول

بقلم الأستاذ محمد فريد ابو حديد

كان العصر لايعرف الاستقرار، وكانت أسرة الطفل «على» لا تعرف الاستقرار كذلك . كان أبوه الشيخ مبارك من أسرة متواضعة تعرف باسم « المشايخ » فى قرية برنبال بمديرية الدقهلية . واضطر الاب أن يهاجر من قريته عندما ضاقت به الحال فيها ونزل فى قرية أخرى بمديرية الشرقية وكان ولده على طفلا فى السادسة من عمره . ولكن قرية الحماديين التى حل بها لم تكن أوسع رزقا من قريته الاولى فحمل أهله مرة أخرى وارتحل فى الارض حتى نزل فى نجع من نجوع قبيلة (السماعنة) واتخذ لنفسه ولأسرته خيمة يعيشون فيها كما يفعل أهل القبيلة . ومن حسن حظه أن (السماعنة) كانوا فى حاجة الى فقيه يعلمهم الدين فوجد الشيخ الطيب لأول مرة فى حياته مكانا يستقر فيه ، واصبح بعد قليل موضع حب القبيلة واكرامها

وكان الطفل على يمرح فى الحقول مع أطفال النجع ولايحب الذهاب الى المكتب بالرغم من نصائح والده وبكاء أمه لأنه كان لايجد فى المكتب الا العصا والجمود الممل والحرمان من الضوء وخضرة المروج . واجتمع حوله ذات ليلة أبواه واخواته البنات السبع واخذوا ينصحونه ويبينون له فائدة التعليم وهو يصر على الاباء ولا يبالى بالتهديد ولا بالدموع . وساله أبوه آخر الأمر عما يريد أن يصنع بنفسه فاجاب فى

بساطة : « لا احب أن أكون فقيها ، واذا كان ولا بد من التعلم فانى أريد أن أكون كاتبا نظيفا »

ونزل ابوه على ارادته فأرسله الى كاتب فى القرية المجاورة ليعده للمستقبل الذى يريده . وأقام الطفل فى بيت ذلك الكاتب بين عياله الكثيرين من زوجاته الثلاث ، فكانت حياته الجديدة أقسى عليه من الذهاب الى المكتب . كان يبيت فى كثير من الاحيان يتضور جوعا ثم يخرج فى الصباح الباكر مع الكاتب ليتمرن على اعماله فيقضى كل وقته فى خدمة الرجل ولا ينال منه شيئا من التعليم

وحدث يوما أن سأله الكاتب امام ناظر القسم عن حاصل ضرب الواحد فى الواحد فأجابه انه : « اثنان » ، فما كان من الرجل الا أن قذفه بقلاة بن كانت أمامه فشج راسه وسالت دماؤه . فانتهز على المسكين فرصة خروج الناس الى مولد السيد البدوى ، واندس بينهم خارجا من القرية وسار فى الطريق يسأل الناس عن قرية المطرية التى تقيم فيها خالته . ولم يقو جسم الطفل الصغير على تحمل مشقة السير وقضاء الليالى فى العراء ، فمرض فى الطريق مرضا شديدا فى قرية (صا الحجر) وأشفق عليه رجل من أهل القرية فآواه عنده حتى شفى بعد أربعين يوما . ثم بلغه ان والده جاء الى القرية ليبحث عنه فتحامل على نفسه وهرب ذاهبا الى الطريق مرة أخرى حتى عاد الى قريته الاولى (برنبال) حيث كان يقيم أخ له من أبيه

وعرف أهله بمكانه بعد حين فذهبوا اليه والتفوا حوله مرة أخرى ليتشاوروا فيما يعملون من أجله واستقر رأيهم على أن يدخلوه فى خدمة كاتب المساحة ليتعلم منه صناعته

وارتاح علي فى أول الأمر مع ذلك الكاتب ، وكان يفرح بالنقود القليلة التى كان الرجل يهبها له من الرشاوى التى يجمعها من الناس . ولكنه كان طفلا صغيرا لايعرف ان

المرتشى لايحب أن يتحدث الناس عن اسراره ، فكان يثرثر مسرورا عن النقود التى تصل الى جيبه مما يجمعه الكاتب من أهل القرى . فما كاد الرجل يسمع بما يقوله الطفل حتى طرده من خدمته . فعاد على الى قريته حائرا لايعرف لنفسه وجهة حتى سعى له ابوه مرة أخرى فألحقه بخدمة كاتب آخر فى مامورية (ابى كبير)

□

وكان فى هذه الفترة قد أتقن الكتابة ، فعينه الكاتب مساعدا ليبيض له دفاتره بمرتب خمسين قرشا فى الشهر ، وجعله يقيم معه فى بيته . ولكن مضت أشهر ثلاثة ولم يعطه الكاتب مرتبه محتجا بانه يطعمه فى بيته . فغضب على وعزم على أن يأخذ حقه بيــــده وأخذ من الأموال التى حصلها الكاتب أجر الشهور الثلاثة ، وكتب بها ايصالا جعله فى كيس التحصيل وبعث بذلك الى الرجل . فما كان من الكاتب الا أن دبر له مكيدة لينتقم منه ، فسعى عند حاكم المدينة لادخاله فى الجندية . وفى اليوم التالى قبض الحاكم عليه والقى به فى السجن وتركه هناك مدة عشرين يوما ذاق فيها مرارة الظلم الرخيص والجوع والأذى ، ولم يجد من أحد رحمة الا من السجان الذى رق له لصغر سنه فسعى فى الافراج عنه وساعده على الاتصال بخادم مامور زراعة القطن فى (أبى كبير) وفى نظير قطعة من الذهب قيمتها عشرون قرشا سعى ذلك الخادم حتى أوصله الى مامور الزراعة

وكان مامور الزراعة رجلا حبشى الأصــل اسمه عنبر افندى يمتاز بالوداعة وطيبة القلب ، فرتب للصبى خمسة وسبعين قرشا فى الشهر كما رتب له جراية من الطعام كل يوم وأدخله فى خدمته . ولأول مرة فى حياته وجد على

شيئا من الاطمئنان والراحه وبعض النقود فى جيبه

ولكن المخاوف والآلام التى قاساها فى السجن كانت تجعله دائم الخوف من غضب سيده اذا بدا له أن يغضب عليه فى يوم من الايام . وسمع يوما وهو فى مجلس عنبر افندى أن هناك مدرسة فتحها الوالى اسمها مدرسة «قصر العينى» لتعليم الاولاد الخط والحساب واللغة التركية لكى يصيروا موظفين فى الحكومة بعد تخرجهم . فسأل فى سذاجة : « أهذه المدرسة تقبل أبناء الفلاحين ؟ »

ولما عرف ان ذلك ممكن لمن يساعده الحظ خفق قلبه املا وأخذ يجمع كل مايستطيع جمعه من اخبار تلك المدرسة ويسأل عن طريق الوصول اليها والمسافة التى يجب عليه أن يقطعها حتى يصل اليها واسماء البلاد التى فى الطريق ، حتى اطمأن الى انه عرف مايكفي

وفى ذات يوم استأذن عنبر أفندى فى زيارة أهله عازما على أن يبدأ فى تحقيق أمنيته

ولكن أهله لم يوافقوه وأخذت امه تبكى وتستعطفه حتى لايفارقها ، واضطر الى البقاء فى النجع يرعى قطيعا من الغنم

وبقيت صورة المدرسة تعاوده فى ساعات ليله ونهاره حتى انتهز فرصة نوم النجع فى ليلة من الليالى وخرج من بين الخيام متسللا وهو خائف يترقب ، وكان هذا آخر عهده بالاقامة مع ابويه

وانتهى به السير فى الطريق الى قرية (منية العز) وكان فيها مكتب يعد الأولاد للدخول فى مدرسة القصر العينى فسارع اليها وما زال حتى التحق بها ، واقبل على الدراسة بحماسة المجاهد فى سبيل تحقيق غاية كبرى

ولقى فى مدة الدراسة بهذه المدرسة عقبات أخرى كان يواجهها واحدة بعد واحدة ويتخطاها منتصرا ، وكانت

العقبة الاخيرة منها يوم جاء مفتش التعليم ليختار التلاميذ اللائقين للالتحاق بمدرسة قصر العينى ، وواتاه حسن الحظ ففاز آخر الأمر بأمنيته واصبح تلميذا فى المدرســة التى تعلق قلبه بها . وكانت سنه عند ذلك لا تزيد على اثنى عشر عاما .

ولكن مفاجأة قاسية كانت تنتظره بمدرسة قصر العينى . ما كاد يدخل هذه المدرسة المأمولة حتى دبت الخيبة الى قلبه وكادت تحطم أمله . كانت لا تزيد على معسكر يتعلم فيه الأولاد السيرالعسكرى ، وكان المعلمون يضربون التلاميذ ويوجهون اليهم أنواع الاهانة والسب بغير حساب . وكان الفراش الذى ينامون عليه من حصيرالحلفاء ، والطعام الذى يقدم لهم تافها كريه الطعم ، ولم يجد الصبى مع هذا كله شيئا مما كان يطمح اليه من التعليم . فلم يلبث ان مرض مرضا شديدا كاد يودى بحيــاته ، واجتمع عليه ضعف المرض وخيبة الامل والم الندم على ترك أهله بغير فائدة . ففكر فى الهرب مرة أخرى ولكن الى أين ؟ وماذا تكون نتيجة هربه من المدرسة ؟ كانت عقوبة الذين يحاولون الهرب كافية لجعله يرجع عن أية محاولة من هذا النوع لأن أهل التلميذ الهارب كانوا يساقون الى السجون ويتعرضون لألوان شتى من الاهانة والعذاب

وقد جاء أبوه ذات يوم لزيارته وعرض عليه ان يساعده على النجاة من تلك المدرسة ، وكاد يمهد له سبيل الهرب بالاتفاق مع بعض خدم المدرسة . ولكن على ابى أن يطيعه خوفا عليه من عواقب هذه المحاولة . ثم جاءت اللحظة الحاسمة فى حياة على مبارك عندما نقلت المدرسة من قصر العينى لتجعل فى مكانها مدرسة الطب الجديدة التى ماتزال الى اليوم هناك . واختير للمدرسة الاولى مكان آخر فى (ابى زعبل) بعيدا عن القاهرة فخيل الى الصبى ان كل

شيء قد انتهى الى الخيبة الكاملة . ولكن المقادير ساقت له هنا رجلا كان له الفضل فى توجيه حيـــاته وجهة أخرى وحددت له طريقه فى الحياة تجديدا شاملا . كان الناظر الجديد الذى اختير لمدرسة (أبى زعبل) رجلا له ضمير انسان وقلب مؤمن بالوطن وهو ابراهيم بك رافت. ولاشك ان اعجاب الصبى بناظره الجديد ترك فى نفسه أثرا عميقا جعله يتجه بكل قلبه الى تقديس وظيفة المعلم المخلص

□

كان ابراهيم رافت يجمع المتأخرين من التلاميذ ويتطوع بالتدريس لهم فى فرقة خاصة ، وكان من بينهم على مبارك. ومن الدرس الاول بدأ الصبى يتغير وينظر الى مدرســته نظرة اخرى كلها أمل وكلها حماسة . وبعد قليل تحول على مبارك من تلميذ متخلف بائس الى تلميذ آخر نشيط مبتهج ولم ينس فيما بعد انه مدين لعطف ذلك الاستاذ الجليل واخلاصه فى أداء واجبه فكان يبذل جهده عندما صار معلما أن يهب كل عطفه وكل نشاطه لتلاميذه

وبعد اربع سنوات تخرج على مبارك فى مدرسته ودخل فى مدرسة (المهندسخانة) ببولاق مخلفــا وراءه الطريق المملوء بالاشواك . وفى خمس سنوات أخرى أتم دراســته العليا ، وكان فى طليعة المبرزين من نجباء خريجى مدرسة الهندسة ، فأوفد فى بعثة علمية الى فرنسا

ولكن الشاب ابن العشرين كان أكثر من شــاب طموح يشق طريقه فى الصخر والشوك ، لأنه لم ينس عند سفره الى فرنسا أن يوصى بقسمة مرتبه الى نصــفين أحدهما لوالده الشيخ والثانى لنفقته الخاصة فى بلاد فرنسا ، وكان كل مرتبه مائتين وخمسين قرشا كل شهر

وامتدت دراسة الشاب الى ست سنوات فى فرنسا ، وكانت سنوات عريضة غزيرة ، مليئة بالدرس والملاحظة والنمو . ولما عاد الى وطنه بعد ذلك عين مدرسا فى مدرسة (طرة) وذلك فى أيام الخديو عباس الاول

وكان الخديو عباس الاول غريب الأطوار يجمع بين ضيق الافق والغطرسة ، وكان من أول ما بدا له ان يغلق معاهد التعليم التى أنشأها جده محمد على . فأمر بأن (يفرز) تلاميذ المدارس جميعا ليختار منهم عددا محددا يجمعهم فى مدرسة واحدة ويغلق ابواب المدارس الاخرى

واختار هذه المدرسة الوحيدة فى (ابى زعبل) وسماها المدرسة (المفروزة) . وكان حزن على مبارك عظيما عندما راى تلاميذه يفرزون وترسل منهم مجموعة الى (المفروزة) ولم يبق له (فى مدرسة طرة) الا عدد قليل من كبار السن المتخلفين (تحت التصفية) . فكادت عزيمته تنهار من هذه الصدمة لولا انه وطد العزم على ان يبذل كل ما يملك من قوة وارادة فى تعليم أبناء وطنه أيا كانوا

وهزه عند ذلك الحنين الى وطنه ، ولم يكن راى امه منذ فارقها من سنين طويلة فعزم على الذهاب الى قريته ليلم بأهله حينا . وكانت زيارته تشبه المواقف الخيالية فى الاساطير القديمة ، فقد طرق الباب وسمع صوت امه تنادى من وراء الباب : « من أنت ؟ » ، فأجابها : « أنا على ! » وفتح الباب الضخم ووقفت الأم امامه تنظر اليه ولا تصدق عينيها . كان الشاب فى لباسه الأنيق والسيف مدلى الى جانبه وقد اصبح طويلا ممشوق القوام يلمع وجهه بالقوة والابتهاج . ففتحت له الأم ذراعيها وعانقته عناقا حارا وهى تبكى ثم وقعت مغشيا عليها

ولما افاقت جعلت تبكى حينا وتضحك حينا ثم اخذت تزغرد وتتكلم وهى تحسب انها فى حلم سعيد . وأقبل

اهل البيت على صوتها واجتمع الجيران من كل جانب حتى امتلأ بهم البيت ولم ينصرفوا حتى طلع عليهم الصباح . كانت تلك أول مرة ترى فيها القرية ولدا من أبنائها يعود اليها وهو يلبس لباس السادة الحكام !

وارادت الأم أن تطيع سعادتها وتولم وليمة عظيمة لجيرانها احتفالا بعودة وحيدها على هذه العودة التى لم يحلم احد من أهل القرية بمثلها . ولكنها لم تجد معها شيئا تعد به الوليمة وظهرت الحيرة فى وجهها وفى حركتها المضطربة ، ولاحظ الشاب حيرة أمه فأخرج لها عشر قطع من جنيهات الذهب لتحقق بها رغبتها

▭

وعاد على مبارك الى ميدان العمل فأسندت اليه وظيفة بعد أخرى ، ولكنه كان لايرتاح الا الى عمل واحد وهو التدريس . وكان سروره عظيما عندما أسندت اليه نظارة المدرسة (المفروزة) وهو يقول فى ذلك :

« وفى مدة نظارتى للمدرسة كنت أباشر تاليف كتب المدارس بنفسى مع بعض المعلمين ، وجعلت بها مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها نحو ستين الف نسخة من كتب منوعة » .. وقال أيضا : « ولكن ذلك لم يشغلنى عن التفاتى للتلاميذ فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك ، وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب ، والاحظ المعلم كيف يلقى الدروس وكيف يؤدب التلاميذ ولا يمضى يوم الا وادخل عند كل فرقة واتفقد أحوالها .. »

ولكن جزاء الشاب على هذا الاخلاص فى اداء عمله كان تجربة مرة قذفت به بعيدا عن ميدان التعليم وذلك ان

الخديوغضبعليه فجأة على اثر وشاية دنيئة ، فأمر بارساله مع الجيوش المحاربة الى الدولة العثمانية للاشتراك فى حربها مع روسيا . وكان عند ذلك لم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره . وكان فى وداع تلاميذه له عند مفارقته لهم عزاء كاف له . وقفوا جميعا على شاطىء النهر ليشيعوه الى السفينة التى ستنقله الى الاسكندرية . ولم يملك التلاميذ أعينهم من البكاء ولم يستطع على مبارك أن يقاوم شعوره فانحدرت الدموع على وجهه كذلك . وسافر فى رحلته الطويلة بنفس ثابتة راضية لأنه سيرى بلادا لم يرها من قبل وسيقف فى مواقف جديدة لم يقفها من قبل وسيجرب تجارب أخرى تزيده معرفة وخبرة.

وانتهز فرصة وجوده باستانبول مدة أربعة اشهر فتعلم اللغة التركية ، واقام فى بلاد (القرم) مع الجيوش المحاربة عشرة أشهر انتقل بعدها الى بلاد الاناضول فأقام فى اقليم وعر جبلى شديد البرد وكان ذلك فى فصل الشتاء . فكثرت أصابات المجندين بالامراض الناشئة عن البرد الشديد ، واخذ على مبارك على نفسه أن يتعهد أمور المرضى بنفسه لأنه لم يجد هناك أحدا آخر يتعهدهم . فأخذ يجمع الاموال تبرعا من الناس ، ولما لم يجد أحدا من الاطباء يساعده فى عمله الانسانى أختار رجلا ممن لهم خبرة بالعلاج على طريقة اهل الاقليم وشاركه بنفسه فى خدمة المرضى . وكانت عنايته واخلاصه فى هذه الخدمة كافية للتعويض عن جهله وجهل شريكه بفنون العلاج . فأثمر المستشفى ثمرة طيبة جعلت أهل الاقليم يكتبون له وثيقة يسجلون فيها اعترافهم بحسن صنيعه . ولكنه عاد الى مصر بعد هذا الجهاد الطويل ليستقبله مازق شديد كان له اثر عميق فى نفسه الحساسة . ولكى نعرف سر ذلك المازق لا نجد مفرا من التحدث قليلا عن حياته الخاصة

كان على مبارك قد تزوج عقب عودته من بعثته فى أوربا بابنة أحد مدرسيه فى المدرسة الثانوية ، عندما توفى عنها أبوها ولم يكن لها فى الحياة من يعولها . وكانت زوجة طيبة وفية بذلت له جزاءه من السعادة فى حياتهما المشتركة ، ولسوء الحظ ما لبثت حتى عاجلها الاجل بعد قليل . وحزن عليها حزنا شديدا جعله يعزف عن الزواج حينا طويلا ، ولكنه تزوج مرة ثانية من احدى بنات الاعيان وكانت وارثة تملك ثروة كبيرة ، فوق ما كانت عليه من الجمال . وحاول الشاب جهده أن يكون زوجا شهما فأحسن معاشرتها وتعفف عن اموالها ولكنها كانت تعامله مثل طفلة مدللة . وكان أهل الزوجة لاينسون انه من أسرة قروية وانه فلاح وابن فلاح برغم ما كان عليه من النبوغ فى العلم وما امتاز به من كريم الخصال . وبدأت الاحاديث السامة تفسد العلاقة بين الزوجة الصغيرة الغريرة وزوجها الشاعر بكرامته وخلا الجو لأهلها فى مدة غيابه فى بلاد تركيا فأوغروا صدر المرأة على زوجها ، حتى اذا ما عاد من سفره الطويل وجد نفسه هدفا لمكيدة دنيئة واسعة النطاق لم تلبث أن انتهت بالفراق . ولم يقنع أصحاب المكيدة بذلك بل سعوا عند الخديو لفصله من خدمة الحكومة وتم لهم ما ارادوا . ويقول على مبارك عن نفسه فى هذا الموقف : « كانت حالتى بعد سبع سنين من عودتى من اوربا مثل حالتى عند أول عودتى منها وذهب كل ما كسبت من الاموال وضاع كل ما شغلت من المناصب ولم يبق بالخاطر الا ما فعل الناس معى من خير وشر وما أكسبنى الزمان من صدماته وغرائب تقلباته»

وعزم على الذهاب الى الريف ليحيا هناك بين أهله ويرتزق من كده وعمله كما يرتزقون . ولكنه لم يلبث أن طلب لخدمة الحكومة مرة اخرى فتقلب فى وظائف مختلفة لم يشعر فى واحدة منها بالاطمئنان أو الرضى . ثم هيأت له

الظروف أن يعود الى الوظيفة التى يحبها من أعماق قلبه وذلك عندماكان مسافرا مع الخديو سعيد فى مريوط ، واخذ الخديو يتحدث الى من حوله عن تعليم الضباط وصف الضباط ، واخذ يسألهم عمن يريد منهم أن يتطوع لتعليمهم . وكانت دهشة الجميع عظيمة عندما تقدم على مبارك متطوعا ليكون هو معلمهم . وهو يقول فى هذا عن نفسه : « كيف لا أرغب فى انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم فيهم ؟ » واتخذ مدرسة فى خيام متنقلة مستخدما كل ما يتهيأ له من الوسائل للنجاح فى تعليمه . ولم يقتصر فى مدرسته المتنقلة على تعليم القراءة والكتابة والحساب بل علم تلاميذه الهندسة والفنون العسكرية والاستحكامات وسوق الجيوش وطرق الحرب

ولكن عصر سعيد المضطرب قذف به بعد قليل الى الخارج فوجد نفسه عاطلا من الوظيفة واضطر الى ان يرتزق بالاشتغال بالتجارة . ونجح فى هذه المرة نجاحا عظيما حتى انه فكر فى انشاء شركة تجارية لانشاء المنازل وبيعها

ثم تولى الخديو اسماعيل بعد موت سعيد ، وكان من أول أعماله اعادة على مبارك الى خدمة الحكومة وعهد اليه بنظارة القناطر الخيرية ، وكان يكل اليه من الاعمال ما يحتاج الى البراعة فى فنون الهندسة . وبعد ست سنوات من أعمال هندسية مختلفة أضاف اليه اسماعيل ادارة ديوان المدارس وكانت سنه عند ذلك ستة وأربعين عاما . فوثب الرجل الى فرصته بحماسة تدعو الى العجب والاعجاب معا . كانت وثبته تلك هى نقطة التحول فى حركة التعليم بمصر ومن تلك اللحظة وضع الاساس الاول للتعليم الذى نعرفه اليوم . وهو يحكى عن نفسه قائلا : « كانت كثرة أشغالى لاتشغلنى عن الالتفات الى ما يتعلق بأحوال التلاميذ والمعلمين فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت

ورواحى اليه واعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية »

ثم قال ايضا : « وقد تأسس هذا المشروع وثبت وسرت فيه الى ان انفصلت عن المدارس وحصلت منه على نتائج حسنة »

وانشأ مطبعتين لطبع الكتب المدرسية كما انشأ دارالكتب المصرية الاولى ليرجع اليها المعلمون ، وجمع فيها الكتب القديمة الثمينة المتفرقة فى المساجد وغيرها . ومما يسترعى النظر انه انشأ لأول مرة فى مصر معملا للعلوم جمع فيه آلات العلوم الطبيعية والرياضية ليكون عونا للمعلمين على جعل الدراسة عملية قائمة على التجربة

وقد اهتم ببناء المدارس واصلاح ما يحتاج منها الى الاصلاح ، وكان بذلك رائدا للعصرالحديث فى التعليم ، ولعل اكبر مآثره فى التعليم انشاؤه لدار العلوم حتى يعد للمدارس من تحتاج اليهم من المعلمين الصالحين تمهيدا للجهاد فى نشر المدارس فى ربوع البلاد لأنه كان معلما أصيلا يعرف ان كل محاولة فى نشر التعليم بغير اعداد المعلم الصالح لا تجدى البلاد شيئا

وقد شجع الشبان من خريجى المدارس العالية على الاشتراك فى التعليم، فكان يختارخريجىمدارسالمهندسخانة والمحاسبة والادارة ليكونوا مساعدين للمدرسين حتى يستطيعوا ان يشتغلوا بالتدريس بعد ان يكتسبوا المران الكافى . وكان فى الوقت الذى يجاهد فيه هذا الجهاد لنشر التعليم وارساء أساسه يبذل جهدا آخر كبيرا فى الاعمال الهندسية ، فله الفضل فىتجميلالقاهرة وميادينها. وكانهو الذى يقوم بالاتفاق مع الشركات الاجنبية التى ادخلت النور والماء لأول مرة الى بيوت المدينة

فى هذه الاثناء كان الشاب على مبارك قد صار كهلا تجاوزت سنه الرابعة والخمسين ، وبدأ يحس عبء السنين وأثر الجهاد المضني وتجمعت عند الافق فى الوقت نفسه سحائب سود فيها برق ورعد تنذر بهبوب عاصفة هوجاء .
وذلك ان الازمة المالية المشئومة كانت قد بدأت تهز قواعد حكم اسماعيل ولم تلبث أن عصفت به بعد قليل . ومع انه أصبح ناظرا لديوان المعارف فى الوزارة التى انشأها اسماعيل عندما اشتدت الازمة فانه كان يحس ان جهاده الحقيقى قد انتهى . حقا انه أنشأ فى مدة وزارته بعض مدارس ممتازة لتكون نماذج للمدارس الجديدة مثل مدرستى طنطا والمنصورة ، وحقا انه بذل جهده فى نشر التعليم الحديث فى المدن والقرى ، ولكن اضطراب أمور الحكم كان يفرض عليه قيودا لا طاقة له بها . وأخيرا قامت الثورة العرابية ثم أعقبها الاحتلال البريطاني فوقفت حركة اصلاح التعليم ثم بدأ الاحتلال الانجليزى يفرض سياسة أخرى غير السياسة التى وضع أساسها على مبارك ، وكانت تختلف كل الاختلاف عما كان يقصده معلم مصر الحديثة الاول

وقد أراد الشيخ وهو فى سن السادسة والستين أن يعتزل الوظائف ويعود الى قريته ليقضى ما بقى من عمره بين حقول الريف الخضراء التى أحبها منذ كان طفلا وتحت أشعة الشمس اللامعة التى كان فى صباه يمرح فى فيضها مع لداته من أبناء الفلاحين الذين لم ينس يوما انه واحد منهم وان أعظم واجب عليه هو أن يعلمهم ويسمو بهم الى مرتبة البشرية العليا . ولكنه لم يتمكن من هذه الراحة التى يستحقها ، فقد دعاه توفيق ليكون ناظرا لديوان المعارف فى عهد الاحتلال ، وما كان أمر عودته الى ذلك الديوان فى ظلال الاحتلال . ولم يستطع أن يتخلف عن الدعوة ولكن كلماته التى سجلها بقلمه تنم عما كان فى نفسه من الحسرة

والألم والخيبة . فقد قال : « تركت القرية عندما طلبت لهذه الخدمة واخذت فى تأدية ما فرض على قيـــاما بحق وطنى .. وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب الطاقة بقدر الامكان والله المستعان ! »

فكان مثاله كالجندى الذى لايدع العلم يهوى من يده حتى يخر وهو لايزال فى يده .. وادركه الأجل بعد اربع سنوات مخلفا وراءه أسما خالدا كأول معلم مصرى خالص جاهد من اجل رفعة مصر عن الطريق الطبيعى لرفعتها ـ التعليم . ولكنه خلف وراءه كذلك معنى خالدا آخر لأنه هو الطفل الفلاح الذى كافح فى طريق من الاشواك حتى عرف آخر الأمر انه خلق ليكون معلما لأبناء وطنه . ومنذ تلك اللحظة التى عرف فيها رسالته اتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل اخلاصه الى التعليم حتى مات وقلبه خافق من أجل تعليم ابناء وطنه



جرجي زيدان



جرجى زيدان

هذا هو العصامى جرجى زيدان نشأ فقيرا ، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد دون ما يريد ، ووثب من بيروتى صغير الى عالم نابغة كبير

العصامى الموهوب

بقلم الأستاذ طاهر الطناحى

اذا ذكر العصاميون الذين بنوا أنفسهم ، وشادوا للانسانية صروحا عالية فى مختلف الميادين بأعمالهم المجيدة ، وجهودهم الممتازة ، فان جرجى زيدان فى المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ ، فقد بلغ بالعصامية أرفع مكان فى ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة . وكانت حياته أبلغ درس للشباب المكافح ، وأعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطىء ، لاتحركهم همة ، ولا تبعثهم ارادة على اجتياز الامواج ليصلوا الى ما يريدون من رقى ونجاح

لم يقف جرجى زيدان على شاطىء الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائسا من النور ، لان والده أمى لايعرف فضل العلم ، أو لانه فقير لايملك نفقات التعليم ، أو لان ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب ، بل نظر بعقل الصبى النابغ ، فوجد ان الرغبة الصادقة تحطم اقوى العقبات ، وان الارادة النافذة تحقق المستحيلات ، وانه كما قال ابن الوردى :

لا تقل أصلى وفصلى أبدا
انما اصل الفتى ما قد حصل

نعم ، لم يقل جرجى زيدان أصلى وفصلى حتى تثبط همته وييأس من النجاح ، بل اندفع الى تحصيل العلوم والآداب ،

وشق طريقه بنفسه الى المجد والرفعة ، واتخذ من فضل العلم خير أصل ، ومن جمال الأدب أحسن نسب !

حادث اليم

نشأ جرجي زيدان في عائلة متوسطة الحال ، ولكن الايام تنكرت لها ، فذاقت متاعب الفقر ، فقد كان جده زيدان مطر وكيلا على أملاك السيدة حبوس والدة الامير مصطفى ارسلان ، وكان وقتئذ في سعة من العيش ، اذ كانت هذه السيدة تحكم « عين عنوب » وما يليها في لبنان في أوائل القرن الماضي . فلما حمل ابراهيم باشا على سورية وفتح عكا واراد الاستيلاء على لبنان خافت السيدة حبوس بطشه وسطوته ، فعزمت على الفرار من وجهه ، وطلبت من زيدان مطر أن يرافقها ، فاعتذر بمن عنده من أولاد وأهل ، فتركته وقد حقدت عليه . فلما ضعف شأن ابراهيم باشا عادت الى « عين عنوب » وصادرت أملاك زيدان وأمواله ، وتعمدت الحط من شأنه ، فشق ذلك عليه ، وأثر في صحته ، ومات قبل أوانه ، وقد خلف وراءه زوجة وابنين وابنتين اكبرهم حبيب والد جرجي زيدان

ولما كانت هذه الزوجة الارمل لا تستطيع البقاء بأولادها في هذه الحال بعين عنوب ، فقد نزحت بهم الى بيروت — وهي يومئذ مدينة صغيرة لا مرتزق فيها غير الاتجار وصنع ضروريات الحياة كالاطعمة والملابس ونحوها ، أو خدمة الحكومة في الكتابة والجندية

اسرة كادحة

وكان حبيب في العاشرة حين نزل مع أسرته الى بيروت ، فلم يتسع له الوقت للتعليم ، فعاش أميا ، وانصرف لتحصيل الرزق واعانة أسرته ، ولم يزد عمله على مطعم صغير في سوق ساحة البرج ببيروت . وكان هو وزوجته

ــ على الرغم من ضيق الرزق ــ مثال النشاط والجد فى العمل ، حتى قال عنهما جرجى زيدان فى مذكراته الخاصة :

« نشأت فى صباى وأنا أرى والدى يخرج الى دكانه فى الفجر ، ولا يعود الا فى نحو منتصف الليل أو قبيله ، وأرى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح الى المساء . لا تعرف الزيارات ، ولا تغشى الاحتفــالات ولا المجتمعات حتى الدينية ، فانها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة الا نادرا ، وانما همها تدبير بيتها ، وتربية أولادها .. وقد شببت على ذلك وألفته ، فغرس فى ذهنى : ان الانســان خلق ليشتغل وان الجلوس بلا عمل عيب كبير .. بخلاف الابناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم ايامهم فى اللهو وشــم الهواء . ولا يهمهم الا ماذا يأكلون ، وماذا يشربون . واذا فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق أو غيره . ولا يقدمون على العمل الا مكرهين . يحسبون العمل عيبا أو تعبا . ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف

« فالأبناء الذين يربون بين أولئك الآباء ينشأون كسالى ، ويميلون الى الملاهى والرذائل ... »

فى هذه البيئة النشيطة ــ بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية ــ نشأ جرجى زيدان .. ولقد كان والده كما قلنا أميا ، ولكنه شعر بالحاجة الى الكتابة والقراءة ليدون حساب مطعمه ، فاستخدم كاتبا لذلك . ودعته هــذه الحاجة الى أن يرسل ابنه جرجى وهو فى الخامسة من عمره الى مدرسة حرة يديرها قسيس يدعى المعلم الياس شفيق . وكانت فى قبو وضيع ، يجلس التلاميذ فيه على حصير مبسوط على الارض . وقد أمضى فى هذه المدرسة سنتين لم يتعلم فيهما شــيئا غير فك الخط ، ثم نقله والده الى مدرسة تدعى مدرسة الشوام ، فتلقى فيها مبادىء الحساب

والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية ، وبقى فيها نحو عامين ، ثم اغلقت. فانتقل الى مدرسة المعلم طاهر خير الله ، فمكث بها عامين آخرين

فى مطعم ابيه

أصبح فى الحادية عشرة ، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالامل الى المستقبل ، غير أن والده ما لبث أن دعاه الى مساعدته بالمطعم ليقيد أسماء الزبائن وحساباتهم ويلاحظ الحال ريثما يجد مساعداً غير المساعد الذى تركه وقد قال له :

« تعال يا جرجي لمساعدتي سبعة أيام أو ثمانية ريثما أجد من يقوم مقامك .. » فأطاع والده وهو يعلل النفس بالرجوع الى المدرسة ، ولكن هذه الايام السبعة امتدت الى سبعة اعوام حتى خشيت والدته على مستقبله ... وقد قال فى مذكراته :

« ولما مضى على اشتغالي فى ذلك المطعم عام وبعض العام ، خافت والدتى ان يطول مقامى ويضيع مستقبلى . وكانت تكره المطاعم ، وكانت منذ طلبنى والدى لمساعدته تلح عليه الا يطول مقامى ، وهو يعدها .. فلما مضت السنة الاولى الحت عليه أن يخرجنى ، ويعيدنى الى المدرسة ، فقال لها : « انه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، الا اذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبا أو معلما . فضلا عن ان كثرة التعليم تجعله متفرنجا متأنقا لا يأكل الا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الافرنجي — وكان هذا اللباس قليلا ، وكان الاكل بالشوكة والسكين لايزال معدودا من عادات المتفرنجين

« ولم يقل والدى ذلك فى نفور من المدنية ، ولكنه كان محبا للمحافظة على العادات الشرقية . وكان يكره التصنع

والتظاهر بمظاهر الافرنج ، فاقتنعت والدتى بهذا الجواب ، ولكنها ما زالت تكره أن أبقى فى تلك الصناعة ، وقالت لأبى : أدخله فى صناعة أخرى ، فانى أكره هذه الصناعة ورائحة الزفر والانحباس فى الدكان ليل نهار ـ لا عيد . . ولا أحد ـ فاذعن لاعتراضها . . وبعد النظر قر رأيهما على ان أتعلم صناعة الاحذية الافرنجية »

وقدكانت صناعة الاحذية الافرنجية وقتئذ حديثة العهد فى بيروت ، وحجتهم فى اختيارها له وهو فى الثانية عشرة من عمره ان بعض البيروتيين مارسوها فأثروا منها وصار لهم أموال وأملاك ، وقد مكث فى هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما أكثرها . ولكنه ما لبث بعد ذلك أن تركها لانها لم توافق صحته وأصابه ضعف فى معدته من الجلوس الطويل على الكرسي للعمل ، وخاف والداه عليه ، فقررا اعادته الى المطعم مؤقتا ريثما يفكران فى صناعة أخرى لمستقبله !

صبر جميل

تذرع الصبى جرجى زيدان بالصبر ، فلم يكن أمامه فى ظلام الحياة ، ومحاربة الايام غير الصبر والأمل . . ولكن اين الأمل ؟ . . فليس حوله الا السدود والعقبات ، والا ما يبعث على اليأس ، ولكن نفسه الكبيرة لم تعرف اليأس . . لذلك تذرع بالصبر وحده . والصبر محمود ، ولا سيما فى هذه الحال التى لاحيلة فيها غيرالصبر ، كما قال ابن الرومى :

أرى الصبر محمودا وفيه مذاهب
فكيف اذا ما لم يكن عنه مذهب
هو المهرب المنجى لمن احدقت به
مكاره دهر ليس عنهن مهرب

صبر جرجى زيدان ، وعاد الى مطعم أبيه ـ لا عودة الجبان المستسلم لقسوة الايام ، ولا الضعيف اليائس الذى

سدت فى وجهه الآمال ، وانهزم فى معركة الحياة ، فسئم جهاده ، وقعد كئيبا يندب حظه ، ويأسى على نفسه ، أو يتعزى بغيره ممن هزمهم الدهر ، فاستسلموا الهزيمة ، وأضاعوا أعمارهم سدى دون أن يكون لهم فى الحياة العليا سهم أو نصيب .. كلا ، بل عاد الى مطعم أبيه كما يعود القائد الشجاع من الميدان ليتزود بالتفكير وانتهاز الفرص ، ويضع الخطط الجديدة ليواصل جهاده ، ويفوز بما قدر لهذا الجهاد الصادق من نصر فائق ومستقبل عظيم

بارقة أمل

وكانت بيروت وقتئذ حافلة بأهل اللهو والبطالة ، وكان منهم من يترددون على هذا المطعم ، وكان الصبى جرجى يرى فى هذا الظلام ضياء الله ، ويلمح بالسريرة ما هيىء له فى المستقبل من مجد علمى وأدبى ، فلم يلتفت الى ما حوله من فساد وجهل ولم ينزع الى ريبة ، ولم ينزلق فى مأثمة ثم ظهرت طبقة متعلمة تخرجت من مدارس الارساليات الدينية المسيحية من امريكية والمانية وانجليزية . وكانت هذه المدارس قد أنشئت على أثر مذابح عام ١٨٦٠ لنشر العلم والادب على نهج التمدن الحديث ، وعلمت طائفة من الشبان الذين تكونت منهم الطبقة المتعلمة التى كان عليها المعول فى تغيير الآداب الاجتماعية فى بيروت . وكان جرجي زيدان ينظر الى هذه الطبقة وقتئذ وهو يشعر بتقصيره فى مجاراتهم فى التربية والتهذيب ، فكان يتقد غيرة ورغبة فى ان يأخذ مثلهم بنصيبه من العلم والتعليم

يتعلم الانجليزية فى المطعم

واتفق ذات يوم أن زار المطعم المعلم مسعود الطويل ـ احد المعلمين فى بيروت ـ فذكر انه فتح مدرسة يعلم

فيها الشبان اللغة الانجليزية ساعة قبل الغروب ، فرغب جرجي زيدان فى تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه فى المطعم ، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عاما ، فصار يتردد عليه فى بيته مع ١٤ تلميذا ، ومكث هناك خمسة أشهر ، قال له المعلم مسعود فى نهايتها انه تعلم الانجليزية جيدا ، فجرب قوته فى مطالعة كتاب « رحلة كوك فى جزائر المحيط » فرأى نفسه أقل كثيرا مما كان يظن ، فأخذ فى الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل فى كثير من الايام

ولما شعر بأنه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت فى نفسه ملكة التأليف التى ظهرت فيما بعد قوية عارمة ، فأخذ فى وضع قاموس انجليزى عربى فى ذلك الحين . وقد وصل فى تأليف هذا القاموس الى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس ، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله . . على ان ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه فى اللغتين العربية والانجليزية ، فأخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب

كتاب مجمع البحرين

وكان أول كتاب عنى به فى اللغة العربية وأحب اقتناءه ، كتاب « مجمع البحرين » للمرحوم الشيخ ناصف اليازجى. وهو كتاب أدبى وضعه مؤلفه فى ستين مقامة على طراز مقامات الحريرى . وكان قد ابتاعه من أحد باعة الكتب المتجولين . ولهذا الكتاب قصة طريفة يرويها جرجى زيدان فى مذكراته ، فيقول :

« كنت اسمع بكتاب مجمع البحرين ، وأحب اقتناءه . لكنى كنت استغليه ، لأن ثمنه على ما أظن كان اربعة فرنكات أو خمسة ، ففى ذات يوم كنت جالسا بالمطعم ، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملا، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته

منه بتسعة قروش بيروتية اى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيرا . ولما رجع والدى سألنى عنه ، فأخبرته انى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورق » !

« فزعلت ولم أجبه ، ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، اظهرت انى لا اريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وانا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى انام جائعا . وسمعت والدتى تعنف والدى لاغضابى حتى نمت بلا اكل ، ولكنه أصر على رايه .. واتفق أن جاء امين فياض أحد أصدقاء والدى للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد الى ، فسأل عنى ، فقيل له انى نمت . واغتنمت والدتى هذه الفرصة ، وشكت اليه عناد والدى ، فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « انه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة » !.. فأجابه : « أشكر الله يا أبا جرجى ان ابنك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . انها نعمة يجب أن تشكر الله عليها »

« وسمعت كلمات هذا الصديق وانا أتظاهر بالنوم . وللحال اشتد ساعد والدتى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى الى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والدى .. ولا تزال هذه الحادثة نصب عينى .. »

غرام بالعلم وهمة وارادة

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم الى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده . وكان الى ذلك الحين لايعرف النواميس الطبيعية كدوران الارض والكواكب ، وخسوف الشمس والقمر وأسباب السحاب والمطر وغيرها . وقد اطلع فى احدى المجلات على مقالة فى سبب الخسوف والكسوف ،

بعثت فى نفسه الرغبة فى مطالعة هذه الكتب ، فأقبل عليها حتى استوعبها بهمة وارادة قوية . وكان وقتئذ يلبس السروال البيروتى ويعتقد ان لابسى البنطلونات أرقى عقلا واوسع معرفة وأصبح حكما من لابسى السراويل ، لأن أكثرهم من المتعلمين ، فلما استنار بنور العلم ضعف عنده هذا الاعتقاد ، وشعر انه انسان له شخصية وارادة ، وصار لايستبعد مجاراة أهل السراويل لأهل البنطلونات !

وقد كان به جنوح غريزى الى العلم والادب ، وكانت والدته كلما رأت منه ذلك ساعدته عليه ، غير ان العقبة فى اخراجه من محل ابيه أن يجد عملا آخر يستغنى به عن عمله ، ففكر فى تعلم حساب مسك الدفاتر ليكون كاتبا فى أحد المخازن ، فوافقه والده على ذلك . وكأنه رأى فى هذا العمل منجاة ومهربا من المطعم ريثما تتاح له الفرصة ليواصل جهاده فى سبيل العلم والادب ، لا فى سبيل المادة ، ولا فى سبيل الارقام الصامتة التى يجمعها ويحسبها فى هذه المحنة النفسية التى يعانيها فى ذلك الحين ..

يقضى على المرء فى أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

امنية حققتها الايام

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف فى بيروت حتى اتقن هذا الفن فى نحو شهرين ، ثم وظف فى أحد مخازن القماش ، ولكنه لم يرتح الى هذه الوظيفة التى لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد فى مسائه الى مطعم أبيه . وكان هذا المطعم قد أصبح مقصدا ومرادا للطبقة المتعلمة فى بيروت ، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والادباء والصحفيين كالشيخ ابراهيم اليازجى والمعلم عبد الله البستانى ، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم ، وكان يميل الى مباحثة الطلبة

الذين يترددون عليه وخاصة طلبة الطب فى « المدرسة الكلية » التى أصبحت فيما بعد الجامعة الامريكية ببيروت. وكانوا يرون فيه استعدادا عجيبا ، وقد يدخل معهم فى بحث علمى ، فيسمعون منه أقوالا لا يعهدونها فى أمثاله ، فأحبوا صحبته ، واخذوا يدعونه الى الاحتفالات التى تجرى فى المدرسة على اثر الامتحانات ، فيسمع الخطب ، ويشاهد التلاميذ الناجحين ، فيتقد قلبه غيرة وحمية ، ويود لو أتيح له يوما أن يكون بين هؤلاء الناجحين . وكان كلما حضر احتفالا فكر فى نفسه ، وما يعترضه من العقبات فى سبيل تحقيق امنيته ، فيخرج منقبض الصدر ، ويلاحظ عليه أصدقاؤه ذلك ، فيسالونه ، فلا يبوح لهم بما فى سره وما تنطوى عليه جوانحه من الآلام . وذات يوم صارح احد اصدقائه قائلا :

ــ الا ياتى يوم اقف به موقف اولئك المتعلمين ؟

ثم سكت صابرا ، واخذ يفكر فيما يوصله الى ما يريد

سر النجاح

من الاقوال الحكيمة التى ما زالت من دروس الحياة ، وهى نتيجة التجارب قول البحترى :

لا يلبث الممنوع تطلبه
حتى يثوب اليك ممتنعه

وكذلك كان جرجى زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح فى طلبه حتى ثاب اليه ما منع عنه واسلس قياده ، وقد ضاعف همته ، واثار بواعث نشاطه ما قراه من سير الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم واجتهادهم ، واعتمادهم على انفسهم ، وفيهم من كان حلاقا ، أو حدادا ، أو نجارا ، او عاملا من العمال ، وقد اتيح له وقتئذ ان يقرا كتاب « سر النجاح » الذى نقله الى العربية الدكتور يعقوب

صروف ، فاطمأنت نفسه ، وشعر بحافز قوى الى المضى فى عزمه على تعلم الطب

وكان قد انتظم فى عضوية « جمعية شمس البر » ببيروت . وهى جمعية أدبية أكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية ببيروت ، فأفضى بعزمه الى بعض أصدقائه ، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغى أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة فى الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة ، ولم يكن جرجى زيدان قد ألم بها الماما يساعده على النجاح فى الامتحان — هذا عدا الامتحان فى اللغتين الانجليزية والعربية — ولم يكن أمامه الا عطلة الصيف ، وهى نحو أربعة أشهر .. وقد حق لأصدقائه أن يدهشوا لو أن جرجى زيدان كان طالبا عاديا ، ولم تكن الاقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق . ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هذا التثبيط عن تحقيق أمنيته ، فاقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار ، وتقدم لامتحان القبول بمدرسة الطب ، وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه أشبه باعترافهم بنبوغه . وكانت وثبة من « سوق الطويلة » ببيروت الى ساحة « المدرسة الكلية الامريكية » جعلته يشعر بمواهبه وانه لايقل عن لابسى البنطلونات مقدرة وذكاء ..!

ثورته الحرية الفكرية

انتظم فى دراسة الطب فى المدرسة الكلية عام ١٨٨١ ، وكان مثال الاجتهاد والتفوق على قرنائه . ونال فى الامتحان السنوى درجات الامتياز ، وقد حضر الاحتفال هذه المرة ، لا زائرا ولا متفرجا كما كان فى الاحتفالات الاخرى ، بل ناجحا ممتازا يشار اليه بالبنان ، وحققت له الارادة القوية ما كان يتمنى فوقف « موقف أولئك المتعلمين » . بل وقف بينهم موقف الممتازين

وكانت السنة الثانية للطب ، فانتظم مع اخوانه فى الدراسة ، ولكن لم يمض غير شهرين حتى وقعت حادثة الحرية الفكرية فى المدرسة الكلية ، وكان جرجى زيدان من أكثر المتحمسين لها ، بل كان أكثرهم تحمسا . وقد انجلت عن خروجه مع معظم تلامذتها ، غير انه ثابر على دراسة علوم الصيدلة بعد خروجه ، وأدى امتحانا فى هذه العلوم أمام لجنة حرة تالفت فى بيروت من أشهر اطباء سورية ولبنان تحت رئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشى المعسكر ، ومن أعضائها الدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، والدكتور رابوطاجى ، وغيرهم . ونال شهادة الصيدلة فى العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيميائى ، والمواد الطبية ، والاقرباذين العلمى والعملى

هجرته الى مصر

وبعد أن حصل على هذه الشهادة من هذه اللجنة الطبية الحرة اعتزم أن يتم دراسة الطب البشرى فى مدرسة قصر العينى بمصر ، وكان ناظرها وقتئذ الدكتور عيسى باشا حمدى ، ولم يكن عنده ما يتزود به من النفقة فى الايام الاولى من الرحلة الى البلاد المصرية ، ولقد غامر بمستقبله فى سبيل الحرية الفكرية التى ثار لها هو وزملاؤه فى المدرسة الكلية ، وكانت اول ثورة واضراب للطلبة فى الشرق ، اذ كان يتعلم الطب ليعيش ، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله فى العلم ، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كأنما انقطع حبل آماله ، وان جهاده ذهب سدى ، ولكن ما لبثت عزيمته أن استردت قوتها ، وما عتمت ارادته أن تغلبت على ضعف نفسه ، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل اليه ، فأقرضه ستة جنيهات ضمها الى ما كان معه من قليل النفقة ، وسافر الى مصر ، ولم ينس أريحية هذا الجار

فرد له الجنيهات الستة بعد عام حينما مارس العمل لأول مرة فى مصر

اشتغاله بالصحافة

وكانت سنه حينما هاجر الى البلاد المصرية ، لا تزيد عن اثنتين وعشرين سنة ـ اذ ولد فى ١٤ ديسمبرعام ١٨٦١ ـ فركب احدى البواخر التجارية . وهى أول مرة يركب فيها البحر، ووصلت به الباخرة صباحا الىالاسكندرية فى أكتوبر عام ١٨٨٣ . وكان ذلك عقب الثورة العرابية ، فشاهد هذه المدينة فى حالة يرثى لها على أثر الحريق وحوادث التدمير التى حلت بها من العدوان البريطاني . وكان لذلك أثره فيما بعد حين دون حوادث هذه الثورة فى كتابه « تاريخ مصر الحديث »

وبعد أن استراح بالاسكندرية قليلا شخص الى القاهرة ، وتقدم لمدرسة الطب . غير ان طول المدة لنيل شهادتها ، حول عزمه عن صناعة الطب الى صناعة القلم ، فتولى تحرير «جريدة الزمان» . وكانت حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة . وقد مكث فى تحرير هذه الجريدة عاما أو يزيد . ثم استقال منها ليعمل فى الحملة النيلية الى السودان

الفلسفة اللغوية

سافر الى السودان مترجما فى الحملة النيليـة لانقـاذ غوردون باشا فقضى فيه عشرة أشهر شهد فى أثنائها أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة أبى طليح والمتمة وغيرها . وقد قاسى فى هذه الرحلة ألوانا من المشقات ، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع أحوال هذا القطر ، ولما عاد الى مصر نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على جهوده . . غير انه لم يستقر فى مصر بعد عودته من الحملة ، بل سافر الى بيروت عام ١٨٨٥ ، فانتدبه المجمع العلمى الشرقي ليكون عضوا عاملا فيه فمكث

فى بيروت عشرة اشهر يطالع اللغات الشرقيـــة ، فدرس العبرانية والسريانية . ووضع على أثر ذلك أول كتاب له ، بل أول كتاب من نوعه فى الشرق ، وهو كتاب « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين ..!

وفى هذه الاثناء الف احد أصدقائه رواية سماها « رواية البطلين » جعل جرجى زيدان أول بطليها ، وجعل غوردون باشا البطل الثانى . وقد وصف المؤلف فيها عصاميـــة جرجى زيدان وانتصـــاره فى معركة الحياة ، وبطولته فى التغلب على العقبات حتى وصل الى ما يريد مع المحافظة على الفضائل والآداب الراقية

عمله فى « المقتطف »

كانت مجلة « المقتطف » فى ذلك الحين هى أرقى المجلات العلمية وأشهرها فى الشرق العربى ، وكانت تجتذب أقلام العلماء والادباء ، وقد راسلها جرجى زيدان ببعض مقالاته الأدبية وبحوثه العلمية ، فقدرت جهوده فى صناعة الفكر والقلم . وكان قد سافر فى صيف عام ١٨٨٦ الى عاصمة الانجليز ، وترددعلىأندية العلم فيها وزار المتحف البريطانى ثم عاد فى الشتاء الى مصر ، فاختير مديرا عاما لادارة مجلة « المقتطف » فقبل ، ومكث فى هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شؤونها الادارية ويســـاهم فى التحرير ببحوثه القيمة

ولعلمن الطريف أن نذكر انجرجى زيدان فى أول نشأته وهو فى بيروت بعث بمقالة الى هذه المجلة ينتقد فيها الآباء الذين لايعلمون أولادهم ، وكانت أول مقالة كتبها فىحياته ، فلم تنشرها المجلة وصادف أن جاءه مديرها فى الصيف ، وتناول طعامه فى مطعم أبيه ، فسأله عنها ، فأجابه : « أنه يرجو أن تكون المقالة الثانية خيرا من الأولى ..! » وأراد الله

ان يكون جرجي زيدان مديرا للمقتطف بعـــد نحو عشر سنوات من هذه الحادثة

انصرافه للتاليف

مكث جرجي زيدان عامين مديرا للمقتطف ، وكان مرتبه فى تلك الوظيفة ثمانية جنيهات فى الشهر . ولعل القارىء يظن ان هذا المبلغ فى ذلك الزمان يعد مبلغا ضخما اذا قيس بقيمة العملة فى عصرنا الحاضر ، وهـــذا صحيح اذا كان جرجى زيدان تناوله لقـــاء أعمال ادارية فقط أو أعمال تحريرية فقط ، أو اعمال خاصة بالمطبعة وشؤون الورق والحبر والبريد والمشتركين والعمال فقط ، بل كان يتناوله لقاء هذه الاعمال كلها ، فقام بها خير قيام ، ثم راى وقته قد ضاق عما يغرم به من متابعة البحوث والتـــاليف ، فاستقال من المقتطف ، وانصرف لوضع نفائس المؤلفات ، فألف كتاب تاريخ مصر الحديث فى جزءين وعاني فى تأليفه صعوبات جمة ، وفى عام ١٨٨٩ ألف تاريخ الماسونية العام . وهو أول كتاب من نوعه كتب فى العربية ، ثم كتاب التاريخ العام وهو مختصر تاريخ آسيا وافريقيا القديمة والحديثة

وفى أواخر تلك السنة انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الارثوذكس بمصر ليتولى ادارة التدريس العربى فيها ، فتولاها سنتين . وفى أثناء هذه المدة ألف رواية : «المملوك الشارد» . وهى أولى رواياته التاريخية ، فصادفت اقبالا كبيرا حتى طبعت عدة طبعات . وكانت سنه لا تزيد عن ثمانية وعشرين عاما !..

تاسيسه للهلال

أغرم جرجى زيدان بتحصيل العلوم والآداب ، فدرس كثيرا ، وقرأ طويلا ، وكان جهده هوأستاذه الاكبر، واعتماده على نفسه هو رائده الاعظم . وكما وهب نبوغا فى دراسة

العلم والتاريخ وتحصيل الأدب ، وهب ملكة ممتازة ، ونبوغا فائقا فى البحث والتأليف ، وصبرا عجيبا على مشاقهما . . وقد عرف فى التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان فى ذكائهم وعلمهم ، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثارا ، أو لم يخلفوا كثيرا من الآثار النافعة تتناسب وما اشتهروا به من نبوغ وعبقرية

ولكن جرجى زيدان النابغة بعد أن درس واطلع وأصبح على حظ وافر من العلم أراد أن يكون نافعا للناس وللغة العربية وللعرب والاسلام بوجه خاص ، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل فى تاريخ الشرق ، بل فى تاريخ العالم الذين اضافوا الى تراث العقل الانسانى ثروة جديدة

ولما كانت الطباعة أهم ما يعتمد عليه فى أداء رسالته ، فقد عنى بأن تكون له مطبعة ، واستحضر فى ذلك الحين بعض الادوات المطبعية ، وتنحى عن التدريس وادارته فى المدرسة العبيدية . وأخذ يستعد لتأسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة الى جانب ما يضعه من مؤلفات

وفى اول سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر العدد الاول من هذه المجلة . وقد صدره بمقدمة قال فيها :

« لابد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى اليها . أما فاتحتنا فحمدا لله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه . والتوسل اليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب . واما خطتنـــا فالاخلاص فى غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الاقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر

« أما الغاية التى نرجو الوصول اليها ، فاقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه واغضاؤهم عما نرتكبه ، فاذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ،

فننشط لما هو أقرب الى الواجب علينا .. » . وبعد ان تحدث عن أبواب المجلة قال : « وقد دعونا مجلتنا هـذه الهلال لثلاثة أسباب : أولا ــ تبركا بالهلال العثماني الرفيع الشان . . ثانيا ــ اشارة لظهور هذه المجلة مرة فى كل شهر . ثالثا ــ تفاؤلا بنموها مع الزمن حتى تتـدرج فى مدارج الكمال . فاذا لاقت قبولا واقبـالا اصبحت بدرا كاملا باذن الله »

خدماته للعرب والاسلام

وكان فى النشـأة الاولى لهذه المجلة يتولى كل أمورها بنفسه من تحرير وادارة ومكاتبات مما لايسـتطيعه الا جماعة من الرجال ، ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل . ولما اتسعت شؤونهما عهد بادارتها الى شقيقه ، واستخدم معه آخرين وعكف هو على التحرير والتأليف . وقد وضع بعد تأسيس الهلال روايات تاريخ الاسـلام ، وكتاب التمدن الاسلامى فى خمسة أجزاء وكتاب العرب قبل الاسـلام ، وعلم الفراسة الحديث ، ومشـاهير الشرق فى جزءين ، وتاريخ آداب اللغة العربية فى اربعة أجزاء ، وأنساب العرب القدماء ، وطبقات الأمم ، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ انجلترا

وقد صدر من روايات تاريخ الاسلام ثمانى عشرة رواية عدا أربع روايات خارجة عن هذه السلسلة ، وهى : المملوك الشارد ، وأسير المتمهدى ، واستبداد المماليك ، وجهاد المحبين . وقد نقلت معظم مؤلفاته الى كثير من اللغات

والذى يطلع على آثار هذا العصامى النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف استطاع أن يقوم بها مع أعماله فى الهلال خلال اثنين وعشرين عاما فقط ، ولكنه النبوغ الذى لايقف عند حد ولايعرف للزمن حسابا ، والجهود المضنية ،

والنفس العظيمة التى يتعب الجسم فى تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى . ولقد ذابت روح زيدان وفنى جسمه قبل الآوان ، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين

لم يعرف جرجى زيدان التعب طول حياته ، وقد انتفع ونفع بكل ساعة من وقته ، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة ، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة . ولقد جاءه يوما مستشرق يزوره ، فلما رآه سأله مستغربا : « أانت جرجى زيدان ؟ » فأجابه : «نعم» فقال المستشرق : « كنت انتظر أن أرى شيخا ذا لحية بيضاء ، لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة » !

هذا هو العصامى جرجى زيدان : نشأ فقيرا سدت أمامه ابواب المعارف ، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد والعقبات دون ما يريد ، ووثب من الصناعة والعمل الى عبقرية الفكر ومجد العلم والأدب ، ومن ساحة البرج ببيروت ، الى ميادين الثقافة العليا ، ومن بيروتى صغير لابس السروال ، الى عالم كبير ونابغة جليل يفخر به الشرق اجمع ، ومن فتى مجهول يكافح فى سبيل العيش وفى سبيل التعليم ، الى كهل عظيم يضع أنفس المؤلفات فى تاريخ الشرق وتاريخ الاسلام وآداب اللغة العربية ويبتكر من المؤلفات ما لم يسبقه اليه احد ؟ ويخطب وده العلماء والادباء ومعاهد العلم الكبرى ، وتنتدبه الجامعة المصرية القديمة ليدرس لطلبتها تاريخ الاسلام ، ثم تحتفظ بما وضعه لها من دروس حين وقف فى سبيل انتدابه الجامدون !

هـذا هو العصامى جرجى زيدان الذى سجل تاريخ الشرق اسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين ، والذى صح فيه قول القائل :

ان الفتى من يقول هانذا
ليس الفتى من يقول كان ابى

علی ابراهیم



على ابراهيم

« كان فى بداية حياته طبيبا فقيرا ، وكان نفوذ الطب الاجنبى يكاد يخنق الطب المصرى ، فانتصر على هذه الظروف وعاش حتى طب لملوك وأمراء ووزراء وزعماء »

زعيم النهضة الطبية الحديثة

بقلم الدكتور سعيد عبده

وضـئيل من اســاة الحى لم
يعن باللحم وبالشحم اختزانا
ضــامر فى ســمرة تحسـبه
نضو صحراء ارتدى الشمس دهانا
او طبيبـا آيبـا من طيبـة
لم تزل تنـدى يداه زعفـرانا
تنكر الأرض عليــه جسـمه
واســمه اعظم منهــا دورانا

شوقى

توفى على ابراهيم فى سـنة ١٩٤٧ ، عن سـبعة وستين عاما ـ او هكذا قيل ـ وعن ولدين وبنت ، وبيت فى جاردن سيتى وخمسة عشر فدانا ، و ١٠٠٠ سهم فى بنك مصر ، ومجموعة قيمة معدومة النظير من التحف والسجاجيد ، وبحر من دموع تلاميذه ومرضاه ، وكلية طب مصرية مائة فى المائة من غرس يديه ، وسـجل حافل بمئـات من آيات المجـد العصامى ، كتبه بهمة نفسه ، وأنامل راحتيه ، وعرق جبينه ، فى حوالى نصف قرن من الزمان

كان علي ابراهيم يقول انه ولد فى سنة ١٨٨٠ ، وعلى هذا الحساب بلغ الستين فى سنة ١٩٤٠ ، ولكننى لا ادرى كيف أوفق بين هذا المولد وبين ما كان يروى عنه من وعيه وعى

الصبى لضرب الاسكندرية فى سنة ١٨٨٢ ! !

ولا ادرى كيف أوفق بين هـــذا المولد وحصوله على الشهادة الابتدائية سنة ١٨٩٢ ـ اى فى الثانية عشرة من عمره ـ فى وقت كان التلميذ لا يدخل المدرسـة فيـه الا والصقر يقف على عذبات شاربيه ! !

ولا ادرى كيف أوفق بين هذا المولد وحساسيته المرهفة فى أواخر أيامه من ناحية عمره ، ولقائه اياى وانصرافه عنى بوجه متجهم ، عندما قلت له مداعبـا فى الاحتفـال بعيد ميلاده الستين :

« ستين سنة ازاى يا ألفة فصل امحوتب ؟ ؟
يا مداوى توت عنخ م الحصوة وذو القرنين ! !
ستين سنة ازاى ؟.. دنا قربت ع الخمسين
ون كنت خمسين انا «معاليك» تكون كام ؟ سن
فين جدول الضرب ؟ فين مسك الدفاتر فين
داســجل مجـدك لوحــــده ينقرا قراية
فى أتنين وسبعين سنة وبلاش أقول ثمانين !!»

أكبر ظنى أن الابدال والاعلال جـرى عمدا على تاريخ ميلاده ، فقلب السبعة ثمانية ، وجعل التاريخ ١٨٨٠ بدلا من ١٨٧٠ ، التى يمكن أن تستقيم بها الامور ، كما يمكن ان نفسر بها كيف أن هذا الجسد الضامر النحيل لا يعيش غير سبعة وستين عاما ، وهو متحدر من اصلاب أبوين مات احدهما عن ٨٢ سنة ، ومات الآخر عن ٩٢ سنة

لقد رايت فى صباى على ابراهيم يقف على فراش مريض، يشبهه فى الجسد سمرة وضمورا وقلة ، وكان مصابا بخراج فى الكبد فى وقت كان هذا الخراج فيه بابا من أبواب الآخرة لا يؤوب منه الذاهبون ، وكان الأطباء قد نصحوه أن يسافر الى بلده ليقضى نحبه هناك ، فيقول له ضاحكا من عينه التى كانت تقطر عذوبة لمرضاه : « لا تبتئس بابنى ولا تسمع

لمـا يقولون ... ان مثلك ومثلى لا يموتون الا شـيوخا او بضرب الرصاص ! » وقد صدقت نبوءته فى هذا المريض كما كانت تصدق على الدوام ، فانفجر الخراج فى الرئة ، ونفذ قيحه الى الفم ، على وعثاء الطريق ، وعاش المريض حتى بكى على قبر على ابراهيم !

كان على ابراهيم فى بداية حياته الطبية سنة ١٩٠١ طبيبا مصريا فقيرا من مدرسة طبية منحلة ، اضطر ان يعيد دراسته وهو طبيب حتى يقوى على طراد عصر ، كانت نفس المواهب المصرية فيه توأد عمدا ، وكان نفوذ الطب الأجنبى يطغى فيــه على الطب المصرى حتى يخنقه او يكاد ... وانتصر على هذه الظروف جميعا ، وعاش حتى طب للملوك وامراء ووزراء وزعماء ، واحصى ما اجراه من جراحات فى عياداته الخاصة بما يزيد على ٣٥٫٠٠٠ جراحة غير ما اجراه منها فى المستشفيات الحكومية ، وهو يفوق أضعاف هــذه الآلاف ، واستطاع أن يحظى بثلاثة عشر وساما من بلاد أجنبية متعددة ، وأن ينال ــ دون تقدم لامتحان ــ ارقى ثلاثة مؤهلات فخرية من كبرى الدوائر الطبية فى مصر والعالم ، وأن يرقى سلالم المجد بمواهبــه الشخصية ، وبعصا مصرية صميمة ، وبخطوات عبقرية جبارة ــ من طبيب أوبئة ، الى مدير مستشفى اقليمى ، الى رئيس للبعثة الطبية المصرية فى حرب البلقان ، الى مساعد جراح بمستشفى قصر العينى ، الى جراح به ، الى استاذ للجراحة فيــه ، الى مدير له ، الى عميد لكلية الطب الى رئيس او عضو عامل فى حوالى عشرين جمعية أو معهد تسهم كلها فى ايقاظ الوعى القومى أو الطبى أو الاقتصادى فى البلاد ، الى صديق شخصى لمئات من اكابر الجراحين فى العالم ، الى وزير للصحة ، الى مدير للجامعة التى خرج من ارحامها سنة ١٩٠١ بأجازة علمية تافهة ، طالما قادت فى ذلك العهد كثيرا من زملاء على ابراهيم الى القبر فى الكفن الرخيص

نعم ان الحظ طالما سطع نجمه فى حياة على ابراهيم ، وطالما اضاء له السفح فصعد على هداه .. لقد خدمته النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ، والجهود التى بذلتها لتقويض دعائم النفوذ الأجنبى ، كما خدمه انتحار ناظر مدرسة الطب الانجليزى فى سنة ١٩٢٩ ، كما تلقى خدمات كثيرة من هذا النوع من نجمه المشرق اللماع ، سنرى بعض آثارها هنا وهناك فى تاريخه الطويل ... ولكن ما أكثر الذين يلمع الحظ فى حياتهم من الضعفاء ، فيعشيهم ضوءه لا يقودهم ، ويتركهم وراءه حيث كانوا يتساقطون حيرة وحسرة

الانسان الطبيب

ركب على ابراهيم فى مستهل حياته الطبية الحمار والقارب وغاص فى وحول الريف ، ومشى على قدميه تحت شمس الصعيد وعطش وجاع ، وخاض وباء الكوليرا سنة ١٩٠٢ وانتدب فى سنة ١٩٠٤ وهو مدير لمستشفى بنى سويف ليكافح وباء الحمى الفحمية فى طوخ . وبين مشاهد البؤس فى عياداته الخاصة يوم كان دخله منها لا يتجاوز ثمانين قرشا فى الشهر ، ومشاهد النعيم فيها يوم جاوز دخله آلاف الجنيهات ، ادرك على ابراهيم كنه الآلام البشرية ولم تكن غريبة عليه ، وقدر مرارة الثمار التى يزرعها المرض فى بيوت الفقراء ، فكان ـ قبل ان يكون طبيبا يتكسب ـ انسانا على الدوام

ففى الوقت الذى تقاضى فيه من السلطان حسين كامل الفا من الجنيهات الذهبية عن جراحة اجراها له ، لم يتقاض شيئا من موظف ارسل له خمسة جنيهات فى خطاب ، وقال له ان ابنته ووحيدته مريضة ، وانها فى حاجة الى جراحة ليس لها الا هو ، وانه غير قادر على أن يأجره بأكثر من هذا المبلغ التافه ، فان قبله فبها ، والا فليرده مشكورا ، ولكل مريض رب لا ينساه ... وقد رده اليه فعلا على ابراهيم ،

ولكن بعد أن أجرى الجراحة المطلوبة للفتاة ، وتكفل لها بأجر المستشفى وثمن الدواء

واكتظ المستشفى الاسرائيلى الذى كان على ابراهيم جراحه يوما ما ، بقصاده ، وتجاور فى غرفة واحدة منه ثرى من أسرة الشواربى المعروفة ، وقاض من قضاة المحاكم المصرية ، واستأصل على ابراهيم فى نفس الوقت لكل منهما كلية مريضة ، وعندما برئا وأوشكا على الخروج ، طلب من الشواربى خمسمائة جنيه ، وطلب من القاضى الذى بدا عليه الذعر من فداحة الاتعاب ، أن يمر به فى عيادته ، فاستعد القاضى لهذا اللقاء بمائتى جنيه معظمها قروض ، وبسط يده بما فيها قائلا : « هذا كل ما استطعت جمعه والأمر لك »

وسأله على ابراهيم : « كم مرتبك » ؟

فقال : « خمسة وأربعون جنيها ... »

قال : « اذن تدفع خمسة وأربعين ، وتعيش هذا الشهر محتميا ، فالحمية لمثلك من ذوى البدانة تفيد !! »

ان حياة على ابراهيم الطبيب والانسان والادارى كانت مسرحا لكثير من أمثال هذه المفارقات

وعندما قال شوقى فى تكريمه :

«يد ابراهيم لو جئت لها بذبيح الطير عاد الطيرانا»
«لم تخط للناس يوما كفنا انما خاطت بقاء وكيانا»

ضحك على ابراهيم ضحكته الخرساء وقال : آه لو عرف شوقى أن قتلاى فى القطر كان يمكن أن يملؤوا مقابر المجاورين !!

وقلت لشوقى ذلك فاختلجت عينه كما كانت تختلج عندما يمرح وقال :

ـ لقد نسى أن يقول لك : لو اجتمع من أحياهم فى صعيد واحد لكان منهم عاصمة جديدة للنيل !!

ولما توسلت اليه يوما أن يجرى لى جراحة فى المخ تنقذنى من عذاب كافر طويل قال لى ببساطة ... اننى لم أجر هذه الجراحة فى حياتى قط ، ولا اريد ان تكون أول قتلاى فى هذا المجال !

فخره بأبيه الفلاح

وفى الوقت الذى بلغ فيه التفاخر بالأنساب والاحساب اشده وزراعة النخل الطويل على قبور الآباء المغمورين ، كان على ابراهيم لا يفتأ يفخر بأصله المتواضع ... بأبيه الحاج ابراهيم عطا الفلاح ، وبأمه السيدة مبروكة خفاجى الاسكندرانية ، وباخواته من أمه ، واخوته من أبيه ، وكلهم فلاح وابن فلاح ، لا يضيق يوما بواحد منهم ، ولا يتنكر لواحد ، ولا يحاول وهو واقف على ربوة المجد ان يتحلل من فضل البرقع المقصب عليه ، وفضل الزعبوط الفضفاض ..

كانت صورة أمه تملو مكتبه لآخر أيام حياته ، وكانت المرة الوحيدة التى ابتذل فيها دموعه يوم وفاتها ، وقد جعل مستشفاه الخاص فى شارع الصنافيرى ، بعد أن انتقل منه الى المستشفى الاسرائيلى ، مضيفة لاستقبال من يفد عليه من اقاربه هؤلاء ، واوصى اولاده على سرير الموت الا يأخذوا مليما من غلة الأرض التى تركها لهم فى الريف ..

وقال لى الاستاذ الدكتور عبد الله الكاتب ـ الخليفة الحالى لعلى ابراهيم على عمادة الطب ـ ان هذه الناحية من حياة على ابراهيم كانت تفضح أكثر من أى شىء عصاميته الفذة وشخصيته القوية ، وأنه ما أحترمه قط أكثر مما احترمه يوم أرسل له ـ وهو يعمل نائبا له فى قسم الجراحة بقصر العينى ـ فلاحا ومعه هذه الرسالة : « هذا زوج أختى فليكن له من رعايتك نصيب »

وكان على ابراهيم فى ادارته يرق احيانا حتى يستحيل الى أب ، ويقسو أحيانا حتى يستحيل الى طاغية ، ويقدم حتى يظن اقدامه حماقة ، وما هو الا ايمان الواثق من ثبات الأرض تحت قدميه . . . ويحجم حتى يخال احجامه جبنا ، واكثره انحناء للعاصفة حتى تمر وتفوت ، وكل هـــذه التصرفات المتناقضة كانت تترجم من معاصريه ومرءوسيه بطرق متعددة ، تختلف باختلاف عقليات وأهواء المترجمين ؛ ولكن ما من شك أن الوازع الاكبر لها كان ضخامة آماله للطب المصرى والأطباء المصريين ، وحرصه على الوصول الى اهدافه من أيسر طريق مهما تعرج وطال ، ولو تكلف لهـا شراسة النمر أحيانا ، أو نعومة الثعبان

دروس من المحن

ان المحن التى مرت عليه طوال حياته علمته الكثير

ونبوغه نفسه أعتقد أن قسطا كبيرا منـــه كان تعويض النفس الكبيرة عن طفولة لم يكن نصـيبها من الســعادة بالنصيب الكبير

لقد عاش على ابراهيم وهو طفل مع والدته بالاسكندرية، وكانت على غير وفاق مع أبيه منذ حملت به ، ومع جدته لأمه وكانت كفيفة البصر . وكان لديها « زلعة » تختزن فيها ما كانت تدخر من ذهب ، فكانت الأم اذا احتاجت الى مال تآمرت مع الصبى على أن يأخذا من الزلعة مقدارا من القطع الذهبية ، ويضعان فى مكانها بعددها وحجمها قطعا فضية ؛ حتى لا ينفضح الأمر بالعد والاحصاء ، فاذا تيسر الحـال استبدلا من الفضة الذهب ، وكأن الذى كان ما كان !

وعندما نال الابتدائية فى سنة ۱۸۹۲ ، وكانت من أكبر المؤهلات لوظائف الحكومة فى تلك الايام، أراد أبوه أن يستحوذ عليه ، وان يلحقه بوظيفة فى البريد ، وجاء ليأخذه من أمه

قسرا ، فحمل على ابراهيم ملابسه ، ومقدارا من المال من أمه ــ ولعله من الزلعة ! ــ وقفز من سطح البيت الى أسطح الجيران فرارا من ابيه . وفى القاهرة دخل المدرسة الخديوية بوساطة بعض اصحاب الجاه من زملاء المدرسة الابتدائية فى راس التين

وأراد كتشنر ــ سردار الجيش المصرى يومئذ ــ أن يختار ضباطا للجيش فى حملة السودان من تلاميذ المدارس الثانوية فى القاهرة ، فمر بها واحدة واحدة ، وعرض طلابها جميعا ، ليختار أقواهم جسدا ، وافرعهم طولا ، واشدهم قدرة على الكفاح ... فلما عرض طلاب الخديوية أخذ على ابراهيم يشب على امشاط قدميه ، ليلفت اليه نظر السردار ، الذى ضحك ضحكة العارف بما وراء هذا الطول المصطنع ، وهذا الجسد الضامر النحيل !!

لقد عاصر على ابراهيم وهو طفل ثورة عرابى على طغيان الدخلاء ، وضرب الاسطول الانجليزى للثغر الأعزل بالقنابل، وهاجر مع أمه من الاسكندرية فى جنح الليل هربا من النيران الماحقة ، والقذائف المدمرة ، والفوضى التى اجتاحت المدينة الثائرة من هذا الزلزال السياسى القاصم العنيف

وعاصر وهو شاب لؤم الاحتلال الانجليزى وهو يقتلع نبت الحرية من ضفاف النيل ، ويصبغ باللون الأحمر كل معالم الحضارة المصرية الخضراء كما عاصر جهاد مصطفى كامل ومحمد فريد ضد السرطان المتغلغل بقسوة فى أحشاء البلاد

وراى فى تلك الأيام وهو يعمل مديرا لمستشفى بنى سويف فى سنة ١٩٠٤ تحت اشراف مفتش الصحة الانجليزى ... راى مسرح الجراحة بالمستشفى يستعمل طريقا مفتوحا لموردى اللحوم والخضراوات ... فثار على هذا الوضع ، وسد الباب الموصل الى المطبخ ، وهيا لموردى الطعام طريقا مستقلا اليه ، ينقذ مسرح العمليات من الاوساخ والأقذار . فعد المفتش الانجليزى هذا الاجراء اعتداء على سلطانه ،

وعنف كل منهما على صاحبه ، ودفع على ابراهيم ثمن هذا العنف نفيا الى مستشفى أسوان ! !

وعاصر وهو كهل تمرد مصر علىأغلالها الحديدية سنة ١٩١٩ ، كما عاصر محن السياسة الحزبية وأعاصيرها على مصر فيما تلا ذلك من السنين حتى مات ، وكاد يحرق أصابعه على جمرها عندما رشح نفسه حزبيا لمجلس النواب الاول فى سنة ١٩٢٤ نائبا عن دائرة عابدين ، لولا أن الجمر لسعه فى الوقت المناسب ، فأجفل ، وابتعد فى الحال

وفى هذه المدرسة ذات الموج المتلاطم تعلم على ابراهيم ان السباحة مع التماسيح تغرير ، وان الاحتيال على الأمور خليق أن ينيله من غاياته ما لا ينيله العنف وضرب الرءوس فى الجدران ... تعلم كيف ينحنى للعواصف ، وكيف يحاور ويداور ، وكيف يقدم ويحجم ، وكيف يظهر على المسرح عندما يثمر الظهور ، وكيف يختفى عندما يحس بوادر السخط على وجوه المتفرجين ...

عندما أراد أن يسافر الى السودان ليعالج الزعيم الدينى الكبير السيد على الميرغنى ، وكان كبار الاطباء الانجليز فى السودان قد اشفقوا من مغبة هذا العلاج ، تعلق به أولاده وهم صغار ليسافروا معه الى السودان ... فلم يعنفهم وقال لهم ببساطة : هلموا معى الى السودان !.. وصحبهم الى جروبى ، وملأ أفواههم حلوى ، وقال هذا هو السودان !! ثم اعادهم الى البيت فرحين ، وتركهم نياما يحلمون بحلاوة السودان ، وذهب فاستقل القطار !!

وكانت هذه طريقته فى مواجهة المشاكل ...

مستشفى المنيل

ولما عجز اسلافه مديرو مستشفى القصر العينى الانجليز أكثر من مرة عن اغراء السلطات بانشاء مستشفى المنيل

الجديد (فؤاد الأول الجامعى سابقا) ووضع هذا المشروع على الرف ، وقيل يومئذ أن الملك السابق فؤاد كان يطمع فى أرض المستشفى ليقيم عليها قصرا لولى عهده فاروق ، لم يكد على ابراهيم يتولى عمادة الطب سنة ١٩٢٩ حتى راح يجاهد جهاده الخفى ، ويحتـــال ويجامل ، ويحرك الأحجار بلطف ، حتى أتيح له أن يحصل على الاعتمادات اللازمة لبناء المستشفى ، واصلاح الكلية كذلك ، جزءا جزءا ، واعتمادا وراء اعتماد ، وكلما فرغ من بناء ، بدأ فى آخر ووضع السلطات أمام الأمر الواقع ، ولم تســتطع حتى أزمة سـنة ١٩٣٠ الطاحنـة أن تحول بينـه وبين الحصول على أكثر من مليــون من الجنيهات لانشاء الفى سرير فى هذا المستشفى الجديد

لقد كان يقضى حاجة كل وزير صاحب نفوذ فى الكلية بأسرع من البرق ، ولكن بعد أن يكون قد نال منه للكلية مزية أو حصل لها على اعتماد

ومن المتفق عليه ان عبقرية على ابراهيم ونجمه المتلألىء على الدوام ، وانفه الذى كان يشم العواصف والنسمات بحساسية البارومتر الدقيق ، يعود اليها أكثر الفضل فى تقويض نفوذ الطب الأجنبى الذى سـيطر بعد الاحتلال الانجليزى على هذه البلاد ، وانتشـال الطب المصرى من وهدة الذل والهوان التى كان يتردى فيها على أيدى اطباء غرباء ، من كل بقاع الارض ، لا يعلم الا الله من أين جاءوا ، ولا كيف تعلموا ، ولا بأى كفاية جمعوا ما جمعوا من كنوز

منافسته للأطباء الأجانب

عندما نقل على ابراهيم مديرا لمستشفى اسيوط سنة ١٩٠٤ وجد الأطباء الاجانب يحتلون مسقط الضــوء ، ويحتكرون الطب فى أسيوط ، لهم وحدهم علاج السادة ،

وللاطبـــاء المصريين علاج الخدم ، لهم على المائدة ما لذ وطاب ، ولزملائهم المصريين النفاية والفتات .. ولبث على ابراهيم فترة يرقب الموقف ، ويكسب من عيادته ثمانين قرشا فلا يتململ ، حتى اذا سافر هؤلاء الأطباء فى الصيف انتهز الفرصة السانحة وشمر عن ساعديه ، ولكن أحـدا من كبار المرضى لم يأت، فاذا أتى فانما ليستشير ، ويؤجل الجراحة المطلوبة حتى يعود فلان أو علان ، وكان اليأس خليقا أن يجرفه ولكنه صمد ، وكانت هناك يومئذ بعثة اجنبية تبحث عن الآثار فى أسيوط ، فمرض رئيســـها بالتيفود ، فتطوع على ابراهيم لعلاجه حتى شفاه ، وبدأ البندول يتحرك نحوه ببطء ، وأخذت الظروف تواتيه ، فلم يلبث غير قليل حتى نافس الأطباء الأجانب على ثقة المرضى المصريين ، ثم بزهم ، ولم يترك اسيوط فى سـنة ١٩١١ ، الا وهو يكيل لهم بنفس مكيالهم القديم : يأكل ، ويلقى اليهم بالفتات !!

وتكررت المأساة بالقاهرة بعد أن نقل اليها مساعد جراح بمستشفى قصر العينى ، وكان قبوله لهذا النقل مجازفة يقامر فيها بدخل وصل الى ٥٠٠ جنيه شهريا فى أسيوط على مستقبل فى القاهرة غامض مجهول ...

ولكن اية مجازفة لم يكن يقدم عليها على ابراهيم ؟

لقد كان خوف الأطباء المصريين من الأطباء الاجانب فى القاهرة آخذا بالنواصي والرقاب ، وظل سنتين فملا يمص ابهامه فى عيادته الاولى بباب الشعرية ويعـــد الطير فى السماء ، ولكن سرعان ما واتته الظروف والتمع نجمه ، فاعلنت الحرب الأولى ، ونزح الى بلادهم كثير من الأطباء الانجليز ، فخلا له الجو ، وراح يصعد السلم على عصـاه المصرية ، بخطوات الفرعون الثاوى فى جسده النحيل .. ولم يصعد وحده فقد جر معه الى القمــة سمعة الطب المصرى ، وكثيرا من أساطينه الحاضرين ...

وما هو الا قليل حتى كانت الثورة المصرية تقطف جنـاها الأول فى سنة ١٩٢٤ ، فتمكن لبلابل الدوح مكانا على أغصانه بين البوم والغربان ، ويصبح على ابراهيم استاذا للجراحة فى كلية الطب بعد ان كان كرسى الاستاذية وقفا على الاجانب، مستحيل المنال على المصريين . ومنذ ذلك اليوم أخذ الدم المصرى يملأ شرايين كلية الطب على يد على ابراهيم

مصرى صميم

فى قامة على ابراهيم القصيرة ، وجسده الضامر ، ولونه الأسفع، وجبينه العريض، وعيونه الواسعة وشفاهه الغلاظ ، شىء ما كان يجعل الناظر اليه ــ دون أن يكون شاعرا ــ يتوهمه كما توهمه شوقى : طبيبا آيبا من طيبة ، يداه لا تزالان نديتين بالزعفران

ولكن أشد ما كان يوحى بانحداره رأسا من أصلاب الكهان فى طيبة ومنفيس تلك الأنامل العبقرية التى كانت ترفو الحياة بمهارة فنان ، وهذه الشخصية المبهمة الجبارة التى قهرت الأعاصير والزوابع بخبرة ملاح من ملاحى الأساطير

لقد حطمت هذه الأعاصير ما حطمت، واغرقت ما أغرقت، ثم انداحت فى النهاية عن مصر المتحررة من أسارها الطويل ، ومجموعة من العصاميين المصريين طفوا فوق العباب المتلاطم، بقوة السواعد وعمق الوطنية ، ونور الالهام ... وكان من أبرزهم دون شك الدكتور على ابراهيم

جبران خليل جبران



جبران خليل جبران

« كم عصر قلبه انكباب أخته على الوشي والتطريز لتستطيع أن تقوم بأودها وأوده . فكل شكة ابرة منهـــا انما كانت تشك في صـــدره وتخزه بوخـــزات الأسى والألم . . »

الفنان الخالد والأديب المبدع

بقلم الاستاذ عادل الغضبان

من الأودية العظيمة فى شمال لبنـــان واد مهيب رائع عميق الغور بعيد القرار يســـمى « قاديشا » أى الوادى المقدس ، قامت على جانبيه جبال عالية ضخمة تنوع أديمها بين الحجر الصلد المسنون الاطـــراف والريود وبين التربة الخصبة المكسوة بالغابات والكروم والخمائل تسقيها العيون المتفجرة من بطون الهضاب أو شلالات الماء المنحـــدرة من رؤوس الجبال الى ذلك الوادى المقدس فى دوى يأخـــذ بالمسامع والالباب ورشاش يتطاير فى الفضاء على أجنحة من ألوان الضياء

وعلى كتف من أكتاف الجبل الناهض فوق عدوة الوادى الغربية تناثر فى ثنايا الاشجار والمراعى عدد من البيــوت المتواضعة وقد ألبست سطوحها بالآجر الاحمر وبدت لعين الرائى فى حلتها القرمزية حبات رمان متناثرة بين زبرجد الشجر وسندس الاعشاب

تلك المجموعة من المنازل تتألف منها قرية صـــغيرة من قرى لبنان الشمالى تدعى «بشرى» وفى تلك القرية الوديعة الغافية عند سفح غابات الأرز الخـــالد والمطلة على الوادى

---

* المراجع : « جبران خليل جبران » لميخائيل نعيمة ، « رسالة المنبر الى الشرق العربى » لفلكس فارس ، « رسائل جبران » تقديم جميل جبر ، « كلمات جبران » جمع أنطونيوس بشير

المقدس تجثم عند أقدامها مواكب السحاب وتتوج فرعها نجوم السماء ولد جبران خليل جبران فى السادس من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، فكان مولده فى قريته المتواضعة ميلاد لؤلؤة فى صدفة لن تلبث يد الزمن حتى تشق عنها الغلاف فيبهر حسنها البصائر والابصار

فى مدارج الجمال

نشأ الصبى جبران فى تلك البقعة الجميلة فوقعت عينه منها على مفاتن من الجمال واخذ من السحر ، تملت نفسه منها وافعم بها ذهنه الصغير وخاطره ، فكانت أول احتكاك بزناد العبقرية الكامن وراء نفس قدر الله لها أن تحلق يوما فى أجواء الفن والنبوغ

وترعرع الصبى جبران فى كنف اسرة لاتتميز بسبب من اسباب العلم والرقى والحضارة ولا تنعم بشىء من متع الغنى والثراء ، فانما هى اسرة فقيرة يتلمس فيها الأب رزقه ورزق عياله من التزام عد الغنم فى مدارج الجبال ومن تفتيت الصخور واستنباتها بعض الخضر والثمار . وكان من الطبيعى أن ينشأ الفتى مضطلعا بشؤون الغنم والماعز على غرار أبيه بل كان لابد له أن يحترف تلك المهنة التى نوى أبوه أن يدربه عليها ليستقل بها يوما ويكسب منها رزقه لولا أن الأقدار تداخلت فى مصير الفتى وأعدته لغير ذلك من المهن والحرف

كان الفقر مخيما على اسرة خليل جبران ، ولكنه الفقر الذى لا يتطاول الى الكرامة والوقار ولا يرقى الى الاستقامة ومكارم الاخلاق ، فلئن التقط رب الأسرة رزقه من شقوق الصخور وطيات الثرى ولمه من تحت اظلاف الأغنام والمعيز فانه كان يقدر نفسه حق قدرها وينزلها المنزلة الكريمة بين الأقارب والجيران ، فمهما ضاقت الدنيا فى وجهه ومهما نأت به الحياة عن مباهجها ومهما تناول هو وأفراد أسرته الطعام

على خوان من الحصير المجدول ، فما بخل على طفله بالعلم يتلقاه فى مدرسة القرية

جبران الصبى

اختلف الصبى جبران الى مدرسة القرية حتى الحادية عشرة من عمره ، واستطاع فى خلال سنوات الحداثة أن يظفر بنصيب ضئيل من اللغتين العربيه والسريانية. وما من شك فى أن اختلافه الى المدرسة وتعلمه القراءة والكتابة وتفتح ذهنه الصغير لاستيعاب العلم كل هذا قد عمل على ابراز المواهب اللدنية فيه فنراه منذ نعومة أظفاره يميل الى الرسم والتصوير ، وانه لحدث عظيم عجيب فى قرية نائية عن العمران لم ينبغ فيها رسام ولا مصور بل لم يعرف بنوها ولا المدرسون فيها هذا الفن الجميل

وبرزت بوادر هذا الفن فى جبران الصغير يوم قدر له أن يكون موضع القصاص والعقاب لانه لم يحسن قراءة مثالية السريانية ، فيغضب قس المدرسة عليه ويحبسه فى قاعة الدرس ويفرض عليه أن يكتب المثالية عشر مرات تأديبا له وعقابا ولشد ما أسقط فى يد القس وأثار فى نفسه سورة من الغضب والرضى معا عندما وقعت عينه على دفتر جبران فرأى فيه أن الطفل لم يكتب القصاص المفروض عليه بل استعاض عنه برسم «شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء وفى أذنه الواحدة قد علق كتاب وفى الاخرى مخلاة»

لم يكن هذا الرسم هو أول ما رسم الصبى جبران ، فقد سبق له أن اعتمد على قطع من الفحم رسم بها على جدران المنزل أشكالا وصورا ثارت لها ثائرة أبيه فانهال على الطفل توبيخا وتقريعا ، غير اننا نستطيع ان نعد رسم الحمار المقدس الشرارة الاولى التى انطلقت من جذوة الفن الكامنة فى جوانحه وضلوعه فدلت على موهبة الله ، ولعل علماء النفس الذين يغوصون فى أعماق النفس البشرية ويصلون كبائر

الرجولة والكهولة بصغائر الطفولة والحداثة يرون فى ذلك الرسم البادرة الاولى التى حفزت جبران فى مستقبل الايام الى معاداة القسيسين وشن الحملات عليهم فى بعض مؤلفاته. ولعل علماء النفس اذا علموا أيضا أن الطفل جبران خرج وهو فى السادسة من عمره الى البرية يوم الجمعة الحزينة ليتعذب مع المسيح على حد قوله ثم عاد منها فى المساء بباقات الازهار والرياحين ليزين بها قبر السيد المسيح • اذا علموا هذا وعرفوا أن فكرة الألم والعذاب كانت مغروسة فى نفس جبران منذ طفولته سهل عليهم الكشف عن أغوار نفسه وتفسير صيحات الألم التى جأر بها طول حياته ..

مغامرة فى سبيل الرزق

ما أضيق الرزق ينقب عنه المرء فى طبق الارض وجلامد الصخور ، وما أشقى العزائم الكبيرة اذا حصرها القدر فى نطاق ضيق من ميادين الحياة ولقد أثر عن اللبنانيين أنهم قوم ذوو عزائم وهمم كبار تقسو الحياة عليهم فلا تلين قناتهم ولايدركهم فى قسوة الحياة ضعف ولا خور ، اثر عنهم كذلك وهم حفدة الفينيقيين حبهم لركوب البحر ومعاقرة الاسفار وعرفوا مع هذا وذاك بنفوس أبية تقدس الحرية ولا تستنيم للذل والهوان • ويشاء القدر أن يضيق الرزق بلبنان فى عهد المترجم له وأن توأد فيه الحرية وتنشر أعلام الظلم والاستبداد ، فهب فريق كبير منهم يركب غارب البحر سعيا وراء الرزق أو نشدانا للحرية

وحذت أسرة جبران حذو الالوف من الأسر فحزمت أمرها وشدت الرحال الى أمريكا وكانت الاسرة تتألف من جبران وأخيه الأكبر وشقيقتيه الصغيرتين وأمهم جميعا .. اما الوالد فبقى فى القرية يدبر شئون رزقه القليل

اختارت الأسرة مدينة « بسطن » فألقت فيها عصا التسيار ، وكان الأمل الباسم يضىء جوانح الأم فقد انقذت

بكرها وكان فى الثامنة عشرة من عمره من عمل يتصل برعى الغنم وحراثة الارض وأنقذت أخاه الصغير جبران، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، من مصير لا يختلف عن هذا المصير ورجت أن يكون لهما ولشقيقتيهما متى بلغتا أشدهما مجال رحب فى العمل الكريم والحياة الهانئة • وقضى الفقر وضيق ذات اليد أن تحل الأسرة فى حى وضيع من أحيـاء بسطن فكان حى الصينيين

جهاد فى سبيل العلم

وينتظم الفتى جبران فى سلك احدى المدارس ويقبل على الارتشاف من مناهل العلم بنهم لا مزيد عليه، فتفتح له اللغة الانجليزية آفاقا جديدة من التفكير لا عهد له بها قبل ذلك الحين • وكان فى خلال الدراسة لا يفتأ يجيل قلمه راسما مصورا فيلقى من مدرس الرسم ضروبا من التشـــجيع والاعجاب ويقدمه الى رسام من كبار الرسامين فيعجب به ويلمح فى هذا الفتى الشرقى عبقرية متوارية لابد أن تنجلى يوما مشرقة وضاءة

ويعود الفتى جبران الى بيروت ليستكمل دراسته العربية ويقضى فى وطنه أربع سنوات ثم يرجـع بعدها الى بسطن وهو فى الربيع العشرين ليبدأ حياة الجهاد والكفاح وليتلقى ضربات الدهر واحدة تلو أخرى

لم تنقطع أمه «كاملة» ولا انقطع «بطرس» أخوه الاكبر عن العمل ليل نهار ليمكنا جبران من أسباب العلم وها هى ذى شقيقته الكبرى «مريانا» وشقيقته الصغرى «سلطانة» تنضمان الى العاملين وتقفان ابرتهما على انتزاع الرزق من أشداق القدر القاسى فى ذلك المزدحم الذى يمشى فيه القوى على هام الضـعفاء • فكم من مرة ناجت الأم ربها قائلة : «سبحانك اللهم أنترك قريتنا الهادئة الوادعة الى هـــذا المصطخب المدوى بعزيف الجن ؟ أنهجر أهلنا وجيراننا وبنى

جلدتنا الى قوم غرباء عنا فى الجنس واللغة والعاطفة ؟ أندع بيتنا الجميل الملآلىء بأشعة الشمس تحف به الغابات والخمائل الى هذا الكهف المظلم المتداعى وهذه الأزقة الملتوية؟ فأى مغنم كان لنا من هجرتنا ؟ فنحن لا نزال فريسة الفقر وشظف العيش ، بل زادنا الزمن شقاء وبؤسا بهذا العمل المتواصل الذى يستنزف نور العين ودم الفؤاد وبهذه الادواء التي بدأت تنشب أظفارها فينا فرحماك ربى رحماك ... »

ثلاث كوارث !

رجع جبران الى بسطن فاذا داء السل قد اختطف شقيقته الصغرى منذ أيام فترنح من هول الفجيعة ، ولكنه تماسك وتمالك نفسه رحمة بأمه واشفاقا عليها ثم ما عتم القدر أن فجعه بعد زمن قصير بأمه وشقيقه الاكبر ذهبا ضحية ذلك الداء الوبيل فتقطعت نفسه حسرات واظلمت الدنيا فى عينيه وهاله أن يجر أثقال الحياة أسير الحزن والفقر، غير أنه سرعان ما ألم بنفسه المتضعضعة وسرعان ما أهابت به عزيمته الجبارة الى الجلاد والكفاح ومواجهة أحداث الزمان بالصبر الجميل والعمل المتواصل . وكان له فى شقيقته « مريانا » الأسوة الحسنة فقد أصبحت عائله الوحيد يتلقى رزقه من ثقب ابرتها الضيق ، فكم عصر قلبه انكبابها على الوشى والتطريز آناء الليل وأطراف النهار لتستطيع أن تقوم بأودها وأوده فكل شكة ابرة منها انما كانت تشك فى صدره وتخزه بوخزات الأسى والألم

فى ميدان الجهاد

كان الشاب جبران قد بدأ ينشر نفثاته فى الصحف العربية بعنوان « دمعة وابتسامة » فتلقى الرضى والاعجاب وتبقى عند حد الرضى والاعجاب لا توفر له ولشقيقته صبابة

من قوت . وكان في أثناء ذلك قد وطن النفس على التماس الرزق من نتاج ريشته فانصب يرسم ليل نهار على أمل أن يعرض رسومه في معرض عام لعله يبيع منها شيئا يدفع بثمنه عنه غائلة الفقر

عز على الاقدار أن ترأف بالشاب النشيط العامل وان تبدله من يأسه أملا ومن عسره يسرا ، فقد أخفق المعرض اخفاقا ذريعا واضمحلت معه الآمال الجسام ومر الزوار بالرسوم والالواح فما استرعت انتباههم ولا وجدوا في فنها ما يحملهم على شرائها وربما كانت مسحة الكآبة المتجلية فيها ورموزها الخفية سببا في اعراض القوم عنها

لا عجب أن يستوحي جبران الألم ويصوره في ألواحه فهل كانت حياته حتى ذلك اليوم الا كأسا من الآلام شربها حتى الثمالة . ان فجيعته بشقيقته الصغرى أولا أوحت اليه برسم لوح جعل عنوانه : « عودة الروح » وفجيعته بأمه وأخيه الأكبر ألهمته برسم لوح سماه « فوارة الألم » واضطرابه في محيط الحياة بلا سند ولا عون وتخبطه في اثباجها تخبط الغريق أوحى اليه بصورة « رقصة الافكار » وقد جلا كل هذه المعاني في فن جديد يعتمد على الرمز ولا يحفل بالبيان والوضوح فكان علة الاخفاق

قد تكون الجدة في صور جبران علة اخفاقه فالناس أعداء لما جهلوا ، وقد تكون العلة اعتماد جبران على موهبته الاصيلة التي لم تصقل بالدرس والتهذيب وكأنما قد رق القدر لحال الفتى بعد اذ شهد عذابه وجهاده الطويل ورآه لم يبع صورة واحدة من صوره ، فدفع اليه في أخريات أيام المعرض بسيدة أمريكية تدعى « ماري هسكل » رئيسة مدرسة « مس هسكل » وصاحبتها وكانت على شيء من الدراية بالفن فأعجبت بفن جبران كل الإعجاب وابتاعت من ألواحه « عودة الروح » و « فوارة الألم » وازداد اعجابها بفنه لما شرح لها من معاني الرموز ودقائقها وحاضرها في الفن وروحه

ومراميه بلهجة فصيحة قوية مستمدة من قوى نفس تعتقد ما تقول وتعرب عنه أجمل اعراب ، فنعمت السيدة بكلامه ورفرفت روحها فى أجواء من الفن والروحانيـــة ودت لو أطالت فيها التدويم والتحليق فكانت زيارة هـذه السيدة للمعرض البسمة الاولى من فجر النجاح ...

جبران فى باريس

توثقت عرى الصداقة بين جبران ومارى هسكل فعرض ألواحه في مدرستها وكان الفن محور الحديث بينهما يفيض جبران فى وصف آياته وخوافيه وتنصت مارى هسكل اليه تعب من ذلك الينبوع المتدفق وتروى منه روحهـا الظامئة حتى اقترحت عليه يوما أن يسافر الى باريس ويتصل بزعماء الفن فى مدينة النور ويأخذ عنهم طرائقهم وخوافى فنونهم ويعود بعد ذلك مصقول الملكة وضاء العبقرية، فتبسم جبران ابتسامة حزينة فأنى له تحقيق تلك الأمنية الغالية وهو فقير معدم لا يكاد يكسب قوت يومه، ففهمت السيدة الامريكية معنى ابتسامتــه وهز الفن والخير أريحيتها فأغرته بالسفر ووعدته بأن تبعث اليه فى مطلع كل شهر بخمسة وسبعين دولارا يستعين بها على مواجهة الحياة بباريس ، فشكر لها يدها البيضاء وأنساه معروفها نكبة جـديدة حلت به وهى احتراق رسومه وألواحه كأنما قدر لهذا الشاب التعس أن يكون دائما أبدا حليف الرزايا والنكبـــات وأن لا يذوق جرعة من هناءة الا ممزوجة بصاب البؤس والشقاء.

وما هى الا أيام قلائل حتى كان جبران أحد سكان الحى اللاتينى بباريس وتلميذا من تلامذة معهد الفنون الجميـلة ينهل من معين الفن ولا يرتوى

قضى جبران بباريس ثلاث سنوات لم ينقطع فى خلالها عن الدرس والتحصيل والوقوف على أسرار الفنون واستيعاب مذاهب الجهابذة الاعلام ممن طار لهم صيت جميل فى أجواء

الفنون ولم يكتف بما فى باريس من متاحف يقضى فيها الساعات الطوال من بياض نهاره فاحصا دارسا متأملا بل أراد أن يلم بروائع العواصم الاوربية فزار روما وبروكسل ولندن ووقف في متاحفها وقفة العابد المتخشع يتملى مما تقع عليه عينه من آيات يلألىء فيها وحى العبقرية فى سماء الادهان والالوان أو فى تجاليد الصم الصلاب من الانصاب والتماثيل

ولم تكن حياة جبران بباريس وقفا على دراسة الفن بل كان للادب فيها نصيب كبير فطالما قضى سواد ليله منكبا على الكتابة والتاليف يسكب فى كؤوس الحروف روحه التى يسكبها مع طلاء صوره وألواحه

بين التصوير والادب

وكان جبران حتى ذلك العهد قد أصدر عدة كتب منها « الموسيقى » و « عرائس المروج » و « الارواح المتمردة » فضلا عن الفصول والمقالات التى كان ينشرها فى مختلف الصحف العربية فى الوطن العربى والمهجر • وطالما رجع الى نفسه وفكر فى شأنه وتساءل أيطلب رزقه من شق القلم أم من لمة المنقاش • لقد زاول الكتابة فما درت عليه بشىء وزاول التصوير فما فتح له أبواب الرزق • انه يهوى التصوير مثلما يهوى الكتابة، أفحتم عليه أن يتخصص بأحد هذين الفنين ويهجر الآخر ؟ ترى أتسعفه القريحة لو زاولهما معا أم تذهب بددا فلا يصيب فيهما الا نجاحا ضئيلا ؟ كانت مثل هذه الاسئلة تراود فكره فلا يستطيع عنها جوابا فكلا الفنين حبيب الى نفسه وكلا الفنين يغريه بمتع الوصال وكلا الفنين أوحى اليه بآثار جميلة فأيهما يهجر وأيهما يؤثر وهو الذى يقول فى رسالة بعث بها الى ابن عمه : « ••• أنا أصرف حياتى بين الكتابة والتصوير

ولذتي في هذين الفنين تفوق كل لذة...» على أن تفكيره في الانقطاع الى أحد الفنين لم يطل فقد صمم أن يخلص للحبيبين وأن يعيش لهما ويتخذهما أداة للتعبير عما يجيش في صدره من عاطفة متقدة ، فان كانت الالوان والاصباغ قد وفرت له أسلوب التعبير فالحبر والورق يهيبان به أيضا الى أن يجعلهما رسول الفكر الى العقول والقلوب . وفي ذلك يقول لابن عمه في نفس الرسالة التي أشرنا اليها : «... ان هذه الشعلة التي تغذي عواطفي تريد أن تتخذ لها ثوبا من الحبر والورق»

بقي جبران زمنا مشغول الفكر مقسم الفؤاد بين التصوير والكتـــابة حتى قدر له أن يزور يوما هو ونفر من زملائه المثال العظيم « رودان » أقبلوا عليه في مرسمه ومنحتـــه يسالونه ويأخذون عنه،فاستفاض الرجل يحدثهم عن الفن وأهله وعن أسراره وعباقرته وتطرق به الحديث الى الكلام عن « وليم بلايك » ذلك المتفنن العظيم والمصور الشاعر الذي اتخذ التصوير والشعر أداة يعرب بهما عن خلجات فكره ونبضات قلبه فكان في كليهما الامام المبرز

خرج جبران من لدن « رودان » والدنيا لا تسعه من شدة الفرح فقد نزل كلام الاستاذ بردا وسلاما على فؤاده فلا حيرة بعد اليوم ولا تردد، فلسوف يظل يكتب ويصور ولسوف يكون له من « وليم بلايك » القدوة الحسنة والمثال الجميل

ولكن سرعان ما شاب هذه الفرحة حزن جديد ، كأنما الفرح أمر محرم على هذا الفتى الا اذا تحلب بعصارة البؤس والألم ، فما أن يشعر بانطلاق أجنحته في عالم الفن مصورا وكاتبا ، حتى يفاجئه القـــدر القاسي بنعي والده فيشرب لوعته وينثني على قلبه الدامي المفجوع بأمه وأخيه وشقيقته الصغرى ، فاذا هو في غشاء من نبال ــ كما يقول المتنبي ــ

واذا نصل الفجيعة بأبيه يتكسر فى فؤاده على النصال السابقات

عزيمة تتغلب على النكبات

قفل جبران عائدا الى بسطن بعد أن تزود بخير زاد من الفنون الاوربية وآدابها ومكث فى هذه المدينة نحوا من اثنى عشر شهرا فريسة البرم والتأفف وضيق الحال ، وكانت الذكريات السود ماثلة لعينيه وفؤاده كلما أجال طرفه فى ذلك المنزل التاعس وذكر أحبابه الذين صرعهم فيه داء السل،فخرجوا منه الى سكنى المقابر والاجداث٠وكان يزيد نفسه ألما وعذابا أنه لا يزال وهو فى الثامنة والعشرين من عمره عالة على شقيقته وعلى المحسنة الامريكية ماري هسكل فيثور فى وجه القدر ثورة دفينة تقطع نياط قلبه يأسا وتعذيبا ويهتف بنفسه قائلا : « شربت كأس البؤس حتى الثمالة وفجعنى الدهر بأعز الناس الى وذقت مرارة الغربة ورضيت بالاحسان أنهله من كف شقيقتى العاملة ويد السيدة الامريكية الخيرة،ونذرت نفسى للفن وبلغت فيه مقاما أغبط عليه وعملت منذ صباى ليل نهار ولما أظفر بفتات من موائد الفوز ، فحتام هذه الحرب أيها الدهر الغليظ الكبد »

على أن المصائب والنكبات ماكانت لتفت في عضده وانما كانت تشحذ عزمه وتزيده قوة وجلدا على الجهاد والكفاح وفى هذا يفتح صدره لابن عمه ويقول له فيإحدي رسائله:

« تأمل قليلا يا نخلة بحياة جبران ترها نوعا من الجهاد والنزاع بل هي شبيهة بسلسلة مصائب آخذة حلقاتها بعضها برقاب البعض ٠ أقول هذا وأنا صابر متجلد ، بل فرح بوجود المصاعب في حياتى لاننى ارجو وأريد أنأتغلب عليها اذ لولا المصاعب لما وجد الجهاد والعمل ولكانت الحياة قفراء باردة مملة »

ومهما أوتى الانسان من قوة الصبر والعزيمة وقوة

النضال والجهاد فقد يضعف أحيانا ازاء النكبات المتوالية ويدفعه الاخفاق فى الحياة الى تلمس مواضع علل الاخفاق الذى منى به فى صدر حياته فبدت له فى قسوة الغربة عن وطنه الارضي ووطنه الروحانى. وأعرب عن تلك الغربة فى احدى كلماته فقال :

« أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير انها تجعلنى أفكر أبدا بوطن سحرى لا أعرفه وتملأ أحلامي بأشباح ارض قصية ما رأتها عينى

أنا غريب عن نفسى فاذا ما سمعت لسانى متكلما تستغرب أذنى صوتى

أنا غريب عن جسدي وكلما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسى وأجد فى عينى ما لا تكنه أعماقي

أنا غريب وليس فى الوجود من يعرف لغة نفسى

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ولهذا أنا غريب وسابقى غريبا حتى تخطفنى المنـــايا وتحملنى الى وطنى »

رأى جبران أن مدينة بسطن تقسو عليه بذكرياتها الاليمة وتضيق في وجهه مجال المعاش فهجرها الى نيويورك لعله يجد فى مجاليها الفساح تحقيق ما يصبو اليه من الآمال

كان الرجل صاحب آمال وأحلام وهو القائل في احــدى كلماته : « أفضل أن أكون أحقر الناس ولى أحلام أرغب فى تحقيقها من أن أكون أعظمهم ولكن بدون أحلام ولا رغبة »

ضرب فى نيويورك مع الضاربين فى مناكب الرزق وعاش فيها نحوا من تسعة عشر عاما يقدس العمـــل ولا شيء غير العمل . وتلك خلة أثرت عن الامريكيين فالوقت عندهم أثمن شيء في الحياة كما أن العمل هو أقدس مقدســاتها ولقيت تلك الخلة من فؤاد جبران هوى حبيبا فاقبل على العمـــل لا تأخذه فيه ونية ولا هوادة

وفلسفة جبران فى حب العمل وتقديسه بارزة فى متنوع

آثاره فلنجتزىء منها بأثرين اثنين ، أولهما فقرة من رسالة كتبها الى ابن عمه بلبنان يقول فيها :

« أنا أحب العمل يا نخلة ولا أدع دقيقة من وقتي تمر بلا عمل • أما الايام التي تكون فيهــا نفسي راقدة وفكرتي خاملة فهي أمر عندي من العلقم وأشد قساوة من نياب الذئاب»

وثانيهما قوله عن العمل :

« ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة فاذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرا ملولا فالاجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة لانك اذا خبزت خبزا وأنت لا تجد لك لذة في عملك فانما أنت تخبز خبزا علقما لا يشبع سوى نصف مجاعة الانسان وان أنت أنشــدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشدا فانما أنت تصم آذان الناس عن الاصغاء الى أناشيد الليل وأناشيد النهار »

ذلك رأى من يحب العمل ويقدسه فاذا حالت دونه يوما عقبة من العقبات أو علة من العلل ملأ الاسف صدره وصاح مثل هذه الصيحة التي بثها جبران صديقه الحميم ميخائيل نعيمة في احدى رسائله اليه قائلا :

« أنا في هــذه الايام بين ألف عمل وعمل مثـــل نحلة مريضة في حديقة أزهار • ما أكثر العسل وما أجمل أشعة الشمس على الازهار • ولكن النحلة مريضة مشوشة • صل من أجلي واكتسب أجرى ••• »

انتصار ونجاح

عمل جبران وكافح وطالع الناس بأفكاره الجديدة مبثوثة في كتبه ومقالاته وبفنه الجديد متألقا في ألواح صوره حتى قهر الزمن وفرض نفسه على عصره وجيله فطارت له شهرة في التصوير فأقبلت عليه الدنيا وذاع له صيت في الفلسفة والادب فلفت اليه الانظار والقلوب

وكان صاحب رسالة بثها الناس بصوره فاستوعبتها الخاصة من أهل الشرق والغرب على السواء فلغة التصوير لغة عالمية لا تستعصى على فهم الحاذقين من عشاق هذا الفن وعارفيه مهما اختلفوا مواطن وبلادا ، وقام كذلك يبث الناس رسالته فى أدب جديد أطلع على الشرق العربى فجرا جديدا زاهر الاشعة واللآلاء وكان قوام ذلك الادب الجديد الغوص فى اعماق النفس وتطويع اللفظ للفكرة المثمرة والعاطفة المتقدة ، ثم شاء جبران أن يكون رسول الشرق الى الغرب يحمل اليه كنوز الحكمة الشرقية وذخائر الفكر العربى فكتب باللغة الانجليزية عدة كتب منها «المجنون» و «السابق» و « النبى » و « رمل وزبد » و « آلهة الارض » فغزا نفوس اهل الغرب وحملهم على أن يتطلعوا الى الشرق ويكبروا شأن عباقرته. وكثيرا ما زين جبران كتبه برسومه فاجتمع فيها قلم الاديب وريشة المصور فدرت عليه تلك الكتب مالا وافرا استطاع به وبما كان يكسبه من ألواح صوره أن يطأ بقدميه الفقر وينعم هو وشقيقته بحياة هانئة ميسورة وتصل ثروته الى نحو من مئة الف دولار وهى ثروة ما حلم بها فى عهده ولا بعد عهده كاتب ولا مصور من كتاب هذا الشرق او مصوريه وانها لثمرة الجهد والعمل وجزاء المثابرة

ذلك الصبى القروى المولود فى قرية متواضعة من قرى لبنان يصبح بجده واجتهاده وعمله المتواصل وصبره على مقارعة الاحداث علما من اعلام الفن والادب يلهج بذكره. المشرق والمغرب وينزلانه فى الذروة من مساحب النجوم

وليست هذه العجالة دراسة لفنه وأدبه حتى نمضى فيهما باحثين متقصين معللين وانما هى ضربة منقاش تحاول أن تصور لنا العصامية كيف تكون والعمل كيف يقدس والعزيمة الجبارة كيف تأكل نيرانها وقود المصاعب والمصائب فى هذه الحياة

واذا نحن تجاوزنا عن الدراسة المستفيضة نعرض بها

أدب جبران وفنه في عالمي الادب والتصوير ، فلا اقل من أن نحلي هذه الترجمة ببعض أقوال العظماء فيه

قال الكاتب الامريكي الكبير « برزباين » وهو من هو :
« لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح الى الارض مرة أخرى لأيقنت أنه عاد بشخص جبران خليل جبران »

وقال الزعيم الديني « فرنكل » عن كتاب « النبي » :
« أعترف أنه لم يسبق لى قط أن تحركت نفسى من أعماقها كما تحركت بعد أن تلوت كتاب النبي مرات كثيرة »

ولئن كان للنحات الفرنسي العظيم « رودان » فضل القضاء على تردد جبران يوم حاضره عن « وليم بلايك » انه نظر بعين الفاحص الخبير الى هذا العبقرى الشرقى فقال عنه :
« يجب أن يتوقع العالم شيئا كبيرا من جبران شاعر لبنان ونابغته فهو وليم بلايك القرن العشرين »

ومع هذا كله فجبران فيما رسم ونثر ونظم وفيما جاء به من بدائع وروائع لم يكن راضيا عن نفسه لانه رأى أعماله دون الكمال الذي سعت اليه نفسه الكبيرة ، وهكذا العظماء يأتون بالنفائس بل بالمعجزات ويرونها مع ذلك أبعد ماتكون عن الكمال الذى ينشدونه وتتطلع اليه نفوسهم . وجبران واحد من هؤلاء العظماء المغرمين بالمثال الأعلى فقد عرض لآثار قلمه وريشته فى عددها وروعتها فوجدها ضئيلة صغيرة لا تصور الشعلة المقدسة التى تضطرم بها جوانحه وفى هذا يقول فى رسالة بعث بها الى الآنسة مى :

« أنا يا مى بركان صغير سدت فوهته، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تماما ... لا تقولى لى : أنشدت كثيرا ، وما أنشدته كان حسنا ، لا تذكرى أعمالى الماضية لان ذكرها يؤلمنى لان تفاهتها تحول دمى الى نار محرقة ... لقد ولدت وعشت لأضع كتابا ـ كتابا واحدا صغيرا ـ لا أكثر ولا أقل ، قد ولدت وعشت وتألمت لأقول كلمة واحدة مجنحة ، ولكننى لم أصبر ، لم أبق صامتا حتى

تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي • لم أفعل ذلك بل كنت ثرثارا فيا للأسف ويا للخجل وبقيت ثرثارا حتى أنهكت الثرثرة قواي • وعندما صرت قادرا على لفظ أول حرف من كلمتي وجدتني ملقى على ظهري وفي فمي حجر صلد ...»

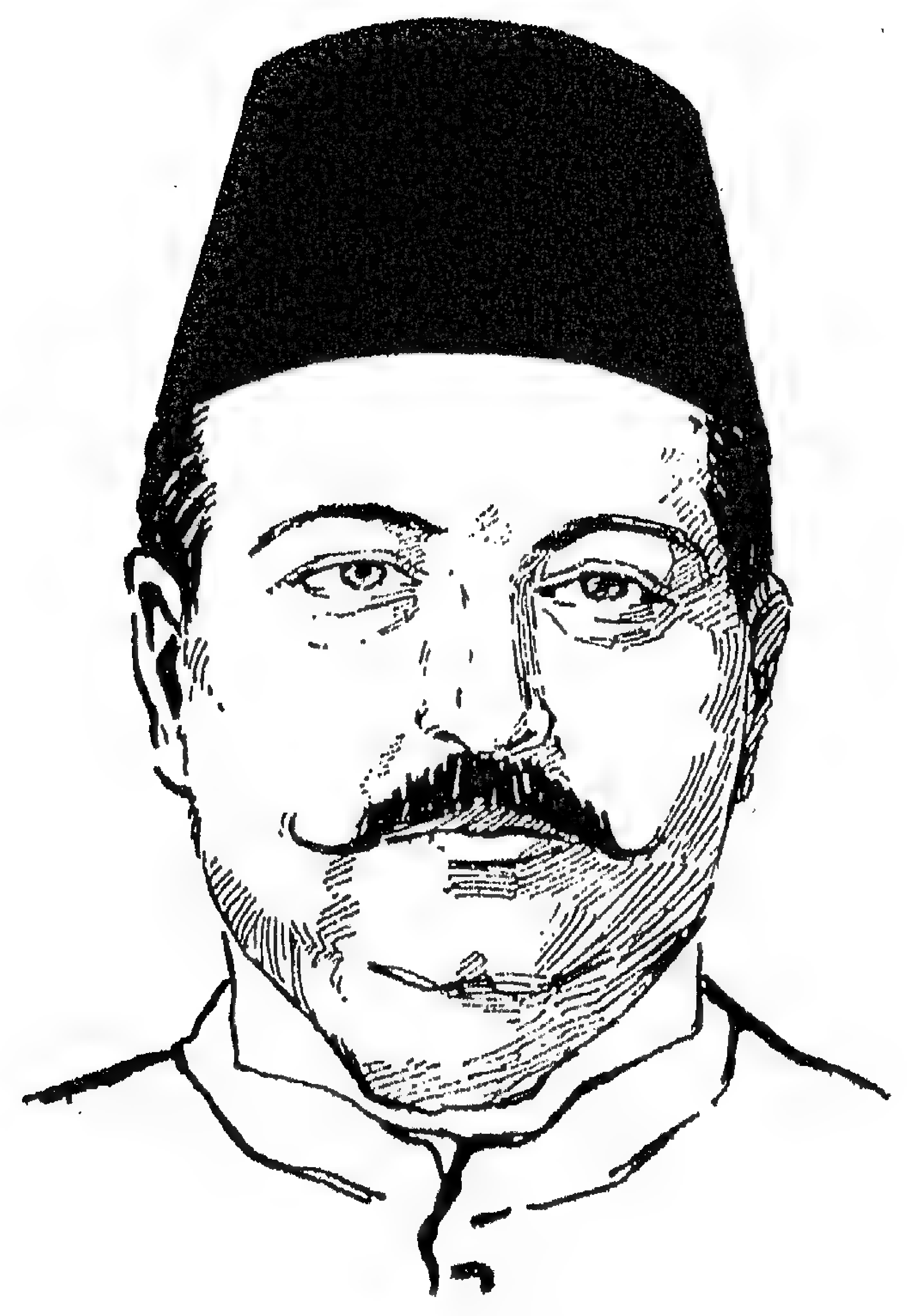
ذاك تقدير نفسه الكبيرة الظامئة الى ينـابيع الكمال فى الفردوس السرمدى..على أن للعبقرية تقديرا اخر كله رضى وانصاف واعجاب فقد كتبته في سفر الخلود وقالت فيه ان جبران قال كلمته وأدى الرسالة ...

وفى ليل اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٩٣١ استرد الله وديعته فى مستشفى القديس منصور بنيويورك وسكنت حركة النسر بعد طول التدويم والتحليق وعادوا به بعد أشهر قلائل الى لبنان الذى طالما حن اليه فاستقبلت بيروت جثمانه استقبالا ما عرفه الغزاة الفاتحون وسارت وراء نعشه الى مسقط رأسه أرتال من السيارات سدت الطرق والشعاب بين العاصمة وبشرى ، وأودع دير مار سركيس المطل على الوادى المقدس ...

واحتفل القوم بعودة النسر احتفالا امتزجت فيه عبرات الحزن ودموع الفخر ، فمن يزر تلك البقعة اليوم يهده أهلها الى متحف جبران وقد زخر بآثاره الفنية والادوات التى كان يستعملها فى الكتابة والتصوير الى المنضدة التى كان يجلس اليها والمقعد الذى يقيل فيه ثم يسيرون به الى ضريح جبران فى خشوع ووقار ولقد حملهم الزهو والخيلاء الى أن يكتبوا على الضريح يوم أقاموه : « هنا يرقد نبينا جبران » فعدلوا بعد ذلك عن الغلو فى الفخر الى الغلو فى المحبـة ونقشوا على الضريح :

« هنا يرقد بيننا جبران ١٩٣١ »

سليم تقلا



سليم تقلا

الصحافى العصامى الذى عانى المتاعب والاهوال وواجه الكساد والاضطهاد بعزيمة صادقة وايمان ، حتى تحقق ما كان ينشده من نجاح وبلغ ما كان يسعى اليه من اهداف

الصحافى العصامى

هو عصامى فى الصحافة المصرية ، اسس جريدة الاهرام فى وقت لا يعرف سواد الجمهور من الجرائد اليومية الا اسمها ، ولا تسمح الحكومة بالاذن بنشرها الا بعد تردد طويل ، فمكث عاما كاملا يسعى فى الحصول على امتياز الجريدة حتى سمحت الحكومة المصرية بامتياز جريدة الاهرام سنة ١٨٧٥

وليس جهاده فى ذلك الحين للحصول على امتياز الاهرام هو الجانب الوحيد من متاعبه وعصاميته ، بل لقد لاقى فى سبيل الوصول الى غايته من انشاء جريدة ناجحة صعوبات جمة

ولقد عانى الكساد والاضطهاد والأزمات المالية ، وسهر الليالى الطوال ، بل تحمل السنوات العجاف التى لا تدر ربحا فى الاعمال الصحافية ، ولا تثمر غير الخسائر المادية ، ولم يكن عنده من الوسائل ما يخفف عنه من تلك الصعاب ، ولم يكن له من معين غير شقيقه بشارة تقلا الذى كان يتولى أعمالها الادارية . ومع ذلك فقد كان سليم تقلا يعمل أعمال عدد من الموظفين والعمال فى الشؤون التحريرية والادارية

ولقد هوى الصحافة منذ نزل مصر ، ولم يكن من قبل صحافيا ، بل كان مدرسا رقيق الحال ، تعلم فى مدارس لبنان ، وكان لا يجد نفقات التعليم ، فأخذ يستعين عليها بما كان يقوم به من أعمال فى ساعات الفراغ

فى كفر شيما

ولد سليم تقلا فى اواسط سنة ١٨٤٩ بقرية فى سفح لبنان تدعى « كفر شيما » نبغ فيهـا جماعة من العلمـاء والادباء فى الشرق العربي ، منهم المرحوم الشـيخ ناصيف اليـازجى ، والشـيخ ابراهيم اليازجي والشـيخ خليـل اليازجى ، والمرحوم أمين شميل وشقيقه الدكتور شبلى شميل وغيرهم من الأدباء والعلماء والأطباء والشعراء

وقد تلقى سليم تقلا مبـادىء العلوم فى مدرسـة تلك القرية ، ثم انتقل منها الى مدرسة عبية بلبنان ، ولـكن هذه المدرسة لم تكن تقبل فى صفوفها من كان دون الخامسة عشرة من عمره ، فاستنجـد والده الدكتـور فان ديك ، فانجده وتوسط فى ادخاله ، فقبلته المدرسة وتجاوزت عن صغر سنه لما توسمته من نجابته ، وحسن استعداده ، فأقام فى هذه المدرسة يتلقى علومهـا ومعارفها ، واعجب أساتذته بتوقد ذهنه ، وجمال اخلاقه ، وحسن سـيرته وعظم نشاطه فى الاهتمام بدروسه ، ومنافسته لأقرانه

ولقد بقى مثابرا فى مدرسة عبية على اجتهاده ونشاطه حتى وقعت ثورة سنة ١٨٦٠ فى ربوع الشام ضد استبداد الأتراك بالحكم واضطهادهم للأحرار ، فاتصل لهيبها بعبية وما جاورها ، فبرح سليم المدرسة ، وهاجر الى بيروت ، ودخل « المدرسة الوطنية » وسنه وقتئذ أحد عشر عاما

وكانت المدرسـة الوطنيـة قد انشأها المرحوم بطرس البستانى الأديب اللبنانى الكبير ، فعكف فيها على الدرس والتعليم حتى أتم دروسه ، وكان اثناء وجوده بها يشتغل فى ساعات فراغه ليستعين بذلك على نفقات التعليم

مدرس فى مدرسة

وبعد ان حصل على اجازة هذه المدرسة عين استاذا فى

المدرسة البطريركية ببيروت . وقد كان فى هـذه المدرسة يعلم ما أتقنه ، ويتقن ما فاته من العلوم خصوصـا العلوم العربية ، التى كان يتلقاها على الشيخ ناصيف اليازجى ، الذى كان من أساتذة تلك المدرسة . ولقد كان يعتمد عليه الشيخ ناصيف كثيراً فى شرح بعض الدروس على طلبتـه دلالة على ثقته به ، واعجابا بذكائه وسمو مداركه

ولم تمض مدة طويلة على تدريسه فى المدرسة البطريركية حتى صار وكيل أعمالها ، ومدير شؤونها . وقد ألف فى أثناء ذلك كتابا فى النحو والصرف على أسلوب مبتكر طبع ونشر . وكان الاعتماد عليـه فيما بعد فى تدريس هذين العلمين فى المدرسة البطريركية

وكان سليم تقلا طموحا ميالا الى الرقى والتقدم ، فلما وجد نفسه قد وصل الى غايته فى مهنة التدريس ، تاقت نفسـه الى الاشتغال بالكتابة والأدب ، ورغب فى انشاء صحيفة ادبية وسياسية لتروى ميوله الخاصة

الاهرام الاسبوعية

وكانت مصر فى أواخر القرن التاسع عشر قد نشطت فيها حركة أدبية ، وانشئت بها عدة مجلات محدودة كان البعض منها حكوميا ، والبعض الآخر تشجعه الحكومة ، فلاح له أن يرحل الى مصر ، فنزلها سنة ١٨٧٤ واتصل برجال حكومتها وأهل الفضل والأدب والعلم فيها . واعتزم أن ينشىء جريدة عربية . وكانت الجرائد كما قلنا لا يعرف سواد الجمهور منها الا اسمهـا ، وليست من المشروعات المربحة ، ولكنه على الرغم من ذلك اخذ يسعى ويتردد بين مصر والاسكندرية سنة كاملة للحصول على امتياز جريدة حتى سمحت له الحكومة بامتياز جريدة الاهرام ، فأصدرها أسبوعية بمدينة الاسكندرية ، ولم يستطع اصدارها يومية الا بعد سنوات !

اصدر سليم تقلا الاهرام اسبوعية ، ولم يكن لديه من معدات التحرير والتحبير والنشر والطبع الا ما فطر عليه من الثبات وحسن التصرف والاستقامة ، وما اكتسبه من العلم والاختبار مع شيء يسير من المعدات المادية ، فقاسى فى سبيل نشر الاهرام مشقات كبيرة ، ولكنه ذلل كل تلك الصعاب بالصبر والمثابرة ، فضلا عما كان يلاقيه أصحاب الجرائد فى ذلك الحين من استهجان الناس للصحافة وقلة عنايتهم بالقراءة والاقبال على تثقيف أنفسهم وذويهم ، واهمالهم لتتبع الحوادث وما ينبغى ان يعرفه الانسان من تاريخ حياته اليومية ، وما يجب عليه من تثقيف مداركه ومسايرته للتطور الحديث. ولقد قال سليم تقلا مرة لأحد اصدقائه :

« انشأت الاهرام وانا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب ، فكنت أقضى النهار والليل عاملا بدنا وعقلا ، وكنت احررها واديرها ، والاحظ عمالها ، واتولى معظم اعمالها مما يقوم به الآن عشرة من الموظفين »

الاهرام اليومية

بقيت جريدة الاهرام فى الاسكندرية تصدر اسبوعية ، ثم رأى مؤسسها ان يصدر جريدة يومية سماها صدى الاهرام ، فلاقى من المتاعب فى اصدار هذه الجريدة اضعاف ما لاقى فى اصدار جريدة الاهرام . ومما يحكى عنه أنه لما اصدر صدى الاهرام اليومية طبع من عددها الاول اربعة آلاف نسخة ، وزعها على نخبة من اهل القطر واعيانه وشخصياته كجارى العادة فى الجرائد فى ذلك الحين عند اول صدورها ، فرجعت اليه الا عشرات منها . على أن ذلك لم يثن من عزمه ، بل واظب على اصدارها ، حتى وقع الخلاف بينه وبين الخديو اسماعيل ، واستاء هذا الخديو من اخبار نشرها عن سياسته ، فامر بوقف جريدته وسجنه ومصادرة مطبعته ، ثم شفع له بعض ذوى النفوذ عند الخديو ، فعفى

عنه وعن صحيفتيه ، فعاود اصدار صحيفة ثالثة سماها « الوقت » . ولكنها لم تعش طويلا ، فاكتفى بالاهرام اليومية

وما زال سليم تقلا يصدر جريدته الاهرام بالاسكندرية حتى كانت الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ فاضطر الى المهاجرة الى سورية كما فعل غيره من النزلاء غير المصريين . فلما احرقت الاسكندرية أصابت النيران مطبعة الاهرام بالمنشية فأحرقت كثيرا من أعماله وكتاباته ومؤلفاته . ولما انقشعت غياهب الثورة عاد الى الاسكندرية وأعاد نشر الاهرام

وفى سنة ١٨٩١ سافر الى فرنسا فزار عاصمتها ، وكثيرا من مدنها وكان يكاتب الاهرام منها ، وفى السنة التالية سنة ١٨٩٢ أصيب بألم فى القلب ، فأشار عليه الأطباء بالسفر الى لبنان لتغيير الهواء فسافر إليه ، ولكنه لم يلبث أن توفى ولم يخلف ذرية

الصحافى الأديب

وكان رحمه الله كاتبا مخلصا واديبا مسالما ، وديع النفس ، كريم الاخلاق . وقد استكتب فى جريدته كبار العلماء والادباء المشهورين من امثال الشيخ محمد عبده وغيره

وكان رائع التنظيم لصحيفته حتى امتازت على الصحف اليومية الاخرى بحسن تنظيمها وعنايتها بالبرقيات الخارجية ، والاخبار الداخلية ، وكان ينتخب البرقيات الهامة ، فيجعل لها الصدارة

ولما أصدر الاهرام يومية سنة ١٨٨١ اذاع سليم تقلا مبادئها وخطتها وهي تتلخص فى انه سيرفع منها ألقاب التمجيد والتقريظ مثل : « الوطني النزيه » ، و « الهمام النبيه » و « الشريف الوجيه » وما الى ذلك من الالفاظ . وسيكتفى بالرتب الرسمية

وقد قرر أن يلحق بذيل الصحيفة ترجمة طيبة لناحية

من نواحى الأدب الرفيع فى التراجم والقصص ، ثم مضى يعيد نشر هذا فى كتب تصدر عن الاهرام ، وتباع للناس ، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها فى اذاعة لون من الوان الثقافة العامة كانت مصر وسائر بلاد الشرق فى أشد الحاجة اليه . وخصص يوما من ايام الاهرام لمراجعة النشاط الاقتصادى فى مصر ومعالجة الامور المالية معالجة قدمت محررها فى هذه الناحية على جميع محررى عصره . وأفرد فى الاهرام جزءا لنشر انباء الشرق الأدنى وشرح مختلف نشاطه العلمى والأدبى والسياسى

ولم يكن سليم تقلا صحافيا او سياسيا فحسب ، بل اديبا وشاعرا ايضا . وهو القائل فى الأساطيل الحربية :

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحة
والغمر منها كسهل ، وهى كالقلل

دانت لهيبتها الأنواء خاضعة
فحيثما قصدت حلت بلا مهل

وله فى الدعابة شعر لطيف ، قال فى التدخين :

عذل التدخين قوم قد رأوا
بيدى سيكارة أعشقها

قال دعها ، فهى سم ناقع
قلت لا والله لا اعتقها

ان تكن سما فانى محرق
شرها بالنار اذ أحرقها

وعليه فاعذلوا او فاعذروا
فعلى الحالين لا اطلقها

(ط ١٠)

حافظ ابراهیم



حافظ ابراهيم

شاء القدر ان يبدأ « شاعر النيل » مواجهة الاحداث ومقارعة الخطوب وهو لم يتجاوز العام الرابع من عمره ، فقد ذاق فى طفولته وشبابه ما ذاق من بؤس وصعوبات وتشريد

شاعر النيل

نشأ حافظ ابراهيم فى بيئة شعبية يتيما فقيرا ، وذاق فى طفولته وشبابه ما ذاق من بؤس وصعوبات وتشريد

كان ابوه ابراهيم فهمى أحد المهندسين الموظفين بالحكومة المصرية ، وهو مصرى صميم ، ذو دخل محدود . وكانت امه السيدة هانم احمد البورصه لى من أسرة تركية تسكن المغربلين ، وهو حى شعبى بالقـــاهرة . وتعرف بأسرة الصروان ، اذ كان والده أمين الصرة فى الحج ، فلقب بالصروان أى (القيم على الصرة) . ولقبت الأسرة به

ومع أن الدم التركى كان يجرى فى عروق حافظ ابراهيم كالدم المصرى الا انه لم يمدح الأتراك كما مدح مصر والعرب. وكان أبوه وقت ولادته مشرفا على بناء قناطر ديروط ، وقد انتقل اليها هو وزوجته . وهناك سفينة راسية على شاطىء النيل فى أقصى الصعيد ولد شاعر النيل ، وتفتحت عينـــاه أول ما تفتحت على صفحـــاته الخمرية الجارية . واستنشق النســـمات الاولى من نســـماته العاطرة التى تتهادى على ضفتيه ، وتمر بين مروجه الخضراء ، ورياضة المخضلة الحسناء

طفولة بائسة

وشاء القدر ان يبدأ حافظ ابراهيم مواجهة الأحداث ، ومقارعة الخطوب ، وهو لم يجاوز العام الرابع من عمره ، فقد توفى أبوه فى ديروط ، ولم يخلف له مالا ولا جاها ، ولم

يترك له الا اليتم والعدم المريرين وهو فى هذه السن الغضة ، فاضطرت امه الى الانتقال به الى القاهرة ، حيث التجأت الى أخيها « محمد نيازى » وعاشت هى وولدها اليتيم المسكين فى كنفه . ولا شك فى أن مؤونتهما كانت واجبا اثقله أداؤه ، اذ كان هو الآخر موظفا صغيرا ، يعمل مهندسا للتنظيم

وكان على خاله هذا ان يعلمه حين بلغ السن التى تؤهله لبدء الدراسة ، فلم يسعه الا أن الحقه بمكتب لتعليم القراءة والكتابة وشيء من العربية والحساب كان فى حي القلعة بالقاهرة حينذاك ، ويعرف باسم « المدرسة الخيرية »

ومن هذا المكتب ، أو « الكتاب » الاولى المتواضع البسيط ، انتقل حافظ الى «مدرسة القربية الابتدائية» . وكانت فى ذلك الحين تعلم تلاميذها ما يتعلمه تلاميذ « الكتاتيب » ولكن بطريقة أقرب الى النظام الحديث فى التعليم

ثم انتقل حافظ الى مدرسة « المبتديان » . كما التحق بعدها « بالمدرسة الخديوية » . ولكنه لم يلبث فى هذه المدرسة الاخيرة الا فترة قصيرة ، ثم تركها وغادر القاهرة كلها الى مدينة طنطا ، ليعيش هناك مع اسرة خاله الذى نقل اليها فى ذلك الحين

وفى خلال هذه السنين العشر أو نحوها ، التى قضاها حافظ متنقلا بين « الكتاتيب » والمدارس الابتدائية فى القاهرة ، تأصلت الشعبية فى نفسه ، وامتلأ ذهنه وقلبه بمختلف الصور الصادقة الناطقة عن الحياة القاتمة لطبقات الشعب الكادحة الفقيرة . ولا شك فى أن تجاربه الخاصة فى هذه السن المبكرة كان لها أكبر الأثر فى حياته ، وكانت هى المنبع الغزير لما ردده فى شعره من شكوى وعتاب ورثاء لليتامى والمساكين

ولعله كان يصف طفولته البائسة المشردة ويتمه الأليم فى المحاورة التى جرت بينه وبين صديقه وزميله المرحوم خليل مطران شاعر القطرين فى حفل أقامته جمعية رعاية الأطفال بالأوبرا سنة ١٩١٣ ، اذ قال فيها :

هــــذا صبى هائم تحت الظلام هيام حائر
ابلى الشـقاء جديده وتقلمت منـــه الأظافر
فانظـــر الى أسـماله لم يبق منهـا ما يظاهر
هو لا يريد فراقهــا خوف القوارس والهواجر
لـكنهـا قد فارقتـــه فراق معـــذور وعاذر

ولعل تلك الصورة لنفســه فى ذلك الحين كانت نصب عينيه حين نظم قصيدته التى أنشدها فى حفلة الجمعيـة الخيرية سنة ١٩١٦ ، وفيها يقول على لسان يتيم بائس ممن كفلتهم هذه الجمعية :

قضيت عهـد حداثتى ما بين ذل واغتـــراب
لم يغن عنى بين مشـرقهـا ومغربها اضطراب
صفرت يدى فخوى لهـا راسى وجوفى والوطـاب
وأنا ابن عشر ليس فى طوقى مكافحـة الصعاب

بل أكبر الظن أن حياة حافظ التلميذ اليتيم الصغير ، وما اشتملت عليه من آلام وآمال فى البيت والمدرسة ، كانت فيها مشابه من حياة الطفلة التى وصفها فى احدى قصائده قائلا على لسانها :

اخشـــى مربيتى اذا طلع النهـار وأفزع
واظل بين صـواحبى لعقـــابها أتوقع
لا الدمع يشفع لى ولا طول التضرع ينفـع
وأخاف والدتى اذا جن الظـلام وأجزع
وابيت ارتقب الجـزا ء واعيني لا تهجـع
ما ضرنى لو كنت أسـتمع الـكلام وأخضع

ما ضرنى لو صنت اثـــوابى فلا تتقطـــع
وحفظت اوراقى بمحـــفظتى فلا تتـــوزع

ذلك لأن توقع العقاب فى المدرسة يبدو طبيعيا من تلميذ مثل حافظ ، عرف بين أترابه « بالشقاوة » والانصراف الى المطالعات الادبية التى تشبع ميله الخاص ، كما ان توقعه العقاب فى البيت على تقطيع ثيـابه وتوزيع أوراقه ليس بالشىء الغريب او المستبعد فى الوقت الذى كان يعيش فيه هو وامه ضيفين على خاله الموظف الصغير !

ومما يؤيد هذا ، انه هو نفسه قد شعر بثقل مؤونته على خاله ، بعد انتقالهما الى طنطا ، وتركه الحياة الدراسية الى غير عمل يتكسب منه ، مكتفيا بالمطالعات الادبيـة ، والاجتماع بهواة الأدب من شبان المدينـة مثـل الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار الذى كان طالبا وقتئذ بالمعهد الأحمـدى هنـاك ، للمذاكرة فى نوادر الأدب ، والمطارحة للشعر . وقد سجل حافظ شعوره هذا فى بيتين خاطب فيهما خاله فقال :

ثقلت عليـك مؤونتى انى أراها واهيـــــه
فافرح ، فانى ذاهب متوجه فى داهـيـــه

كرامة نفسه

كان حافظ فى السادسة عشرة من عمره حين ابت عليه نفسه ان يعيش عالة على خاله ، وكان عليه ان يجد لنفسه عملا يعيش منه بكده وجهده ، ولما كان لم يحصـل على شهادة دراسـية تؤهله للالتحاق بعمل حكومى ، وكانت مطالعاته الكثيرة ومحفوظاته من جيـد الشعر ومختـاره ، لا تغنى غناء الشهادات فى هذا الشأن ، فقد اتجه الى ميدان الاعمال الحرة ، والتحق بمكتب لأحد المحامين فى طنطا هو الشيخ محمـد الشيمى ، على امل أن يصبح محاميا ناجحا

مثله ، ولا سيما انه كان يحس فى نفسه أنه على حظ عظيم من طلاقة اللسان ، والخبرة بفنون الكلام . وكانت المحاماة فى ذلك العهد مهنة مفتحة الأبواب لكل من أراد ممارستها . وقد لقى فيها حافظ أول الامر حظا مبشرا بالنجاح ، وترافع فى قضايا كثيرة بالمحاكم الجزئية القريبة من عاصمة الغربية فظفر بالحكم لصالح موكليه ، أو موكلى المحامى الذى عمل فى مكتبه . غير انه ما لبث قليلا حتى اختلف معه ، فترك مكتبه الى مكتب محام آخر فى طنطا هو المرحوم محمد أبو شادى ، بعد أن ترك له بيتين ضمنهما « استقالته المسببة » من العمل فى مكتبه هما :

جراب حظى قد أفرغته طمعا
بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا
فعاد لى وهو مملوء ، فقلت له :
مما .. فقال من الحسرات واحربا

ولقد وجد حافظ فى صاحبه الجديد أديبا يقدره حق قدره ، فيطارحه بالشعر ، ويناده بالأدب ، ولكن نفسه الشاعرية الملول سرعان ما سولت له مغادرة هذا المكتب أيضا ، وان لم ينس ما لقيه عند صاحبه من مودة واكرام ، فقال فى الاحتفال بذكرى وفاته سنة ١٩٢٥ :

عجبت ان جعلوا يوما لذكراكا
كأننا قد نسينا يوم منعاكا

اذا سلت يا أبا شادى مطوقة
ذكر الهديل فثق أنا سلوناكا

قد عشت فينا نميرا طاب مورده
أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا

فما كأولاك فى بر وفى كرم
أولى كريم ، ولا عقبى كعقباكا

الضابط الشاعر

وانتقل حافظ بعد ذلك الى مكتب محام آخر هو المرحوم عبد الكريم فهيم ، غير أنه سرعان ما ترك العمل فى المحاماة كلها ، ثم عاد للقاهرة حيث التحق بالمدرسة الحربية ، وواصل الدراسة فى هذه المرة الى أن تخرج فيها برتبة الملازم سنة ١٨٩١ وهو يومئذ فى حوالى العشرين من عمره

عين حافظ بعد تخرجه فى المدرسة الحربية ضابطا بالجيش ، فامضى فيه نحو ثلاث سنوات ، ثم نقل الى وزارة الداخلية وعين ملاحظا للبوليس فى مركز بنى سويف ثم فى مركز الابراهيمية . ولم تكن مدرسة البوليس قد أنشئت بعد فكان ضباط البوليس يؤخذون من بين المتخرجين فى المدرسة الحربية . واعيد بعد ذلك الى وزارة الحربية

والى هنا ، كان حافظ الضابط الشاعر ، ما زال يداعبه الأمل فى أن يبلغ ما بلغه الضابط الشاعر الذى اتخذه مثلا وقدوة ، وهو المرحوم محمود سامى البارودى . وكان حافظ على حق فى هذا الأمل ، فهو فى ميدان القلم والشعر كان قد صار شيئا مذكورا فى الأوساط الأدبيــة ، وهو فى ميدان السيف والحرب كان قد بلغ رتبة الملازم الاول !

على أن صرح آماله بدأ ينهــار فجأة ، اذ احيــل الى الاستيداع منــذ اعادته الى وزارة الحربية ، فعاوده بؤسه القديم منذ ذلك الحين ، لأن مرتبــه فى الاستيداع لم يكن يزيد على اربعة جنيهات فى الشهر !

سفره الى السودان

ولبث كذلك خمسة اشهر او نحوها ، ثم كللت مساعيه

فى سبيل الخروج من أزمته النفسية والمادية بالنجاح ، فعين بادارة التعيينات ، واضطر خلال عمله فيها الى السفر الى السودان فى الحملة الاخيرة بقيادة لورد كتشنر . وهناك قضى فى السودان الشرقى حوالى سنتين ، عانى فيهما الأمرين . وكتب خلالهما الى صديقه المرحوم محمد بيرم يصف حاله ويشكو مآله ، قال :

نزحت عن الديار أروم رزقى
واضرب فى المهـــامه والتخوم
وما غادرت فى السودان قفـرا
ولم أصـــبغ بتربتـــه أديمى
وها انا بين انياب المنـــــايا
وتحت براثن الخطب الجسـيم

كما كتب من هناك الى بعض أصدقائه يقول :

من واجــد منفر المنـــــام
طــــريد دهـــر جائر الأحكام
مشتت الشـمل على الدوام
ملازم للهـــم والســــقام
يا ليت شعرى بعد هذا العام
اليكمـــــو ترمى بى المرامى
أم ينتوينى رائد الحمــــــام
فأنطـــوى فى هــــذه الآكام
وتولم الضـبع على عظـامى
ولائما للوحش فى الاظـــلام

وزاد فى شقائه خلال عمله فى السودان ، انه كان مغضوبا عليه من كتشنر نفسه ، ذلك الجبار العنيد كما وصفه هو فى كتاب أرسله الى الاستاذ الامام قال فيه : « وقعدت همة النجمين ، وقصرت يد الجديدين ، عن ازالة ما فى نفس ذلك الجبـار العنيد ، فقـد نما ضب ضغنه على ، وبدت بوادر

السوء منه الى ، فأصبحت كما سر العدو ، وساء الحميم »

وفى الوقت نفسه ، كان رئيس فرقتــه حاقدا عليــه ، لا يفتأ يذكره بالسوء فى تقاريره الرسمية ، وذلك لأن حافظا لم يكن يطيق غطرسته ، وكثيرا ما نظـم فى ذمه أراجيز ينشدها زملاءه الضباط ، وفى احداها قال فيه :

تراه اذ ينفخ فى المزمار تحسبه فى رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبيهـا ويعشق الجاهل والسفيها

هـذا الى قسوة القيظ فى السودان ، وحرمان حافظ هناك من اصحاب سمره ومجالس أنسه فى القـاهرة ، مما دعاه الى ان يواصل الكتابة الى الاستاذ الامام وغيره ممن يؤمل فى توسطهم لاعادته الى العاصمة ، فكتب الى بعض أصدقائه يشكو تلك الحال :

رميت بها على هذا التباب
وما أوردتهــا غير السراب
وما حملتهـــا الا شــقاء
تقاضينى به يوم الحســاب
وما اعذرت حتى كان نعلى
دما ، ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا
صبيغا بعدما دبغت اهابى
وحتى قلم الاملاق ظفـرى
وحتى حطم المقـــــدار نابى

احالة الى الاستيداع

واخيرا عاد حافظ الى القاهرة ، ولكنه عاد محالا مرة اخرى الى الاستيداع بعد ان حوكم وسبعة عشر ضابطا من زملائه بتهمة العصيان ، وهكذا تبخرت آماله وتبددت فى أن يكون رب السيف والقلم مثل محمود سامى البارودى ، وتراءى

لعينيه ما ينتظره من عيش ضنك بالجنيهات الشهرية الاربعة التى هى مرتب الاستيداع ، فكتب بعد سنتين واربعة أشهر الى الجهات المختصة طالبا احالته الى المعاش ، ذاكرا فى طلبه هذا « انه مكث بخدمة الجيش ١٢ سنة ، ولم يحصل فيها على غير رتبة ملازم أول ، ومضي عليه أربع سنوات وهو فى الاستيداع ، وأنه فقد الأقدمية ، ويلتمس احالتــه على المعاش ليتمكن من وجود شغل له يقوم بنفقته ونفقة عائلته الكبيرة التى لا يقوم مرتب الاستيداع بلوازمها » . وقبل طلبه فأحيل الى المعاش فى اول نوفمبر سنة ١٩٠٣

حيرته وفقره

لبث حافظ بعد عودته من السودان يواصل السعى فى سبيل الحصول على عمل ملائم يعيش منه . ولكنه فشل فى سعيه هــذا أكثر من عشر سنين ، لم يدع خلالها بابا الا طرقه ، ولا وسيلة الا اتخذها . وكان حاله فيها كحاله حين كان صبيا يعانى اليتم والبؤس ، وكحاله وهو يقاسي الوحشة والاضطهاد وفراق الأخدان والأخلاء فى السودان ، وفيهــا يقول :

سعيت الى أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت الا التندما

لحا الله عهد القاسطين الذى به
تهــــدم من بنياننا ما تهــدما

اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريا ، ولا تك مسلما !

وكقوله عند تهنئته للمرحوم عبد الحليم عاصم أمير الحج سنة ١٨٩٥ :

يا لقومي انني رجـــــل حرت فى أمرى وفى زمنى
أجفــــاء أشــتكي وشقا ان هـــــذا منتهى المحن

وقد صقلت هذه الأعوام نفس حافظ ومواهبه الشعرية، بما أتيح له فيها من تجارب ودراسات فى صميم الحياة ، وتوفر على صوغ الشعر وتجويده لاتخاذه وسيلة الى بلوغ الغاية التى يريدها ، وكانت غايته أول الامر أن يحظى بمنصب فى القصر ، فأخذ يزجى الى الخديو عباس الثانى مدحة بعد مدحة فى مختلف المناسبات

تشجيع الاستاذ الامام

على انه وقد يئس من نيل متمناه عند الخديو وشاعره ، ظل يلقى عند الاستاذ الامام محمد عبده صدرا رحبا وعطفا كريما وتشجيعا عظيما . وقد سجل حافظ ما لهذا المصلح الكبير عليه من مآثر فى كثير من القصائد والرسائل . كقوله من قصيدة طويلة :

لى كل حول لبيت الجاه منتجع
كما تشد لبيت الله أرحال

وزهرة غضة ألقى الامام بها
لها على أختها فى الروض إدلال

يا من تيمنت الفتيا بطلعته
أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

وبفضل تشجيع الاستاذ الامام محمد عبده استطاع حافظ أن يزداد تألقا ولمعانا بين نجوم الشعر فى ذلك الحين ، كما استطاع أن يتألق بين نجوم النثر باخراجه « كتاب البؤساء » للشاعر الفرنسى فيكتور هوجو فى حلة عربية فاخرة كانت ولا تزال موضع الاعجاب لدى الأدباء والمتأدبين

ولم يكن عجبا أن يكون حافظ أشد أصحاب الاستاذ الامام وتلاميذه حزنا وفجيعة ولوعة عند موته فى سنة ١٩٠٥ فقد ضاعت بفقده بقية ما كان للشاعر العصامى البائس من أمل فى الحياة ، كما عبر هو نفسه عن ذلك فى رثائه للمرحوم قاسم أمين بعد ذلك بعامين فقال :

واها على دار مررت بهــــا
قفرا ، وكانت ملتقى السبل
ســـاءلتها عن قاسم ، فأبت
رد الجواب فرحت فى خبـــل
متعثرا ، ينتـــــابنى وهن
مترنحا كالشـــــارب الثمل
متــــــذكرا يوم الامام به
يوم انتويت بذلك البطـــــل
يوم احتسبت ، وكنت ذا أمل
تحت التراب بقيـــــة الأمل

وقد حرص حافظ على أن يسجل ذلك فى رثائه للأستاذ الامام فى الحفلة الأولى التى أقيمت لذلك فقال :

فيا منزلا فى « عين شمس » أظلنى
وأرغم حســـادى وغم عداتى
دعائمه التقوى ، وآساسه الهدى
وفيه الأيادى موضــــع اللبنات
لقد كنت مقصـــود الجوانب آهلا
تطوف بك الآمال مبتـــهلات
مثابة أرزاق ، ومهبط حكمة
ومطلع أنوار ، وكنز عظـــات

حافظ فى دار الـكتب

ومهما يكن من أمر تلك السنين العجاف فى حياة حافظ المادية ، فلا شك فى أنهـــا كانت خيرا وبركة على حيـــاته الادبية والاجتماعيـــة ، ففى خلالهـــا أنشأ كثيرا من غرر قصائده فى السياسة والوطنية والاخلاق والعادات والتقاليد ، وأخرج كتابه الثانى « ليالى سطيح » . كمـــا اشترك مع صديقه شاعر القطرين خليل مطران فى ترجمة كتاب فى

« الاقتصاد » . هذا الى أن اتصالاته من طريق أدبه وشعره بكثيرين من الكبراء داخل الحكم وخارجه ، انتهت أخيرا بأن عينه المرحوم أحمد حشمت ناظر المعارف رئيسا للقسم الادبى فى دار الكتب فى سنة ١٩١١ بمرتب شهرى قدره ثلاثون جنيها ، ثم ثبت فى هذا المنصب بعد عام وانعم عليه برتبة البكوية ، وفى ذلك قال من قصيدته فى الحفل الذى أقيم لتكريمه فى هذه السنة الاخيرة :

وما كنت أحلم لولا الوزير بهذا الهناء ، وهذا اللقب
على اياد له جمة وفضل قديم شريف السبب
فآنا أقال به عثرتى واورى زنادى ، وآنا وهب
تفيأت منه ظلال النعيم وأصبحت أعرف لبس القصب

حافظ الكريم

وكانما شاء القدر الا أن يبقى حافظ الشاعر العصامى طول حياته شاعرا بما يشعر به البائسون والمعدمون ، لكى يبقى لهم نعم النصير ، وليختصهم من شعره الذائع بالشىء الكثير .. ومن هنا عاش حافظ بعد ذلك ما عاش وهو ينفق باليمين ما يكتسبه باليسار ، وقد يسخو بكل ما يملك من مال على صديق أو زميل بائس ، وفى الوقت نفسه كانت عزة نفسه تأبى عليه أن يذل لغير الله

عبده الحمولي



عبده الحامولى

« اذا استطاع انسان أن يحلق فى جو الابداع والابتكار فى مثل البيئة التى عاش بها الناس فى خاتمة عصر المماليك ، كان هو المعجزة حقا .. وكان هو عبده الحامولى »

زعيم الغناء فى الشرق

بقلم الدكتور محمود احمد الحفنى

لا تكون العصامية جديرة بالتخليد حتى تبدأ نفسها بنفسها مستغنية بعنصر القوة فيها عن العلل والاسباب جميعا ، وان كانت سير العظماء خاضعة فى كثير من شأنها لمقدمات من البيئة والظروف المحيطة والأوضاع الاجتماعية والنظم السياسية والمستوى الثقافى والفنى . بيد أن الشخصية تسمو على الأسباب والعلل ، يختفى تأثرها بها ، وكأنها خلقت من لا شيء لتكون شيئا جديدا باهرا لعصرها الحاضر وللعصور الآتية

لم يكن القرن التاسع عشر ليسمح للعبقرية المصرية أن ترتفع هامتها ، فالأفق قاتم والظلام مخيم . وهب أن ألوانا من العبقريات شقت الطريق لنفسها ، فما كان للموسيقى يومئذ طريق تشقه ولا جو تتنفس فيه الصعداء . ولا يعلم أحد الا الله ما يعانيه رجال الموسيقى من الجفوة والاستبعاد من كل ندوة عالية ووسط رفيع . وقد يتيسر الطريق أمام جاهل فينال فىالعلم مكان العظمة ، أو امام فقير بائس ملتصق بالتراب فيجتمع له الثراء من كل مكان ، ويدخل هذا فى زمرة أقطاب المعرفة وينخرط ذاك فى سلك أقطاب الثراء . ومهما يكن من أمر فقد كانت العظمة على أى حال غير مستحيلة على المكافحين المجدين . ولكنها بالنسبة لرجل الموسيقى تتطلب الكفاح مضاعفا والجهاد متواصلا

والصبر مريرا طويلا للوصول الى الخطـوة الاولى فى طريق بناء الشخصية ، ولا سيما فى مثل البيئة التى عاش بهـا النـاس فى خاتمة عصر المماليك وبداية حكم يكرر نفسـه بصورة اخرى . فاذا استطاع انسان أن يبنى شخصيته بين تلك القيود والأغلال ، وان يطلق العنان لروحه الوثابة ليحلق فى جو الابداع والابتكار كان هو المعجزة حقا ، وكان هو « عبده الحمولى »

نهضة فنية

منذ بداية القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدات تراجع حسابها مع التاريخ وتتطلع الى التخلص من كابوس الظلام الجاثم على صدرها ، وتلتمس لنفسها منفذا من المظالم ومن الوان التدهور الذى أصيب به الشرق والعالم الاسـلامى معـه . آن لمصر الا تصبر على التخلف عن الأمم وهى أم المدنيات ومؤسسة الحضارات . وكان من الحوافز لها الى النهوض تلك الجولات والاتصالات الحربية والعلميـة بينها وبين دول الغرب ، فكل شىء يأخـذ سبيله الى التطـور ويمضى فى طريقـه الى التجـدد والاختراع والابتكار . وسرعان ما وثبت مصر تنفض عنها الغبار بقوة من سواعد أبنائها ومن مواهب العبقريين فيهـا . وكانت الفنـون فى مقـدمة ما اتجهت اليه المشاعر فى هـذه النهضة القومية الحديثة. والموسيقى من النهضة فى الصميم والصدارة ، ومن الفن فى الذروة والقمة ، لأنها المعبرة بلغتها عن لغة الحيـاة ولأنها هى التى تصحب القافلة فى طريقهـا الى المجـد . فما لبثت مصر ان ظهرت بها مدرسة فنية التقى فيها رئيس الملحنين محمد القبانى وكبيرة المطربات سكينة وغيرهما . والى جانب هؤلاء أشرق الوعى الأدبى الذى يغذى الموسيقى بتراث الشعر القديم ويعيـد الى الغنـاء العربى مجموعة

صالحة من ثروته المشتتة. فصنف فى تلك الآونة السيد محمد شهاب الدين ، وكان شاعرا مجيدا وموسيقيا ماهرا ، كتابه « السفينة » وقد جمع فى مصنفه هذا عددا عظيما من الموشحات العربية كانت عاملا قويا على انعاش الفن القومى

نشاته بطنطا

فى هذه الفترة من بداية اليقظة بعد سبات عميق ، وفى هذه الظروف التى لا تزال حالكة قاتمة الا قليلا من بصيص النور الآخذ فى الازدياد ، شب « عبده الحمولى » وترعرع بمدينة طنطا حيث كان مولده بها فى نحو عام ١٨٤٣ . وقد ولدت معه موهبة النبوغ الصوتى التى تنمو بنماء جسم الصبى الفنان رويدا رويدا ، حتى تسامع به من حوله ، وبدا الناس يتحدثون عن صوت جديد لا عهد لهم به من قبل

ولا شك أن الصبى الفنان قد اتخذ لصوته حللا لفظية من الأهازيج الشعبية والأغنيات الريفية والمواليا الوطنية. انها ثروة الريف والطبيعة الساكنة فى هذه المدينة المحوطة بالمياه والأشجار ، المليئة بالمساجد والمشاهد والموالد التى استمع فيها وفى حلقات الذكر الى أصوات المنشدين وترتيل القارئين . كان للقصائد النبوية والتواشيح الدينية بتلك الحلقات أثرها السحرى الفعال فى تلك الفطرة الناشئة فما اعظم ما حبته به الطبيعة فى تلك الرقعة التى جمعت بين سكون القرية وحضارة المدينة

هروبه من وجه ابيه

ما كاد ابوه المشتغل بتجارة البن يلمس الاتجاه الجديد فى حياة نجله الصبى حتى ثارت ثورته وضاق ذرعا بهذا العار الفنى الذى سيلحق به وباسرته فيسىء الى السمعة ويصيب الكرامة فى الصميم . وما لبث تاجر البن أن انهال على ولده بالتنكيل والتنكيد والايذاء المستمر والمعاملة النابية

القاسية. وادركت رحمة الله ذلك المسكين بأخ شقيق يكبره كان له خير معوان فى محنته وخير مواس على احتمال شدته. فاتفقا معا ، وسرعان ما نفذا تعهدهما ، على أن يغادرا الوالد ويتركاه للبن يساوم فيه وللسمعة الطيبة يحتفظ بها ويصونها من خطر الموسيقى الداهم . واذا سمعت بأن اخوين شقيقين قد أجمعا على الرحيل والانفصال من أحب الأمكنة اليهما ، ومن ظل الأبوة التى كان مفروضا أن تكون أبو الظلال بهما .. اذا سمعت بذلك فثق أن وراء الأخوين هموما لم يطيقا الصبر عليها ففرا من وجهها الى المصير المجهول . وهنا تتجلى العصامية على حقيقتها . فلو قد رأيتهما لهالك منظر فتيين يضربان فى الارض ، فلا ثياب ولا طعام ، يحمل كبيرهما صغيرهما اذا عجزت القدم وكلت الهمة عن مواصلة السير ، فى أرض موحشة وليال مظلمة ، بين قطاع طريق ومخاطر مختلفة ، فى غربة وفاقة ودموع... كل ذلك كان سبيل العصامية الى الظهور بعد كفاح مرير

مع الأستاذ شعبان

انتهى المطاف بعبده الحمولى الى « شعبان » فمن هو هذا ؟. انه مهاجر من طنطا كذلك ، وهو يحترف الغناء والعزف كيفما كان . وتستطيع أن تقول انه كان مدرسة للاستقبال والتعليم والتوجيه والتخريج ، والاستغلال قبل كل شيء . فما كاد يتعرف مواهب « عبده » حتى التقطه وقبض عليه بيد قوية . فقد استطلع بفراسته الفنية ماوراء تلك الموهبة من ثروة يمكن أن يستنزفها اذا استخدم هذا الفنان بعد تدريبه والتعريف به والاعلان عنه . وكذلك صنع به . فقد مكنه من الالمام بالفن بالقدر الذى يمكن معه اقامة افراح وحفلات والاشتراك فى سهرات . وكأن شعبان هذا قد خشى أن يفلت من يده هذا الصيد السمين ، ولعله لمح وجوه منافسين جدد يحاولون أن يختطفوا

الفريسة من بين يديه ، فأسرع الى تقييد « عبده » بالزواج من ابنته ليغلق بتلك المصاهرة باب المنافســة ويأمن على الصيد أن يطير . وفاته أن العبقرية أقوى من أن تكبل بمثل هذا الزواج المغرض المصطنع

مع الفنان محمد المقدم

وقد ذاع أمر « الحمولى » بين الجمهور وبحكم طموحه الفني كان لا بد أن يلتمس المزيد من رسالتــه . فمن هو هذا المعلم الذى يقصد اليه ويستزيد من منهله ؟ ان ذلك المعلم هو « محمد المقــدم » ذلك النجم اللامع فى ســماء القاهرة غناء وأداء ، ولقد أعجب بعبده وشجعه لا على الفن وحده بل وعلى التخلص من المصاهرة المستغلة المتحكمة فى كسبه وحيــاته . فوقعت الفرقة بين الزوج والضحيــة وتحرر الفنان والتحق بتخت « المقدم » وأجاد ما لم يكن يحسنه من الفن المألوف فى عصره . وكان لا بد له من تلك الفترة ، يستكمل فيها خبرته ويستوعب الموجود فى زمنه

ولكن ما لبث « المقدم » أستاذه الجديد أن أعاد فى استغلال مواهب الفنان الفتى سيرة سلفه. الا أن ذلك الاستغلال لم يدم له طويلا ، فقد استيقظ وعى الموسيقار الصغير ، وبدأ يتنبه لاستقلال شخصيته والثقة بمقدرته . ولم يمض عليه كبير وقت حتى أصبح له تخته الخاص بآلاته ومنشديه

بزوغ نجمه

بدا نجم « الحمولى » يسطع وأخذ صيته ينتشر ويأخذ سبيله الى الأوساط الثرية وقصور الأعيان وذوى المنزلة ، حتى اختصه اسماعيل بمجلسه وصحبته وضمه الى من حوله . والذى يعنينا من هذه الصحبة هو ذلك الوسط الموسيقى الراقى من الفن التركى الذى تمكن « الحمولى » من الاتصال به سواء فى القاهرة أو فى الاستانة . لقد كان

زعماء الموسيقى التركية وقتذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من انتاج ومقدرة ومهارة . وقد ساعدت الزعامة الاسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى فى كل بلاد الشرق . وكانت مصر أقرب الممالك الشرقيــة استعدادا لقبول ذلك الانتــاج الفنى . وكانت موهبة « الحمولى » خير مرآة اعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الأقطار العربية الاخرى . ولم تكن عملية هــذه الموهبة تقليــدا ومحاكاة ، بل كان الامر اعظم من ذلك شأنا . فان ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الابتكار وقدرة الارتجال ، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع ... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والابداع

وكما استطاعت « جميلة » فى صدر عهــد بنى أمية ان تحفظ الألحان الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها ، وان تضعها أوضاعا عربيــة سليمة تجعلها صاحبــة مدرسة ومذهب جــديد ، فكذلك كان صــنيع « الحمولى » مما استوعبه من الغناء الشرقى عامة والتركى خاصة ، حيث أخذ بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما اظهر هذا الفن فى طابع جديد اخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف الى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذى يخلق جوا من المرح والحبور . وقام بتهذيب ألحان التواشيح والقصائد وقدم ألحانا هى مزاج من أذواق متقابلة متلاقية دون اخلال بالطابع العربى والذوق المصرى

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات فى مصر محدودة ، وكانت الأصوات تجرى فى مجال ضيق من المقامات لا تتعــداه ، ويبقى سير اللحن على وتيرة واحــدة لوقت طويل فى حال تدعو الى

السآمة والملل . فاخـذ « الحمولى » يسلك فى تلحينـه وغنائه سبيل التلوين والتنويع ، وراح يتنقل من مقام الى مقام ومن نغمة الى أخرى فى سير اللحن . فخرج من جمود الترديد والاطالة الى فسحة التجديد والانتقال والتغيير فى توافق وانسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الاعجاب

لم يكن الغناء المصرى يصور المعانى أو يقدر الارتباط بين الشعر والموسيقى كمـا ينبغى ، فقام « الحمولى » بهـذه الرسالة ولعب الدور الهام فى ايجاد تفسير وشرح لمعـانى الالفاظ بأسلوب أغانيـه وحمل النغم مسئوليـة التعبير والايضاح . وشعر المستمع بأن عليه أن يتابع المعانى فى الأداء الفنى بما لا تستطيع الأداة المجردة اداءه ، بل تجاوز ذلك الى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغنـاء وتفسر الأداء . وكان ذلك تطلعا الى الموسيقى المسرحيـة التى كان له الفضـل فى توجيه صديقـه الشـيخ سلامة حجازى اليها

قلما عرف أحد فى تلك الآونة منطقـة صوتية رحيبـة الجنبات كالتى تمتع بها « الحمولى » بين المغنين . وما أشبه تلاعبه فى حنجرته القادرة بأصابع « بجانينى » فى حركاتها على الكمان تلك الحركات التى أعجزت عصره وجعلته الفرد المثالى بين أنداده . لشدما كان يكافح العازفون على تخت « عبده » فى ملاحقته صعودا وهبوطا ، والسير معـه فى تعاريج النغمات والتواء المقامات ، وهو يتسرب من بعضها الى البعض الآخر فى مهارة ودقة وتفوق طالما أعجز الآلات فى منطقتها الصوتية المحدودة عن ملاحقته والتجاوب معه

ان تفرد « عبده » فى مكانته الموسيقية أتاح له فرصة الانتاج المركز المتواصل من ابتكار وتصرف وبديهة حاضرة

لها مقـدرة الارتجـال والتصرف المفـاجىء الذى يفوق الاستمداد والتحضير

ومن طرائف ما يروى فى ارتجاله حادثة أشبه بالقصص الخيالى منها بالوقائع . جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف وأعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديدا للعدد وتفاديا من الزحام . وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لايحمل بطاقة . وحدث ان دخل رجال التخت واستعدوا للحفل ، وحضر « عبده » متأخرا عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لايعرفه ونشأ بينهما أخذ ورد أحس به الجمهور ومعهم صاحب العرس . فحملوا الفنـان الـكبير وأجلسوه مع أصحابه فى صدر السرادق . فما أسرع ما ارتجل « موالا » لمس فيه الموضوع ، واستغل الحادثة فأضفى عليهـا من براعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء ، وخلق منهـا موضوعا وجدانيا جميلا جديرا بالتقدير والتحليل ، فقال :

ليه حاجب الظرف يمنعنى وانا مدعى

لرى روض المحـاسن من دما دمعى

كم افتكر فى احتجابك واشتكى وانعى

سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح

قول لى بحق المحبة ما سبب منعى

عبده والمظ

ولم يكن احد من المعاصرين يساميه فى المنزلة الفنيـة سوى الفنـانة البارعة « المظ » . كانت تجـرى معـه فى منهاجه ، وتعزف الصـوت على قيثارته ، وان كان لهـا مدرستها وأسلوبها النسوى فى الغناء ، وقد بدأت المنافسة بينهمـا ردحا من الزمن قليـلا . وسرعان ما هدأت تلك المنافسة لأن باعثها الفن الجميل ، ولا يمكن أن يكون الفن مثار حقد أو كراهية ، كما قد يحدث فى بعض الأحيان من صغار النفوس . بل استحالت المنافسة الى تجاوب قلبى

استخدم فيه الغناء على أن يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون اليه . كانت هـذه المطارحات فى ليـالى الأفراح الساهرة التى يلتقيان بها ، وبينهما حجاب مسدول ان منع الرؤيا والمشاهدة فلن يمنع الاستماع الى الأصوات. كان هو يغنى للرجال بينما تختص هى ببنات جنسها . ويتبادلان معا أدوار الغنـاء على التعاقب ، ولـكل منهما « المطيباتى » الخاص به . وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وارتجـال ، وخلق وابداع ، ثم تشـوق وتعلق . وما أسرع ما أصبح المغنيـان شاعرين مبدعين يناجى كل منهما الآخر فى غنائه بشعر لا يقل فى روعته عما كان يصنعه لهما اسماعيل صبرى والشيخ على الليثى والسيد محمـد الدرويش وغيرهم من أقطاب الشعر

وقد سمعها « عبـده » فى احدى تلك الليالى الساهرة وهى تغنى :

يا سـيدى أنا أحبك لله وربنـا عالم شاهد

لاصبر على أحكام الله لما يبان لى معاك شاهد

خبط الهوى ع الباب ، قلت الحليوه أهو جالى

أتارى الهوى كداب يضـحك على القلب الخالى

فما كان منه الا أن غناها ارتجالا الدور الآتى :

روحى وروحك حبـايب من قبـل دى العالم والله

واهـــل الموده قرايب الخ ... الخ ... الخ ...

وبعـد أن كانت تضمهمـا أفراح المتزوجين ، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما . وكانت طليعتـه ليلة فخمـة عظيمة اجتمع لها أقطاب الفن احتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصرى يلتقيان فى قران سعيد . واذا قيل « عبده » و « ألمظ » فالنجوم لهما تبع والفن لاسميهما نشيد . فهذا هو أحمد الليثى كبير العازفين بالعود وابراهيم سهلون أمير الكمان ومحمد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من أساطين الفن

يحتشدون فى ليلة الزفاف . وهذا هو « عبده » نفسه يغنى لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم فى ليلته التى جاد عليه بها الزمن الضنين

الا ان زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكنت البلبلة الفريدة واحتجبت بزواجها عن قبول اقامة حفلات العرس . اما هو فقد اصبح تاجرا يبيع الاقمشة الى اجل ويغنى متبرعا بغير اجر . ثم لا تمضى سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود الى المهنة يسترحمها ويستجدى كفها السمح المعطاء ، فتعوض على ابنها البار كثيرا مما خسر

ولم تشأ الأقدار لتلك السعادة الزوجية أن تدوم فتوفيت سكينة المشهورة بالمظ زوج عبده الحمولى ، قرينته الوفية المضحية . وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة أدبية اشتركت فيها الموسيقى والشعر . وبدا لنا ان الزوج كان وفيا وان سعادته بها لم تكن قاصرة على الايام الاولى ، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن عليها ، فبدأ يغنى بعد وفاتها :

شربت الصبر من بعد التصافى
ومر الحال ماعرفتش أصافى
يغيب النوم وافكارى توافى
عدمت الوصل يا قلبى على

دور

على عينى بعاد الحلو ساعه
ولكن للقضا سمعا وطاعه
لأن الروح فى الدنيا وداعه
عدمت الوصل يا قلبى على

مصائب الفنان

ولم يكن « عبده الحمولى » بمعزل عما أصاب النابغين فى كل عصور التاريخ من نكبات وآلام . ولكى يكون واحدا من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكأس المريرة التى ذاقوا بها الهموم والأكدار . وقد فاز « الحمولى » بنصيب الأسد من ذلك ... طارده أبوه صغيرا ، واستغله المعلم شعبان صبيا ، واحتكره المقدم فتى ، وحاربه زملاؤه بعد ذلك رجلا وفنانا ، ثم قسى عليه القدر فأفقده « المظ » . ثم أمعن القدر فى قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو فى ملابس العرس وافراح الزفاف . فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغنى شاعرا يصور الكارثة أفدح تصوير لمأساته فى ولده محمود فيغنى مرتجلا :

ليه يا عين ليه ليه يا عين   يا حليوه يا نور العين
كبدى يا ولدى يا جميل يا جميل
لما رايت البدن داب منى   ودمع عينى بعد أن نشف منى
كبدى يا ولدى آه يا جميل يا جميل

ومما غناه فى مصابه أيضا :

زاهي جمالك فتنى   لما بدا نور جبينك
ونبل الحاظك تجرح   من سهم قوس حاجبينك
كبدى يا ولدى

احسانه الى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الاول للعصامى الفنان فجعلت منه رجلا تقيا متعبدا يقيم الصلوات لأوقاتها ، فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان فى عهد بنى العباس — حيث العصر الذهبى للغناء العربى — من قيام طائفة من الموسيقيين المتازين الورعين الأخيار الأبرار . الا أن «عبده» امتاز بغناء ليس فيه حرص « الموصلى » . فقد كان

« الحمولى » ذا كرم وسماحة ومروءة وايثار ، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر . ولا ريب أنه فى ذلك انبل واشرف من ارباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشون خسارة فيه . أما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومى ، ويعطى كل ما فى يده للفقراء ولمن افتقروا بعد غنى . جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد فى قيمة الف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين حين التجأ اليه . كما ترك اقامة حفل لغنى بخيل وذهب فغنى فى فرح رجل فقير قدم له الغناء وانفق تكاليف العرس على حسابه الخاص . ولم تكن هذه وحدها بل لقد أقام عشرات وعشرات من حفلات غنى بها وجمع فيها النقود لأصحابها ، فأغاث فقيرا بائسا ، او اعان صديقا مال به الدهر ، حتى لقد جلس الى جانب بائعة بائسة فى الطريق المؤدى الى شارع شبرا الآن ونادى بسلعتها فى صوته الرخيم حتى امتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلا على البائعة البائسة ، وعادت الى منزلها وهى من اصحاب الثراء

ومن خير ما يؤثر عنه ارتفاعه بنفسه وبالموسيقيين ودابه المتواصل على اعلاء نظرتهم الى فنهم ونظرة الناس الى اشخاصهم . من ذلك ان السراة والأعيان كان من عادتهم ان يقذفوا بالذهب والجواهر فى حفلات الزفاف والأعراس فيسرع الحاضرون الى التقاطها . وهنا تتجلى نزاهة « الحمولى » وعفته وتساميه فيطلب الى رجال تخته وتابعيه الا ينحدروا الى مثل ما يصنعه غيرهم من التقاط شىء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شىء

ابداعه

ولقد ابدع « عبده » ثروة فنية من ادوار ومواليا وتواشيح وقصائد اخذت منه وحفظت عنه ، ثم اصبحت بعد ذلك تراثا يخلد اسمه ويعلى ذكراه

ومن أشهر أدواره غير ما قدمناه :

دور مطلعه :

الله يصون دولة حسنك على الدوام من الزوال
ويصون فؤادى من نبلك ماضي الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه :

مليك الحسن فى دولة جماله
ملك عقلى وأفكارى وروحى
ومن تيهه أسر قلبى دلاله
وزاد فى محبته وجدى ونوحى

وآخر مطلعه :

يا منيــــة الأرواح جــد لى بوصلك يوم
العقــــل منى راح وهجر عيونى النــوم
والمدامع مطـــــر يا شقيق القمـــــر
والقلب انفطـــــر وازداد عــذولى لوم

وآخر مطلعه :

متع حيــاتك بالأحبــاب آنســــك ظهــــــر
شأن الطرب يشفي الأوصاب اللى حضـــــــــر
وكيــــد زمانك واتهنــا وافرح وطيـــــــب
وانفى همـــومك بالأكواب ســــــــعدك أمر

وآخر مطلعه :

شربت الراح فى روض الأنس صافى
على زهر الغصـــون وردى وصافى
وهنـــانى الزمان والوقت صــافى
ســـمح بالوصـــل محبـــوبى الى

المطر يبكى لحالى ، والقمر يطلع يكيدنى ، وعذولى ما رثى لى "

أما المقامات التى كان يجرى فيها غناؤه لهذه الأدوار وأمثالها فقد كانت فى الأهم : الحجاز كار والعجم والنهاوند

والراست والبياتى والعراق والسيكاه والعشاق والجهاركاه

ولقد سمعت الآذان المصرية من « عبده » جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة الحانها فى صوت سحرى والفاظ عربية وروح مصرية واعجاز بلغ به الغناء غايتـه والفن الشرقى منتهى مداه

وسافر « عبـده الحمولى » سنة ١٨٩٦ الى الاستانة عاصمة الشرق يومئذ ، فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الاعتراف لها فى شخص فنانها الكبير بما هى جـديرة به من مكانة . وعاد « الحمولى » مزودا بالهدايا ، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير

غروب نجمه

اما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه ، فقد آن له أن يحول رويدا رويدا الى الغروب والاحتجاب ، وهكذا بدات الأمراض تفعل به فعلها . وداهم مرض السل صدر ذلك العبقرى فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والاقامة بأعالى الصعيد ، حتى اذا سنحت بوادر الشفاء عاد الى حلوان . وبها كانت نهايته فى فجر اليوم الثانى عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ من ستين عاما ، مثل فيها دور العصامى المؤمن بشخصيته وفنه ، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبى بين ذوى المروءات . ولن تنسى الخدمات الاجتماعيــة فى تاريخها ما تبرع به « الحمولى » من احياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية

وانتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر ، وتوارى عن الأنظار فى بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده ، وقفى على اثره من أمثال محمد السبع واحمد حسنين والشيخ ابو العلا محمد وكثيرين غيرهم ، وسوف تبقى ميراثا للجيل وتراثا للأجيال القادمة

سمعان صيدناوي



سمعان صيدناوى

« بنى بيديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح المردة المنيفة التى يزهو بها الشرق العربى ويباهى »

المغامر الشريف

رجل عصامي من الطراز الاول بنى بيـــديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح المردة المنيفة التي يدل بها الشرق العربى ويزهى ويباهى

لم يكن سمعان صيدناوى فى الرواد الـكاشفين الذين يركبـون الأخطـــار ويضربون فى مجاهل الارض مجازفين مغامرين ليعثروا على مناجم الذهب ويعودوا منها ممتلئي الحقائب والوطاب ولا كان من المضاربين فى أسواق المال والاوراق ممن يلتمس الغنى والثراء فى طرفة عين أو بين عشـــية وضحاها معتمدا على حسن الجد والطالع ليختصر الطريق الى قمم الفوز والنجاح . كذلك لم يكن فى العلماء المخترعين الذين يوفقهم الله الى اختراع نافع تتبناه الصناعة وتجعله فى متناول الناس أجمعين وتدر على صاحبه أخلاف الرزق والثراء العريض . ولا هو عثر على حجر الفلاسفة فتمكن به من تحويل المعادن الى ذهب وهاج

ما كان سمعان صيدناوى واحدا من هؤلاء ولكنه كان جميع هؤلاء فالعمل هو الذى كشف له منـاجم الذهب ، فاغترف منها ، والاستقامة هي التى ضارب بها فى أسواق التجارة الشريفة الحرة ، فغمرته بدفعات الكسب الحلال . أما الذكاء فكان وسيلته الي التفنن فى الاختراع والابتكار ففتح له مختلف أبواب الرزق وأما الاحســـان فكان حجر الفلاسفة الذى قلب النحاس فى يديه نضارا فكلما أمعن فى

الاحسان زاده الله نعما وحول آماله وامانيـه الى حقائق ملموسة تتألق على جنباتها أشعة الظفر والفلاح

نشأته

ولد المترجم له بمدينـة دمشق سنة ١٨٥٦ من اسرة طيبـة معروفة بحسن السيرة وصفاء السريرة كانت قد نزحت منذ زمن طويل من قرية « صيدنايا » الى العاصمة وتلقى الصبى سمعان العلم فى مدرسة من مدارس دمشق حتى اذا بلغ أشده كان قد ألم بما كان يلم به لداته فى ذلك العهد من أطراف العلوم والآداب واللغات

ها هو ذا فتى فى ريعان الشباب قد تزود للحياة بأفضل زاد العصر مكنه منه ذووه غير وانين عن تضحية فى هـذا السبيل ليمدوه اعدادا حسنا للجهاد والـكفاح فى الحيـاة وليكون لهم السند القوى والعماد المرتجى

وتضاربت الآراء فى نوع العمل الذى يزاوله وطال بحث ذويه وتقصيهم وتملكت الفتى حيرة تتملك كل فتى يترك مقاعد الدراسة الى مدرسة الدهر فهو بين نار الحماسـة المتقدة فى صدره ونار التلهف الى عمل يضطلع به ويسير فيه الى أبعد الغايات

وتسوق الأقدار الفتى سمعـان الى تاجر من تجـار العاصمة واسع الرزق والعمل والتجارة فيجعله فى عداد موظفيه ويعهد اليه فى عمل كتـابى ينهض به على احسن وجه ثم ينيط به بعد ذلك مختلف الأعباء والاعمال فيتوفر عليها بهمة ونشاط وذكاء وامانة فلا تنقضى سنوات خمس حتى يكون على حداثة سنه مستشار الرجل وامين سره وصاحب المنزلة الأثيرة لديه يعتمد عليه فى شؤون تجارته وضبط اعماله والسهر على مصالحه

وبلغ من اعجاب الرجل بالشاب سمعان ومحبته له وايثاره اياه أن هم بتزويجه من ابنته على اختلافهما فى الدين فخشى أهل الفتى الفتنة ، فأوعزوا الى عم الفتى بالقاهرة أن يدعوه اليه ففعل ولبى سمعان الدعوة وشد رحاله الى القاهرة تحدوه اليها الأمانى الجسام

الهجرة الى مصر

مصر .. ما أعذب هذا الاسم فى أفواه العرب ، وما أجمل الآفاق التى تتطلع اليها النفوس كلما رف على الأسماع ذكر مصر أو جال بالخواطر . مصر هى بلد الآمال والأحلام للعربى الذى ينبو به وطنه فيضرب فى فجاج الارض . كانت مصر فى عهد المترجم له قبلة الأنظار وكعبة الرواد وكانت الهجرة الى مصر قد جد جدها فقصدها رجال القلم هربا من الظلم والاستبداد وسعى اليها المكافحون المجتهدون طلبا للرزق من مناهل نيلها الفياض وكان من الطبيعى أن يدور ذكر مصر على الألسنة فى بلاد الشام بعد اذ استوطنها نفر غير قليل من الشاميين نعموا فيها بالأمن والدعة والحرية ولقوا فيها ميدانا واسع المسالك والشعاب لجدهم ونشاطهم فتواترت على الوطن الاول انباء أبنائه المهاجرين وكلها انباء حلوة طيبة سارة فما عتمت مصر أن أصبحت الجنة التى يحلم بها الشباب فالسعيد منهم من حقق الدهر له حلمه الجميل وساعده على النزول بواديها الأمين الخصيب

بمثل هذه الفرحة الشاملة التى تخف لها أحلام الرجال استقبل الشاب سمعان دعوة عمه فما هى الا أسابيع قليلة حتى كان مشدوها بعظمة مصر وجمال القاهرة ...

نزل سمعان بالقاهرة فى سنة ١٨٧٨ وكان عمه نقولا صيدناوى تاجر أصواف فى حى الحمزاوى فألحقه بالعمل عنده ولم يفكر ولا فكر الفتى فى السعى الى الالتحاق بوظيفة كتابية فى دائرة من دوائر الحكومة او فى شركة من

الشركات الكبرى . ولعل البيئة التجارية التي عاش فيها بدمشق وانتقل اليها فى كنف عمه بالقاهرة قد حصرت تفكيره فى التجارة وضروب أعمالها وما من شك أيضا فى أن التجارة فن من الفنون لا بد له من استعداد خاص وموهبة خاصة والا كان صاحبه كالقابض على الماء فالعمل الذى لا يعدنا الله له ولا يهبنا ملكته ولا نزاوله بحب وشوق وشغف هيهات أن ننجح فيه ولو بذلنا له وافر القوى وأرسيناه على أضخم القواعد والأركان

ولا جدال فى أن سمعان صيدناوى كان الله قد وهبه ملكة التجارة ويسر له العمل والحياة فى بيئة تجارية وحباه نفسا جادة نشيطة مجتهدة تحب العمل الذى وقفت عليه فكأن الله قد منحه بذلك أول مقومات النجاح

مائة جنيه

مكث سمعان يعاون عمه فى عمله مدة ثلاثة أشهر وأظهر من ضروب النشاط والحذق ما حمل عمه على العناية بمستقبله ، فمثل هذه الطاقة من النشاط يجدر بها أن تستغل فى عمل مستقل يستفيد منه الفتى ويشيد به صرح مستقبله فنفح ابن أخيه براس مال صغير أضيف الى المبلغ الضئيل الذى كان سمعان قد ادخره من عمله بدمشق ولعل هذا وذاك لم يبلغا مائة جنيه فكانت هذه المائة من الجنيهات راس مال حانوت صغير فى الحمزاوى لا تزيد مساحته عن مترين فى مترين استقل به سمعان وتعاطى فيه تجارة ما نسميه بمصر ب « الخردوات » وهى مجموعة من السلع الصغيرة كبكر الخيط والمناديل والقمصان الداخلية والأزرار والشرائط والجوارب والأقمشة الرفيعة المخرمة وما لى ذلك

وسار الفتى على بركة الله يدير محله الصغير بنشاط لا يعرف الملل وهمة تفتك بالصعاب ومقدرة فذة راضيا

بالربح القليل مقتصدا فى النفقات حتى بدات بواكير النجاح تبتسم له ابتسامة الخيط الرفيع من النور قبل انبلاج الفجر

وترامت اخبار سمعان الى أهله بدمشق فقرت أعينهم وحببت الى سليم اخيه الأكبر أن يولى وجهه شطر مصر شطر جنة الله فى أرضه ليجنى منهسا ثمرة كده وفلاحه فها هو ذا شقيقه سمعان لم يحل عليه الحول بمصر حتى استقامت له تجارة ولو صغيرة يكسب منها رزقه فى جو مشبع بالحرية والاستقلال

الأخوان بالحمزاوى

هبط سليم القاهرة فأخذ كما اخذ شقيقه سمعان من قبل بمعالمها العظيمة ومجال العمل الواسع فيها فطاب له أن يزاول بها الصناعة التى كان يزاولها بدمشق وهى خياطة الملابس. فاشترك هو وصديق له يدعى مترى صالحانى وفتحا دكانا لخياطة الملابس فقد كان سليم حاذقا فى هذه الصناعة غير أن القدر بعد أن بسم للشريكين قليلا فجعهما باحتراق الدكان وذهاب ما فيها طعمة للنار . فطيب سمعان خاطر أخيه ونصحه بهجر صناعة الخياطة واقترح عليه مشاركته فى حانوته فرضى بالاقتراح واضاف الى رأس مال الحانوت ما كان قد ادخره من نقــود وهكذا أسس محــل « سليم وسمعان صيدناوى » فى ذلك الحانوت الصغير بحى الحمزاوى

انقطع الشقيقان الى عملهما لا تأخذهما فيــه ونيــة ولا هوادة وافرغا عليه من نشاطهما وجهدهما ما انتزعا به من يد الدهر قصب السبق والفلاح ، فالعمــل ولا شىء غير العمل هو شغلهما الشاغل وهو الأنس والبهجة والمراح ، فما عرفا طريقا الى مقهى يقطعان فيه الوقت بمدى الكسل والتراخى ، وانما عرفا طريقا واحدة يذرعانها كل يوم بين حانوتهما الصغير وغرفتهما المتواضعة التى يسكنانها فى حى « درب الجنينة » . فكانا اذا أقبل المساء وانقطعت السابلة

سهرا فى دكانهما حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا يدبران أمورها وينظمان شؤونها ، ويرتبان رفوفها وعلبها ويصفان صررها وبقجها ليستقبلا العملاء فى صباح اليوم التالى على خير وجه من الاستعداد والنظـام والترتيب . وكانا اذا اويا الى غرفتهمـا دارت احاديثهمـا على البيع والشراء وعلى حركة الأخـذ والعطـاء يتفننان فى ابتكار الوسائل التى تقودهما فى معارج النجاح

مثابرة وجهاد

ولئن كان الاخ الأكبر لم يعمر طويلا فان سمعـان قد عمر حتى بلغ الثمانين فما خبا له نشاط حتى فى شيخوخته فكان يقبل على العمل فى الصباح مع مستخدميه أو قبلهم وينصرف فى المساء بعدهم فرجل هذا شأنه وهذا تقديسه للعمل وانقطاعه اليه ناجح لا محالة فى الحياة فالنجاح طائر يقتنص بشرك العمل ولنا بسيرة سمعان صيدناوى الأسوة الحسنة والمثال الحى

مشى الأخوان بحانوتهما الصغير من نجـاح الى نجـاح وكافاهما الدهر على همتهما القعساء وجهادهما المتواصل ولكن العمل لم يكن وحده السهم الذى ضربا به كبد الفلاح والنجاح فهناك عامل آخر كان له نصيب كبير فى نجاحهما وهو الاستقامة والصدق فى المعاملة والتزام الكسب الحلال ليس الا ... وفى حياة سمعان صيدناوى الطويلة أمثلة كثيرة للاستقامة التى كانت عاملا من عوامل نجاحه واليك مثلا واحدا منها :

كانت نساء البيوتات فى عهـده لا ينزلن الى الأسواق مشتريات . وانما كن ينلن ما يبتغين بوساطة الدلالات وهن نسوة كن يطفن بالدكاكين وينتقين منها الأقمشة والسلع ويعرضنها على ربات البيوت المخـدرات فيشترين منهن ما يروق فى اعينهن ويحلو

وفى صباح يوم من الايام بينما كان سمعان فى دكانه الصغير قد أستعد لاستقبال العملاء وافته احدى الدلالات واشترت منه عشرين مترا من الشبيك المخرم (الدنتلة) ونقدته الثمن وانصرفت وراجع سمعان مبلغ النقود بعد انصرافها فاذا هو ضعف ما يقتضى ففطن الى أن الدلالة حسبت السعر « بالقرش الصاغ » فى حين طلب هوالسعر «بالقرش التعريفة» (*) فركض خلفها ليفهمها أنها غلطت فى الحساب ، وليرد اليها فرق الثمن فأدركها على مسافة بعيدة وصاح فيها وهو يلهث :

ــ حسابك مغلوط يا سيدتى

ــ لا . لا . لا غلط . دفعت الحساب تاما كاملا

وأصمت أذنيها عن سماع أى شرح وتفسير كان وهمت بمتابعة السير الى غايتها فاستوقفها وقال :

ــ دفعت زيادة عن المطلوب . دفعت ضعف الثمن

فأصاخت اليه وعادت معه أدراجها الى دكانه ، وبين لها مصدر الغلط ونقدها الفرق فتهلل وجهها وشكرته على استقامته وامانته واستودعته الله وانصرفت تنقل الخبر الى سيدات « الدائرة » من عميلاتها وتروى لهن أمانة « الجدع الشامى الحليوة » وكان سمعان على ما وصفت الدلالة وسامة وقسامة حباه الله جمال الخلق والخلق ، فتطاير الخبر من دائرة الى دائرة ومن بيت الى بيت ، وأصبحت سيدات القصور والبيوتات يوصين الدلالات بابتياع حاجاتهن من دكان الشاب الشامى الوسيم الأمين ...

شهرة ونجاح

اتسعت أعمال الأخوين وكثر عملاؤهما وازدادا همة

---

* من العادات بمصر اطلاق لفظ القرش الصاغ على القرش الواحد الصحيح ولفظ القرش التعريفة على نصف القرش

ونشاطا وتدفق عليهما الرزق وأصبح لهما فى المصرف رصيد يعتد به جمعاه بالجد والاجتهاد والمثابرة ففكرا فى الانتقال بتجارتهما الى مكان أوسع فاشتريا فى حي «الموسكى» منزلا قديما هدماه ثم شيداه تشييدا جديدا يفى بالغرض الذى توخياه وافتتحاه فى عام ١٨٩٦ وكان أكبر محل للبيع بالقاهرة فى ذلك العهد ، وهو الذى كان معروفا بمحل « بلاتشى » فى حى « الموسكى » فنظماه صفوفا واجنحة وخصصا كل جناح بضرب من السلع ففتح الله عليهما أبواب الرزق وصارت أمنية كل شار أن يزور أولا محل سمعان ويبتاع منه ما يهوى ويشتهى

وطارت شهرة المحل وأصبح لا يعرف الا بمحل سمعان لأن سمعان كان فيه الركن الركين لا يغيب عنه لحظة واحدة من لحظات النهار ذلك بأن الأخوين كانا قد اقتسما العمل فيما بينهما فاختص سليم وكان اداريا حازما بمهمة الادارة والشراء وتزويد المحل بالسلع اللازمة يسافر من اجلها الى أوربا ويشتريها من مواردها الأصيلة ، واختص سمعان وكان لسنا لبقا ظريفا بمهمة استقبال العملاء والاشراف على صفقات البيع وارضاء كل عميل فلا يخرج من محله الا وهو شاكر راض . فكان من حسن ادارة سليم أن سار محلهما سيرا قويما منظما . وكان من بعد نظره ان وظف الفائض من اموالهما بشراء الأرضين التى يتوسم لها مستقبلا زاهرا ، فاشترى كثيرا من العقار والارض الفضاء فى حى الخازندار وحى ابراهيم باشا وكان من قبل يعرف بحى نوبار باشا ، فارتفعت قيمة الارض والعقار على توالى السنين ، وجنى الأخوان من ذلك الربح الحلال . وكان من اضطلاع سمعان بشؤون البيع والسهر على رضى العملاء ان نمت تجارتهما نموا مطردا ودارت كلمة « سمعان » على كل لسان حتى ان النساء المحصنات ما كن يرضين ببضاعة

تزجيها اليهن الدلالات ان لم تكن ملفوفة بورق يحمل اسم سمعان .

وازداد الاقبال على محل سمعان فأصبحت رقعة المحل على كبرها واتساعها لا تفى بازدياد حركة البيع وازدحام العملاء فاشترى الأخوان محلا حديدا ازاء محلهما الكبير يقع على شارع الخليج المصرى وخصصاه ببيع « المفروشات » فدرت عليهما الاستقامة ودر عليهما العمل الحثيث الجزاء الأوفى يهطل عليهما من شآبيب محلهما الكبير ومحلهما الجديد ومحلهما الصغير الاول فى حى الحمزاوى

وينتقل سليم الأخ الأكبر فجأة الى رحمة الله فى سنة ١٩٠٨ فيجزع عليه سمعان جزعا شديدا ويفقد فيه شقيقا غاليا ونصيرا ومعاونا ويأبى أن يستقل بالعمل وحده من بعده فيشرك معه ورثة أخيه

محلات صيدناوى بالخازندار

وينهض سمعان بالعبء العظيم وتزداد أعمـاله اتساعا ويزداد هو جلدا على الجهاد والكفاح والعمل المتواصل ويرى أن ثقة الناس به تضطره الى التوسع فيقرر توحيد محاله الثلاثة فى محل واحد كبير واسع ولم يجد خيرا من العقار الذى يملـكه فى حى الخازندار وكان مجمـوعة من الدكاكين والمقاهى فبدأ يهدمها فى سنة ١٩١١ ويبنى على انقاضها محله العتيد الكبير حتى فرغ من البناء فى سنة ١٩١٣ واحتفل بافتتاح « محلات سليم وسمعان صيدناوى » فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر من عام ١٩١٣

وكان نجلاه يوسف وجورج ونجـل شقيقه الياس قد بلغوا فى ذلك العهد طور الشباب والرجولة فعهد اليهم فى ادارة هذا المحل الكبير وبقى هو حتى آخر لحظة فى حياته يضطلع بالعمـل كأى فرد من الأفراد حتى توفاه الله عن شيخوخة صالحة فى سنة ١٩٣٦ بعد اذ اكتحلت عينه برؤية

حانوته الصغير فى حى الحمزاوى ينمو وينمو وينمو حتى ينقلب الى ذلك البناء الواسع الفخم فى حى الخازندار وحتى يكون له فروع بالاسكندرية والمنصورة وطنطا والفيوم وأسيوط وبور سعيد وباريس ومنشستر ، ويضطلع اليوم بادارة هذا العمل الواسع انجاله واحفاده يتزعمهم نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه الياس ناهجين جميعا نهج الأبوين فى العمل والاستقامة والذكاء والاحسان

عناصر النجاح

يعزى نجاح سمعان صيدناوى الى العمل والاستقامة وهما عنصران رئيسيان من عناصر النجاح ويعزى نجاحه كذلك الى الذكاء الفطرى الذى توجهه الملكة التجارية فالعمل المضنى والاستقامة اذا اجتمع اليهما الذكاء تألف منهما ثالوث كفيل بأن ترسى عليه قواعد النجاح . ولقد كشفنا فى نفس سمعان صيدناوى اقنومين من ذلك الثالوث فلنجتزىء فى الكشف عن الأقنوم الثالث فى نفسه بسرد الواقعتين التاليتين ففيهما الدليل المقنع على الذكاء المنبعث من الملكة التجارية فيه :

كان سمعان ذات صباح واقفا على باب محله فى حى الموسكى يشيع بابتسامته الحلوة وتحيته الرقيقة العملاء الخارجين من محله بعدما ابتاعوا منه حاجاتهم فلمح وراءهم سيدة صفر اليدين قد جمعت ملاءتها وهمت بالخروج فأقبل عليها كعادته يسألها لماذا لم تشتر مطلوبها ، فقالت له ان الأثمان عندكم غالية ، فبكرة الخيط تباع بتسعة مليمات وانتم تبيعونها بعشرة ، فطيب خاطرها وعاد بها الى جناح بكرة الخيط وقال :

— كم بكرة تريدين يا سيدتى ؟

— اربع وعشرون

فأمر البائع بحسبان سعر البكرة الواحدة بتسعة مليمات فافترت اسارير المرأة وعلت وجهها قسمات الرضى. وكانت احدى الدلالات جاءت تبتاع جهاز عروس فابتدأت ببكر الخيط . وكان الجناح الخاص به فى مقدمة المحل ثم ما لبثت ان ابتاعت كل ما تريد فبلغت قائمة الحساب ١٢٠ جنيها ذهبا نقدته اياها راضية مسرورة ، فلولا ذلك المليم الذى نزل عنه لفاته الربح الذى جناه من بيع تلك الصفقة ، ولكنها النظرة السديدة وذكاء المهنة ...

والواقعة الثانية تتلخص فى ان سمعان كان فى سنة ١٩٠٨ يصطاف بلبنان فانتهى اليه ان الشيخ سلامة حجازى قد وفد الى بيروت على رأس جوقه الشهير فخف سمعان هو ونفر من اصدقائه المصريين الى بيروت لسماع الشيخ سلامة ، ولكن الشيخ عز عليه ان لا يزيد عدد النظارة على عدد اصابع اليدين فألغى الحفل وادعى المرض فذهب اليه سمعان وصحابه يعودونه ويستفسرون عن صحته فأخبرهم بخيبة أمله ، وبأنه صحيح معافى ولكن يشق عليه بعد النفقات الطائلة التى تجشمها أن يغنى ويمثل فى حضرة أفراد قلائل لا يملأون مقاعد صف واحد من صفوف القاعة فأخذ رفاق سمعان يواسون الشيخ سلامة ويمنونه بالاقبال فى الليالى المقبلات فيجيب الشيخ على هذه الأمانى ببسمة صفراء تشتمل كل معانى اليأس والقنوط . وعلى حين فجأة ينتفض سمعان ويقترب من الشيخ وهو يقول :

ــ يا عزيزى الشيخ

ــ لبيك يا أخى سمعان

ــ ان الشعب اللبنانى مرح طروب يقدر الغناء ويعشق الصوت الجميل ولكنه لا يتحرك الا عن ثقة واقتناع وهذه هى المرة الاولى التى تزور فيها بيروت فاعذره اذا هو لم يعرف من هو الشيخ سلامة حجازى

فلم يخرج الشيخ عن بسمته الصفراء فاستأنف سمعان حديثه وقال :

ـ ألم تكن يا عزيزى الشيخ ترتل القرآن وتعلو المآذن قبل أن تعلو المسارح

ـ بلى ...

ـ اذن تذهب غدا وهو يوم جمعة الى مسجد بيروت وتؤذن الظهر بصوتك الرخيم فينسساءل عنك الناس حتى يعرفوك ولسوف يقبلون على مسرحك فى المساء وانا كفيل بأنه لن يكون فيه موضع لقدم

وكان ما قدره سمعان ..

ليس الذكاء علما بالغيب وانما هو تقدير صحيح للأمور ونتائجها فمن وهب ملكة من الملكات ساعده الذكاء المنبثق منها على جلاء الغوامض وتدارك العواقب . فالملكة التجارية هى التى أوحت الى سمعان بذلك الاقتراح فنعم الشيخ سلامة بنتيجته الحسنة . ونحن ان عرفنا عن سمعان صيدناوى هاتين الحادثتين وحكمنا له استنادا اليهما بالذكاء فما من شك أن هناك كثيرا من مثيلاتهما عرضت له فى الحياة ووجهه فيها الذكاء وبقيت سرا مكتوما توشح بها سر النجاح

الجـــزء الثانى

عصاميون من الغرب

تومـــاس اديسون



توماس اديسون

العصامى الذى يسر سبل الحياة ووهب للناس من آيات العلم ومنتجات آثاره ما رفه عنهم وغمرهم بالخيرات والبركات

العالم العصامي

كان فى السابعة من عمره حين دخل المدرسة لأول مرة ، فى بلدة « بورت هورون » بولاية « متشيجان » الامريكية ، بعد أن انتقل اليها مع والديه : « صمويل اديسون » و « نانسي اليوت » من قرية « مويلان » الصغيرة بولاية « أوهيو » حيث رزقا به فى ١١ من فبراير سنة ١٨٤٧ .

ولم تزد فترة التحاقه بهذه المدرسة على ثلاثة أشهر ، ثم لم يدخل بعدها أية مدرسة ، فقد صرح معلموه فيها بأنه من الغباء والبلادة بحيث لا يصلح للتعليم ، ولم يكن راى والده فيه خيرا من رأى معلميه !

على أن والدته وكانت مدرسة سابقة ، عز عليها أن يخيب أملها فى وحيدها العزيز « توماس » فأخذت على عاتقها مهمة تعليمه فى المنزل ، وواصلت القيام بهذه المهمة زهاء ثلاث سنوات ، اتقن الصبى خلالها القراءة والكتابة ، وألم بمبادىء بعض من العلوم والفنون . وقرا باشرافها طائفة من الكتب المفيدة اهمها : « دائرة المعارف الصغرى » و « قاموس العلوم » للاستاذ « بور » و « تاريخ انجلترا » للاستاذ « هيوم » وكتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وزوالها » للمؤرخ « جيبون » . وحاول قراءة كتاب « نيوتن » لكنه لم يطق المضى فيه ، وكره الرياضيات كلها من ذلك الحين !

وكان هذا نجاحا عظيما لتوماس الصغير ووالدته ، غير أن ظروف الأسرة المعيشية ، قضت بأن يقف الصبى عند

هذا الحد من الدراسة المنزلية ، وبأن يعمل بائعا للصحف ، سعيا وراء القوت !

وبعد قليل ، انتقل الصبي من بيع الصحف فى الشوارع ، الى بيعها فى قطارات السكة الحديدية فيما بين « بورت هورن » ومدينة « دترويت ». واتسع نطاق تجارته فصار يبيع للمسافرين ـ علاوة على الصحف ـ بعض الكتب ، واكياس الحلوى والفول السوداني وما اليها !

ورغم قلق والدته الدائم وخشيتها على حياته من اخطار الحوادث فى عمله اليومي الشاق ، كانت حريصة على تشجيعه ، وتقوية روحه المعنوية ، مع العناية بنظافته ونظافة ملابسه . ولكنه لم يكن يعبأ كثيرا بمظهره ، فيكتفى فى أكثر الأحيان بنظافة وجهه ويديه واقمصته ، أما بذلته فلم يكن يبدلها الا حينما تبلى ، وأما حذاؤه فلم يكن لتنظيفه يعنيه فى قليل ولا كثير

يصدر مجلة

مضى توماس اديسون فى عمله المضنى المتواصل ، راضيا به ، باذلا من النشاط ما لا يطيقه الا أولو العزم من الشباب الأقوياء ، مع أنه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره !..

وما كاد يمضى فيه سنتين حتى تاقت نفسه الطموح الى المزيد من النجاح ، وهداه ذكاؤه الى اصدار مجلة صغيرة سماها « ويكلى هيرالد » طولها شبران ، وعرضها شبر ونصف شبر ، وثمن النسخة منها ستة مليمات ، واشتراكها الشهرى ستة عشر مليما . فاشترى لذلك بعض الحروف القديمة من مطبعة « ديترويت الحرة » . كما اشترى آلة طباعة صغيرة كانت تستعمل لطبع الحسابات فى احد الفنادق ، ثم أخذ يحرر المجلة ويجمع حروفها ويطبعها ويوزعها فى القطار . وظهر العدد الاول منها فى ٣ من فبراير سنة ١٨٦٢ وسرعان ما اجتذبت

اخبارها الطريفة اعجاب المسافرين ، فبلغ ما كان يوزعه من كل عدد منها ٢٠٠ نسخة ، ولم تتم المجلة سنتها الاولى حتى جاوز عدد المشتركين فيها خمسمائة . وبذلك تضاعف ايراد الصبى المجد المبتكر ، اذ بلغ ربحه من مجلته وحدها ٤٥ دولارا فى الشهر ، وكان بارا بوالديه فخصص هذا الربح كله لمساعدتهما !

لم يكن الكلل او الملل يعرف سبيله الى نفس الصبى توماس ، وقد شجعه نجاح مجلتـه على مضاعفـة جهوده الشاقة لبلوغ غايات ابعد ، فأنشأ بجانب مطبعته فى القطار معملا صغيرا جمع فيـه بعض آلات التلغراف والأسلاك المختلفة وزجاجات بها بعض المواد الكيمياوية ، واخذ يمضى اوقات فراغه من العمـل فى اجراء التجارب لاختراع آلة تلغرافية من نوع جديد

على ان الحظ بدأ يقلب للصبى المجتهد ظهرالمجن ، فحدث يوما وهو منهمك فى تجاربه أن اشتد اهتزاز القطار اثنـاء اجتيازه طريقا وعرا ، فانقلبت زجاجة الفوسفور وانسكب ما فيها على أرض العربة فاشتعلت النار فيها . ومع انه سارع الى اطفاء الحريق ونجح فى ذلك بعد جهد جهيد ، لم يسع سائق القطار فى شدة غضبه وحنقه الا أن ينزل به أشد العقاب ، فقذف به وبمطبعته وكل أدواته وأمتعتـه من القطار فى أول محطة وقف بها بعد اطفاء الحريق . ولم يكفه ذلك فأهوى بيده الغليظـة على وجهه بضربة قوية أليمة ، بقى الصبى يعانى آثارها طيلة عمره ، اذ أدت الى فقـد اذنه اليسرى قوة السـمع ، وذهبت كل محاولاته لعلاجها مع الريح !

مصاعب وعقبات

ولم يفت ذلك الحادث فى عضد الصبى فاستأنف اصدار مجلته وتجاربه الكيميائية فى غرفة خصصها له والداه بأعلى

المنزل . واستطاع ان يحافظ على ما بلغته المجلة من رواج كما وصل فى تجاربه التلغرافية الى ما يبشر بالنجاح ، فمد بين غرفتـه وبين مساكن بعض زملائه من صبية المدينـة أسلاكا كالتى تستعمل فى المواقد ، مستعينـا على ذلك بالأشجـار القائمة فى الطـريق ، واستعمل أعنـاق بعض الزجاجات لتقوم مقام الآلات العازلة . ولكنه قبل ان يتم ذلك المشروع فوجىء بحادث لم يكن فى الحسبان ، اذ اتفق ان نفرت بقرة لأحد الجيران ذات ليلة ، فحطمت احـدى الشجرات التى ربط بها أسلاكه ، ثم اخذت تحاول التخلص من الأسلاك التى التفت حولها ، وتطلق فى خلال ذلك خوارا عاليا ازعج الجيران جميعا ، فهبوا من مراقدهم ساخطين ، وكانت النتيجة ان أتلفوا كل تلك الأسلاك والادوات التى أعدها لمشروعه الخطير !

وابى سوء الحظ الا أن يمتد الى العمـل الصحفى الذى نجح فيه توماس . فقد أشار عليه صديق له أن يصدر صحيفة جديدة باسم « بول براى » بدلا من مجلته الاولى ، ولم تض على ذلك أسـابيع حتى نشر خبرا خاصـا فى صحيفته الجديدة أسخط عليه أحد رجال المدينة ، وما كاد يلقاه بعد ذلك حتى انتقم منه شر انتقام اذ قذف به فى نهر « سان كلير » . ولم ينج الصـحفى الصبى من الغرق الا بأعجوبة . وكان هذا الحادث بداية النهاية لذلك المشروع الصحفى ، فاحتجبت « بول براى » فجأة بعد قليـل ، وعاد توماس يبحث لنفسه عن عمل جديد

عامل تلغراف

وفق توماس بعـد أشهر الى الالتحاق بوظيفة عامل تلغراف ليـلى فى محطـة « بورت هورون » بمرتب قدره خمسة وعشرون دولارا فى الشهر . وكان الفضل فى التحاقه بهذه الوظيفة للمستر ماكنزى ناظر محطة « مونت كليمان »

وهى المحطة التى قذف اليها سائق القطار بصاحبنا توماس وأدوات معمله منذ أربع سنوات . فقد تطوع ذلك الناظر لتدريب الصبى على استعمال آلة التلغراف حتى حذقه ، ثم ساعده فى الحصول على تلك الوظيفة . وكان فى عطفه عليه واعجابه بجده وطموحه يرد له جميلا صنعه معه ، اذ خاطر بحياته يوما لينقذ طفله الحبيب من موت محقق تحت عجلات القطار !

وما كاد توماس يطمئن فى وظيفته حتى عاوده حنينه الى تجاربه العلمية ، فأعاد انشاء معمله فى مسكنه ، وأخذ يمضى أكثر أوقاته عاكفا على تلك التجارب . وكانت نتيجة هذا الجد انه فقد عمله الليلى فى المحطة ، لأن النوم كان يغلبه وهو يؤديه !

والتحق بعد ذلك بوظيفة مماثلة فى مدينة « سارينا » . لكنه فقدها أيضا بسبب انشغاله بتجاربه ، فضلا عن أن ذلك كاد يؤدى الى كارثة اصطدام قطارين !

وفى سنة ١٨٦٤ ، عين توماس اديسون عاملا للتلغراف بمدينة « انديانا بوليس » وبلغ مرتبه خمسة وسبعين دولارا فى الشهر ، فكان يبعث الى أسرته بأكثر مرتبه ، ويخصص الجانب الأكبر من بقيته لشراء الكتب العلمية والأدوات التى يستعملها فى اجراء تجاربه

عنايته بالتجارب العلمية

وتنقل فى وظيفته هذه بين مدن أخرى أهمها سنسناتى ، وممفيس ، ولويستيل . وعرف فى هذه المدن كلها بأنه أسرع عامل فى ارسال البرقيات . ولكن رؤساءه كانوا يضيقون بانكبابه على المطالعة والتجارب العلمية التى يعدونها عبثا لا فائدة فيه . . وهكذا كان لا يكاد يستقر فى عمل حتى يضطر الى تركه والبحث عن عمل آخر فى مدينة أخرى . وكثيرا ما اضطر الى السفر ماشيا وهو يحمل كتبه

وأدواته وآثار الفاقة ظاهرة فى بذلته وحذائه الباليين . ثم لا يكاد يستريح من عناء رحلته الشاقة ويجد العمل المناسب لكفاءته حتى يعود سيرته الاولى !

وحدث يوما وهو فى « سنسناتى » أن كاد يقتله احد رجال البوليس ، اذ ارتاب فى أمره وحسبه لصا ، نظرا الى هيئته الرثة ولسيره فى ساعة مبكرة حاملا رزمة ثقيلة من أعداد مجلة قديمة كان قد اشتراها فى مزاد عام . ولما صاح به آمرا اياه بالوقوف ، لم يسمع توماس صيحته بسبب اذنه الصماء وواصل سيره . فاطلق الجندى عليه رصاصة من بندقيته كادت تطيح بأذنه الاخرى وبحياته كلها !

وأخيرا انتهى به المطاف الى أن اضطر الى العودة لمدينة بورت هورون ، حيث لازم فراش المرض بمنزل والديه ، وبقى ثمانية عشر شهرا يعانى ضعف صحته بجانب آلامه النفسية بسبب فصله من عمله برغم تفوقه فيه ، وامتناع مكاتب التلغراف من استخدامه ، لا لذنب غير اشتهاره بحب المطالعة واجراء التجارب الكيميائية أملا فى الوصول الى اختراع جديد مفيد !

ما كاد توماس اديسون يسترد صحته ، حتى اعتزم السفر الى « بوسطن » لاستكمال ابحاثه الجديدة فى الكهرباء هناك . وقد منحته شركة السكة الحديدية « جراند ترنك » تذكرة سفر مجانية ، مكافاة له على اقتراح قدمه لها أمكنها بتنفيذه استخدام سلك مائى واحد لاحداث دورتين كهربائيتين فعاد ذلك عليها بربح كبير نتيجة لقلة التكاليف !

اول اختراع له

ووجد عملا ليليا فى مكتب تلغراف لشركة « وسترن يونيون » . وقسم أوقات فراغه بين مطالعة المؤلفات ..

الكهرباء وبين اجراء تجاربه فيها بالمعمل الصغير الذى انشاه فى مسكنه . وكان زملاؤه مع اعترافهم ببراعتــه فى عمله لا يكتمون سخريتهم منه لقلة عنايته بمظهره ، ولأن اشتغاله بتلك التجارب والمطالعات كان فى رايهم جهدا ضائعا لا خير فيه !.. لكنهم لم يجدوا بدا من العدول عن هذا الرأى حين علموا بتسجيله أول اختراع كبير له فى سنة ١٨٦٩ ، وهو يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان ذلك الاختراع آلة كهربائية لتسجيل أصوات الناخبين !

على أن هذا الاختراع لم يفده شيئا ، اذ رفضت الهيئة التشريعية فى الولاية استخدامه

وحــدث فى ذلك الحين أن دعى الى القــاء محاضرة عن التلغراف باحدى المدارس ، وشغلته تجاربه عن تذكر موعد المحاضرة ، الى أن نبهه اليه صديقه «ادامز» فى آخر لحظة ، واصطحبه الي المدرسة وهو ما زال يرتدى ثوب المعمل ، وشــــدما كان حرجه حين فوجىء بأن اكثر من فى قاعة المحاضرات من السيدات والآنسات المتأنقات ، لا من الطلبة كما توقع هو وصديقه !

ولم يطق البقاء طويلا بعد ذلك فى بوسطن ، ولاسيما أن ديونه أخذت تزداد حتى بلغت نحو ثلاثمائة دولار ، فترك عمله فيها ، وسافر الى نيويورك حيث أمضى ثلاثة أسابيع متعطلا لا يكاد يجد القوت الضرورى لبقائه على قيد الحياة !

وفى ذات صباح ، توجه الى مكتب المالى المعروف مستر « لو » صــاحب شركة « ريبورتنج » للذهب ، ليطلب عملا يعيش منه ، واتفق ان أغمى فى المـكتب على الموظف المختص بكتابة اســعار الأسهم ، وأدى ذلك الي تعطــل الاعمــال فى نحو ستمائة بيت من بيوت الاوراق الماليــة المتعاملة مع المكتب . فانتهز توماس اديسون هذه الفرصة ،

وقدم لصاحب الشركة اقتراحا عمليا لتلافى مثل ذلك التعطيل فى المستقبل ، فأعجب هذا باقتراحه ، وعينه مديرا لادارة المكتب بمرتب شهرى قدره ثلاثمائة دولار !

٤٠ الف دولار

اتصل اديسون بعد قليل بالجنرال مارشال مدير شركة « جولد ستوك تلغراف » واخترع للشركة آلات مختلفة لكتابة أسعار الأسهم وغيرها ، وقد وصف هو فيما بعد ما شعر به حين عرض عليه ٤٠ ألف دولار ثمنا لأحد اختراعاته ، فقال : « لم أصدق سمعي أول الأمر ، فلما تحققت ذلك كدت اقع مغشيا على من شدة المفاجأة ! »

وما كاد هذا المبلغ يصل الى يده حتى أنشأ به مصنعا لنفسه فى « نيو آرك » بمدينة « نيوجرسى » . استخدم فيه نحو ثلاثمائة عامل . ثم توالت مخترعاته التلغرافية ، وفى مقدمتها : آلة مزدوجة ترسل بواسطتها على سلك واحد فى وقت واحد ، رسالتان الى جهتين مختلفتين . وآلة رباعية ترسل بها فى وقت واحد أربع رسائل كل اثنتين منها الى جهة ، وقد اشترتهما منه شركة « وسترن يونيون » بثلاثين الف دولار ، أنفقها كلها فى سبيل اختراع آلة سداسية ، اشترتها منه الشركة نفسها ، فوفرت باستعمالها ملايين الدولارات

وفى سنة ١٨٧٣ تزوج توماس اديسون من احدى العاملات فى مصنعه ، فأنجبت له ابنته مارى أستل ، وولديه توماس الفا ، ووليام لسلى . وبرغم حبه لزوجته واولاده كان يبذل الجانب الأكبر من وقته وجهده وماله فى سبيل تجاربه العلمية ، وأعلن انه بسبيل اختراع آلة تلغرافية تعمل بنفسها ، فكان ذلك مدعاة لتهكم الصحف عليه والسخرية منه ، على أنه لم يعبأ بشىء من ذلك ، ومضى فى سبيله حتى حقق تلك المعجزة الكبرى !

ثم اخترع آلة تسجل مائتى كلمة فى الدقيقة وترسلها على سلك واحد طوله ٢٥٠ ميلا ، وأدخل على هـذه الآلة تحسينات عدة فصارت تسجل فى الدقيقة الواحدة ٣٢٠٠ كلمة !

وفى سبيل تحقيق هذه المعجزة ، اضطر العالم المخترع الشاب الى قراءة أكداس من كتب الكيمياء ، جلبهـا من لندن وباريس ونيويورك ، وبقى ستة أسابيع لا يغادر معمله ليل نهار أجرى خلالها اكثر من الفى تجـربة ، وملأ مجلدا ضخما بملخصات الـكتب التى قرأها ، وكان يأكل أثناء قراءته ، وينام على الكرسى الذى يجلس عليه !

اختراع المصباح الكهربائى والفونغراف والسينما

وفى سنة ١٨٧٨ عكف أديسون على اختراع مصباح كهربائى صغير الحجم محتمل الضوء يمكن استخدامه بدلا من مصابيح الغاز ، وقضى فى تجاربه المتواصلة ثلاثة عشر شهرا ، أنفق فى خلالها ما يزيد على مائة الف ريال ، ولـكن جهوده كللت بالنجـاح فسجل اختراعه الذلك المصـباح فى يناير سنة ١٨٨٠ ، وأشرف على انشاء مصنع فى « منلوبارك » لصناعة الزجاجات المفرغة من الهواء ، ثم توفر على انشاء محطة لتوليد الكهرباء فى نيويورك لمن يريد استعمال ذلك المصباح !

وقبل ذلك بسنتين سجل اديسون اختراعه آلة لتسجيل الصوت « الفونغراف » ، وكانت آلة « الكينمتوسكوب » التى اخترعها بعدئذ تمهيدا لطريق اختراع السينما !. ثم اخترع آلة للسينما الناطقة لم يقـدر لها الرواج لـكثرة تكاليفها . كما أخرج عشرات من المخترعات من بينهـا : « التاسيمتر لقياس حرارة النجوم ، و « الميجافون » لحمل الصوت مسافات شاسعة ، و « الايروفون » لتكبير الصوت الى مائتى ضعف ، و « الميميوجراف » لطبع المذكرات وما اليها ، وآلة مغناطيسية لتحليل المعادن . كما سجل عشرين

ابتكاراً لتحسين البطارية المشحونة بالكهرباء ، فمهد السبيل الى ابتكار العربات التى تسير الآن بالكهرباء فوق الارض وتحتها !

زواج اديسون

وفى ذلك العام نفسه تزوج من الآنسة « مينا ميلر »وهى ابنة أحد ارباب الصناعة ، ثم اشترى ضيعة على مقربة من معمله ، مساحتها ثلاثة عشر فدانا من حدائق وبساتين ، وفيها بيت أنيق مبنى بالآجر والخشب . وهناك ولد له ابناؤه الثلاثة «مدلين» و «شارلز» و « تيودور » وتوافدت عليه الهدايا فى بيته الجديد تبعث اليه من أطراف الارض ؛ فتماثيل من الرخام المجزع اهداها اليه قيصر روسيا ، وأوانى يابانية ثمينة أهدتها اليه جمعية المهندسين باليابان ، ومحبرة عجيبة اهدتها اليه مصانع كروب الالمانية فى صورة مدافع وقنابل مصغرة . وكان من بين هذه الهدايا وسام « البرنس البرت » الذهبى قدمته اليه جمعية الفنون فى لندن عام ١٨٩٢ ، كما أهدت اليه فرنسا الطبقات الثلاث من أوسمة « اللجيون دونور » . وبعثت اليه جمعية التصوير الشمسى بفرنسا وسامها البرونزى ، كما بعثت اليه ايطاليا وسام « التاج الايطالى » . هذا الى أوسمة شتى جاءت اليه من المعاهد الامريكية فى بوسطن ونيويورك ومن المعارض التى أقيمت فى استراليا والنمسا وانجلترا وفرنسا وامريكا

وفاة اديسون

وتوالت السنوات على اديسون وفترت عنه قوة الشباب ، وبلغ من حياته ما لم يبلغه غيره من مخترعات

ثم انطفأت الشعلة آخر الأمر وخمد نشاطه الدائب فى يوم وفاته فى الثامن عشر من اكتوبر سنة ١٩٣١ ، وكان قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر

شارل دیکنز



تشارلز ديكنز

عجزت اسرته عن الحاقه بالمدرسة ، فبقى حتى التاسعة من عمره لايعرف القراءة والكتابة ، ومع ذلك فانه لم يكد يبلغ الرابعة والعشرين حتى كان الناشرون يتسابقون الى التعاقد معه لامدادهم بالقصص

عبقرى صنعه الفقر

فى كوخ بسيط متواضع بقرية « بورتسى » فى ضواحى ميناء « بورتسماوث » الانجليزى ، ولد تشارلز جون هسنام ديكنز » فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢ . وما أتم العام الاول من عمره حتى نقل ابوه الكاتب فى البحرية الى لندن ، فاقام بها وأسرته أشهرا معدودات ، ثم نقل مرة أخرى الى ميناء « تشاتم » . وهناك فى كوخ بسيط متواضع ايضا استقرت الاسرة المؤلفة من الزوجين وولديهما،وكان تشارلز أصغرهما ثم أخذ عدد أفراد الاسرة فى التكاثر ، بينما بقى دخلها الضئيل على ما كان عليه ، فأخذت حالتها تبعا لذلك تنتقل من سيىء الى اسوأ ، ولا سيما أن عميدها كان بفطرته مسرفا يميل الى التأنق والحياة المرحة اللاهية ، كما أن ربة الاسرة كانت ساذجة لا تحسن التدبير !

دراسته وشقاء أسرته

وبقى تشارلز حتى بلغ التاسعة من عمره لا يعرف القراءة والكتابة ، اذ عجزت أسرته عن ادخاله المدرسة . على أن والده كان يختصه بكثير من رعايته وعنايته ، ويصطحبه فى رحلاته القصيرة الريفية حيث يزوده بطرائف المعلومات والمشاهدات ، ويروى له الكثير من القصص والحكايات المسلية ، كما يقوم أمامه أحيانا بتمثيل الأدوار الهزلية التى برع فى ادائها . . ثم أتيح للصبى أن يبدأ دراسته فى مكتب أولى يشرف عليه الأب جيلز قسيس طائفة المعمدين بالقرية، فمكث فى هذا المكتب نحو سنتين تعلم فيهما القراءة والكتابة،

وامتلأ خياله بعشرات من الصور الرائعة عن الشخصيات التي قرأ عنها في مجموعة الكتب والصحف القديمة التي كانت مكدسة في غرفة على سطح ذلك المكتب

ثم انتقل الصبي مع أسرته الى لندن للمرة الثانية ، اذ نزح اليها عميدها بعد ان اثقلته الديون ، راجيا ان يجد فيهـا مخرجا من الضائقة التى استحكمت حلقاتها ، لضآلة مرتبه وكثرة اولاده !

على أن الشقاء الذي لقيته الاسرة في لنـدن كان اشـد واقسى ، فقد حول عميدها مرتبه الى دائنيه ، وحاولت ربة الاسرة ايجاد حل لازمتها الطاحنة ، فانتقلت بها الى مسكن جديد اعتزمت ان تجعل منه مدرسة للفتيات ، وارسلت ابنها تشارلز الى المنازل القريبة ليوزع الاعلانات التى ضمنتها برامج الدراسة ، ولكن الفشل الذريع كان نصيب كل هذه المحـاولات ، وسرعان ما تبخرت آمال الزوجين ، فأوقع الدائنون الحجز على أثاث مسكن الاسرة ، وسيق عميدها الى سجن « المارشالسى » المخصص للمدينين المماطلين . وانتهى الأمر بتشارلز المسكين الى ان اضطر وهو فى الحادية عشرة من عمره الى ان يخلد الى اليأس من استطاعته مواصلة الدراسة ، وأن يتناسى آماله التى طالما راودت خيـاله وفى مقدمتها ان يصبح مالكا لقصر « تل كاد » التاريخى الفخم ، الذى كان يسترعى انتباهه ويثير خواطره واحلامه كلما مر عليه فى جولاته الريفية مع أبيه بالقرب من قرية تشاتم !..

وهكذا وجد الصبى نفسه فى هذه السن الغضة ، يرزح تحت أعباء ثقيلة من الأعمال المنزلية المختلفة ، ومن التردد الى السوق ، ورعاية الصغار من اخوته واخواته ، ومحاسبة الدائنين ، وزيارة ابيه فى السجن من حين الى حين !

عمله فى مصنع

وقدر للصبي البائس أن يجد عملا أكثر استقرارا واعظم

اجرا ، وان لم يكن فيه ما يتفق واحلامه وامانيه فى مواصلة التعليم . وكان عمله الجديد هذا فى مصنع متواضع مظلم لانتاج نوع من الدهان الاسود ، كان يملكه قريب لوالدته . فصار يمضى اكثر ساعات النهار فى تعبئة ذلك الدهان فى الزجاجات المعدة لذلك ، ثم يضع كلا منها فى ورق خاص يلفه حولها باحكام ، بعد أن يلصق بها بطاقة باسم المصنع وعنوانه ونوع الدهان . وقد استطاع تشارلز أن يحذق عمله ويتقنه ، برغم انه يختلف عن ميوله كل الاختلاف ، وبرغم شعوره بالمرارة فضلا عن التعب لاضطراره الى ترك الدراسة واحتراف عمل يدوى حقير ، يزامله فيه رفاق غلاظ القلوب والطباع ، لاحظ لهم من المعرفة او حسن الذوق ، وفيهم مع ذلك من يتناول ضعف اجره الذى لم يكن يزيد على ستة شلنات فى الاسبوع !

ولم تستطع السيدة ديكنز أن تصمد طويلا للقيام وحدها بحمل أعباء الأسرة المدينة البائسة ، وكان مصرحا لأهل المدينين المسجونين أن يعيشوا معهم فى السجن على أن يدفعوا أجر سكنهم فيه ، فانتقلت الى هناك بأولادها جميعا — ما عدا تشارلز — اذ اتخذ لنفسه مسكنا خاصا بالقرب من المصنع الذى يعمل فيه ، مكتفيا بتمضية يوم الاحد من كل اسبوع مع اسرته فى السجن !.. ثم انتقل الى مسكن آخر أقرب الى السجن ، وبذلك صار فى استطاعته أن يفطر مع الاسرة فى ساعة مبكرة من الصباح ، وأن يمضى معها فترة أخرى فى المساء بعد فراغه من عمله الى أن يحين موعد انصراف الزائرين وغلق أبواب السجن على من فيه !

شعاع من الامل

وفى ظلام البؤس واليأس الذى ساد حياة أسرة ديكنز ، انبثق فجأة شعاع من الأمل ، مصدره ميراث صغير هبط على عميدها من حيث لا يحتسب ، فاستطاع أن يسدد

الديون التى ادت به واسرته الى الاقامة بالسجن ، ولكن تشارلز لم يستطع الاستغناء عن عمله فى المصنع ليواصل تعليمه الا بعد اشهر طويلة حين وقع خلاف بين والده وبين صاحب المصنع قريب زوجته . وكانت المدرسة التى أقنع الصبى والده بأن يلحقه بها هى « أكاديمية ولنجتن هاوس » والدراسة فيها تسير طبقا للطرائق التربوية العتيقة ، والمدرس الأول فيها هو ناظرها مستر « جونز » الطاغية الفظ الغليظ القلب ، الذى كان لا يكتفى بتوجيه الشتائم المنكرة الى التلاميذ ، بل يكيل لهم اللكمات أحيانا ، ويهوى على ظهورهم احيانا بعصا غليظة خاصة اتخذها على هيئة السيف !

وأيا ما كان الأمر فقد عد « تشارلز » دخوله هذه المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره أكبر حادث سعيد صادفه فى ذلك الحين ، واظهر فيها تفوقا ملحوظا فى التمثيل وتأليف المسرحيات الفكهة ، كما أصدر صحيفة مدرسية ، كان يحررها ويوزعها بنفسه ، بعد أن يكتب نسخها المعدودة على أوراق ينتزعها من كراساته !

ولكن سعادة الصبى لم تلبث الا قليلا ، ثم وجد نفسه مرة اخرى مضطرا الى ترك الدراسة للبحث عن عمل يعيش منه ، لأن أسرته عادت فقيرة كما بدأت ، بعد أن نفدت البقية الباقية من الميراث القليل الذى آل الى ابيه !

كاتب فى مكتب محام

وانف تشارلز من العودة الى الاعمال اليدوية المهينة لكرامته ، وكان قد اتقن القراءة والكتابة والم بشىء من اللغة اللاتينية ، فاستطاع أن يجد لنفسه وظيفة كاتب فى مكتب محام بسيط ، بمرتب قدره ثلاثة عشر شلنا وستة بنسات فى الاسبوع ، ثم رفع مرتبه الاسبوعى الى خمسة عشر شلنا، مكافأة له على ما اظهر فى عمله من نشاط واخلاص !

وكان أبوه قد بدأ حياة جديدة بعد نفاد المال من يده ، فتعلم فن الاختزال ، والتحق بوظيفة كاتب للمحاضر فى مجلس النواب .. فأعجب تشارلز بهذه الخطة الحازمة الحكيمة التى اختطها أبوه لنفسه ، واعتزم اقتفاء أثره فى ذلك وسرعان ما اقتنى كتابا قديما فى فن الاختزال ، دفع ثمنا له كل ما ادخره من مرتبه حتى ذلك الحين ، ثم عكف على دراسة هذا الفن فى جد ورغبة صادقة حتى بلغ فى اتقانه مرتبة لم يبلغها أحد قبله فى لندن كلها ، وبذلك استطاع الحصول على وظيفة مختزل فى دار قاضى القضاة ، ثم عمل محررا برلمانيا فى بعض الصحف الصغيرة ، ولم يمض عليه فى هذا العمل بضع سنوات حتى عين محررا خاصا فى صحيفة « مورنينج كرونيكل » الكبيرة سنة ١٨٣٤ وهو فى الثانية والعشرين اذ ذاك ، وبلغ مرتبه الاسبوعى خمسة جنيهات !

فشله فى الحب

عرف تشارلز الحب ، وذاق حلوه ومره ، منذ كان فى الثامنة عشرة من عمره . ففى ذلك الحين ، ولم يكن بعد قد حصل على وظيفته فى البرلمان ، تعرف الى فتاة تدعى « ماريا بيدنل » كان أبوها صاحب مصرف متوسط فى لندن . وبادلته الفتاة الاعجاب والحب والتعاهد على الزواج، ولكن أسرتها برغم عطفها عليه لم ترض لابنتها زوجا فى مثل الحالة التى كان عليها هو من الفقر وضآلة التعليم ، وما لبثت قليلا حتى أرسلتها الى الخارج فى بعثة لاتمام دراستها العالية ، فلما عادت بعد ذلك ، كان استقبالها اياه فاترا بل باردا ، ولم تجده شيئا محاولاته المتكررة لاستعادة مودتها . ثم تزوجت بعد قليل رجل أعمال اسمه « هنرى ونتر » فانقطع بذلك آخر خيط من خيوط الآمال التى تعلق بها العاشق البائس المسكين !

اشتغاله بالقصص

وكان تشارلز قبيل التحاقه بصحيفة «مورننج كرونيكل» قد عالج كتابة قصص صغيرة عن الحياة فى لندن والريف ، ونشر سلسلة منها فى احدى المجلات الشهرية بعد ان شجعه على ذلك نشرها أول قصة بعث بها اليها بتوقيع مستعار . فاتفق مع أصحاب الصحيفة الجديدة على نقل هذه السلسلة اليها ، فى مقابل اجر اضافى قدره جنيهان فى الاسبوع ، وبذلك بلغ مرتبه الاسبوعى سبعة جنيهات . وكان اقبال القراء على هذه القصص كبيرا جدا ، مما عزز مركز الكاتب الشاب ، وما كاد يطبع المجموعة الاولى منها فى كتاب مستقل ، حتى لقى رواجا منقطع النظير ، جعله يقرر التفرغ للتاليف ، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره !

اخذ الناشرون يتسابقون الى التعاقد مع المؤلف الناجح الشاب « تشارلز ديكنز . واتفقت معه « هيئة شابمان وهول للنشر فى لندن » على اخراج سلسلة من القصص الرياضية الفكهة ، وظهر العدد الأول منها بعنوان « مذكرات بكويك » مزينا برسوم ايضاحية للفنان « سيمور » . ولكن ذلك العدد لم يلق النجاح المنشود ، ثم حدث أن انتحر الفنان سيمور ، فحل محله فى اعداد الرسوم للأعداد التالية فنان آخر أقرب أسلوبا الى روح ديكنز ، هو الفنان « هوبلت براون » . فأخذ الاقبال يزداد على هذه الأعداد حتى بلغ ما نشر منها ست حلقات . ثم قدم ديكنز لقرائه شخصية « سام ولر » التى ابتكرها فضاعف ذلك من اقبالهم على قصصه،وقفز عدد النسخ المطبوعة من الحلقة الخامسة عشرة الى أربعين الف نسخة ، بيعت كلها قبل طبعها ، فى حين ان ما طبع من الحلقة الأولى لم يزد على أربعمائة نسخة ، لم يبع الا حوالى نصفها !

شقاؤه الزوجي

وفى خلال نشر هـذه السلسلة ، تزوج تشارلز ديكنز بكاترين هوجارت الابنة الكبرى لأحـد أصحاب صحيفة « مورننج كرونيكل » . وكانت يومئذ شابة جميلة مثقفة ، وجد فى حبها له ما لم يجد من ماريا بيدنل التى احبها لأول مرة قبل ذلك ببضع سنين . وتم هـذا الزواج فى أبريل سنة ١٨٣٦،ولكن تشارلز ما لبث قليلا حتى ضاق بما تبينه فى زوجته من ضعف العزيمة وجمود العاطفة ، وان وجد بعض العزاء فى شقيقتها « مارى » التى كانت مقيمة معها . غير ان القدر لم يسعده طويلا بهذا العزاء ، اذ توفيت مارى اثر مرض مفاجىء فى مايو من السنة التالية . وكان ذلك عقب عودة الأسرة من سهرة ممتعة فى احد المسارح !

وبلغ من فرط الحزن الذى شعر به ديكنز لفقد شقيقة زوجته ، انه مكث شهرا كاملا لا يستطيع مزاولة عمله ، فلم تصـدر الحلقة المعتـادة من سلسلة « مذكرات بكويك » فى ذلك الشهر !

وازدادت الجفوة بين الزوجين بعـد ذلك ، برغم كثرة أولادهما ، وكان للفتاة « جيورجيتا » الشقيقة الصـغرى للزوجة ، فضل كبير فى تخفيف حدة تلك الجفوة بينهما ، وكانت قد انتقلت الى منزلهما بعد وفاة مارى ، وخلفتها فى القيام بمهام تدبير المنزل ورعاية الأولاد

طريقه الى النجاح

وفى سنة ١٨٣٨ بدأ نشر السلسلة الثانية من قصص ديكنز ، وهى قصة « أوليفر تويست » فرسخت شهرته الأدبيـة . ثم توالى نشـر سلاسل قصصه فى الصحف ، وفى كتب مستقلة ، فأخرج خمس روايات مطولة رائعة ، ومجموعات من القصص القصيرة ، وكتابا عن « الثورة على البـابوية سنة ١٧٨٠ » . ثم سلسلة من الاحاديث عرفت باسم

« ساعة السيد همفرى » . لكنه قطع هذه السلسلة وعاد لكتابة القصص المطولة ذات الموضوع الواحد ، فاخرج قصة « دكان التحف القديمة » التى كانت سببا لذيوع شهرته فى امريكا ايضا ، وبلغ من اثر الاقبال على حلقاتها هناك ان كانت جموع القراء تقف ساعات فى انتظار وصول السفينة التى تحمل الحلقة الجديدة الى الميناء !

وتلقى ديكنز على اثر ذلك دعوات الى زيارة أمريكا ، وقام برحلته الاولى اليها فى سنة ١٨٤٢ حيث استقبل باعظم الحفاوة والترحيب ، ولكنه لم يجد فى مشاهداته هناك ما يطابق الصورة التى تخيلها عن الحياة فى العالم الجديد ، وصدم شعوره على الأخص ما لاحظه من تفشى الرق هناك ، كما سخط على الأساليب التى يتخذها الأمريكيون فى حياتهم الخاصة ، وكان سخطه أشد على الناشرين هناك لأساليبهم الملتوية وحيلهم العجيبة لسرقة حقوق المؤلفين الانجليز

وفى الوقت نفسه نقم عليه الأمريكيون انتقاده الصريح اللاذع لأخلاقهم وعاداتهم ، وانكر عليه المتزمتون منهم ظهوره فى حفل رقص بمدينة بوسطن وهو يرتدى صديريا من القطيفة الخضراء الزاهية ، ورباط عنق قرمزى ، وسروالا احمر ضاربا الى الزرقة ، ويضع على صدره مجموعة من الأزهار المختلفة الألوان

ومهما يكن الأمر ، فقد اتم رحلته فى امريكا وبلغ مدينة « سان لويس » فى اقصاها غربا ، وبعد أن عاد لانجلترا اخرج كتابا عن هذه الرحلة سماه « اللمحات الأمريكية » وضمنه كثيرا من الانتقادات اللاذعة للامريكيين . لكنه برغم ذلك لم يتردد فى الرحلة الى أمريكا مرة ثانية بعد سنوات

وقد كان لمواطنيه الانجليز انفسهم نصيب كبير من انتقاداته ، فقد اخرج فى سنة ١٨٤٤ قصته « مارتن شوزلويت » وضمنها حملة شديدة على بعض العيوب المتاصلة فى الانجليز ، وفى مقدمتها الأثرة والنفاق . ولم تلق

هذه القصة مثل الرواج الذى لقيتـه مؤلفـاته السابقة ، اما لعنف الحملة الانتقادية التي تضمنتها ، وأما لأن حوادثها كانت تنطوى على كثير من التعقيد !

وضاقت به الحياة فى انجلترا بعد ذلك ، أو ضاق هو بها ، فقام برحلة فى أوربا مصطحبا أسرته ، وكان ذلك عقب نشر كتابه « اغنية عيد ميلاد » فى سنة ١٨٤٣ . فزار ايطاليا وفرنسا ، وأنتج خلال ذلك كتبا وروايات عدة ، آخرها كتاب « دومبى وابنه » الذى نشره عقب عودته الى لندن ، فجدد ثقة الجمهور فيه واعجابه بأسلوبه الخاص !

مسرحيـاته

اتجه ديكنز بعد عودته من رحلته الأوربية الطويلة الى اشباع هوايته القديمة الأصيلة للمسرح ، فتوفر على اعداد مسرحية « بن جونسون » وأشرف على اخراجها وعرضها واشترك فى تمثيلها مع نخبة من أصدقائه اختارهم لذلك . وبذل فى ذلك كله جهدا مضنيا حطم صحته ، ولا سيما بعد توالى عرض تلك التمثيلية فى العاصمة والريف

وفى سنة ١٨٥٠ تولى تحرير صحيفة « ديلى نيوز » وبذل برغم سوء صحته نشاطا كبيرا فى سبيل العمل بالشعار الذى اتخـذه لنفسه وهو « مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع » . على أنه زهد فى عمله الجديد بعد بضعة أشهر فاعتزله وتفرغ لاصدار مجلة اسبوعية خاصـة به سماها «الكلمات المنزلية» واستمر فى اصدارها ثمانى سنين بنجاح كبير ، ثم أعاد تنظيمها سنة ١٨٥٩ واختار لها اسما جديدا هو « على مدار العام » . ولم يغفل خلال اصداره مجلته هذه فى عهديها الاول والثانى عن انتاج مؤلفاته الاخرى من الكتب والروايات ، فأخرج قصة دافيد كوبز فيلد » : ثم قصة « المنزل الموحش » . فقصة « أوقات عصيبة » : وكان فى هذه المؤلفات كلها يصور مختلف الوان الحياة التى

درسها وخبرها بنفسه منذ طفولته ، كما يصور مختلف الشخصيات التى عرفها وكان لها فى حياته اثر ملحوظ ، فضلا عن تصوير حياته الخاصة وتحليل ما يختلج فى نفسه من مشاعر واحاسيس .

حياته الأخيرة

وفى سنة ١٨٥٨ ، تم الاتفاق بينه وبين زوجته على أن يفترقا ، وذهب ابنهما الاكبر ليعيش مع والدته ، بينما عاش بقية الاولاد مع ابيهم وخالتهم جورجينا ، ولم يمض قليل حتى انتقلوا الى الاقامة معه بقصر « تل كاد » الذى اشتراه ليحقق حلمه القديم الذى طالما راوده فى طفولته البائسة حين كان يسكن مع ابيه وامه كوخا متواضعا بالقرب من ذلك القصر التاريخى العظيم !

وبدا اول الامر ان ديكنز اخلد الى حياته الجديدة فى هذا القصر ، حيث اخذ يكثر من اقامة الحفلات لأصدقائه ومعارفه ، ولكنه ما لبث قليلا حتى عاوده حنينه القديم الى التمثيل ، فقام بجولات فى انحاء انجلترا واسكتلندا ، كان خلالها يظهر على المسارح لقراءة فصول من رواياته ، فيلقى من الجمهور اشد الاقبال والاعجاب

وفى خلال هذه الجولات ، اخرج رواياته الأخيرة : « قصة مدينتين » و « الآمال العريضة » و « صديقنا المشترك » . ثم زار امريكا للمرة الثانية سنة ١٨٦٧

وبعد عودته الى لندن فى سنة ١٨٧٠ بدا تاليف روايته فى تلك السنة بوعكة مفاجئة بعد أن قضى يومه عاكفا على الكتابة فى ركنه المختار بحديقة قصر تل كاد ، واغمى عليه وهو على المائدة ، فنقل الى فراشه ، ودعى الأطباء الى اسعافه وعلاجه . ولكنه بقى فى غيبوبة حتى اعلنت وفاته فى اليوم التالى . فكان لنعيه صدى اليم فى انجلترا وفى مختلف انحاء أوربا وامريكا

الشقيقان رايت



الشقيقان رايت

حققا لاول مرة معجزة الطيران الالى .. ولكنهما قوبلا بالجحود ، فلم يثبط ذلك من عزمهما وانصرفا الى تحسين الالة الطائرة التى اخترعاها حتى قطعا بها اكثر من ٢٤ ميلا »

عاملان حققا معجزة الطيران

فى خريف عام ١٩٠٣ ظهر مقال لعالم شهير يثبت اثباتا قاطعا أنه يستحيل على البشر أن يحلقوا فى الجو . وكان البشر منذ قرون تراودهم الأحلام أن يقلدوا الطير فى طيرانه. وحاول كثير من أصحاب العقول الراجحة ان يحلوا هذه المشكلة ولكنهم لم يستطيعوا

وانه لمن اعجب الأمور الا تمضي اشهر ثلاثة بعد ظهور مقالة ذلك العالم حتى يتحقق الحلم الذى كان الناس يرونه مستحيلا . وكان الفضل فى تحقيق معجزة الطيران راجعا الى اثنين من صانعى الدراجات ، هما الشقيقان رايت

عائلة دينية

شهدت ولاية أوهيو مولد « ولبر واورفيل » رايت . وكان والدهما قسيسا يدعى «ملتن رايت» وأمهما « سوزان كويرنر رايت » . وقد ولد ولبر فى السادس عشر من أبريل عام ١٨٦٧ فى مزرعة غرب ميلفيل ، واما شقيقه أورفيل ، فقد ولد فى التاسع عشر من اغسطس عام ١٨٧١ فى مدينة دايتون .. وكان أبوهما الطيب القلب احد رجال كنيسة الاخوان المتحدين ، مارس التعليم حينا فى كلية هارتسفيلد ، ثم قام فى عام ١٨٦٩ على تحرير جريدة دينية تنشرها هذه الهيئة الدينية فى دايتون . ثم اضطرت أسرة رايت الى الانتقال من موطنها وحلت فى مدينة سيدار رابيدز ، ثم فى رتشمند وهناك كان مهد طفولة الشقيقين ولبر ،، وأورفيل،

فقد نشأ هنـــاك فى رفقة أخويهما الكبيرين « ريشلين » و « لورين » وأختهما الصغرى « كاترين » ..

وفى شهر يونيـــه من عام ١٨٨٤ عاد الأب ملتـون مع أسرته الى دايتون واستقروا مرة أخرى فى منزلهم الأول وكان لا يزيد على كوخ خشبى به غرف سبع. **وهناك واصل ولبر دراسته** مستقلا بنفسه ، بعد أن انتهى من دراسته فى رتشموند ، وهناك كذلك استمر أورفيل فى دراسته الثانوية.

ولم تمض على هذه الاسرة الوادعة فى مسكنها المتواضع الا بضع ســـنوات حتى تفرق شملها بموت الأم العزيزة سوزان رايت، ثم ما هو الا قليل حتى تزوج لورين وريشلين، ونزحا ليؤسس كل منهما لنفسه أسرة . ولكن عرى المودة بين آل رايت زادت توثقا وتماسكا

ميكانيكية الحيوان

وكانت لهم فى الطابق الأسفل من المنزل مكتبة **وكان ولبر ، وارفيل** ، يعكفان فيها على الدرس ، اذ كانت تحوى ـ فيما حوت كتاب التراجم لبلوتارخ وطائفة من القصص والأساطير ، وكتاب جيبون عن انحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ثم تواريخ فرنســا وانجلترا . وقــد جذب انتباههم أكثر ما جذب كتاب **مارييه عن ميكانيكية الحيوان** . ثم الموضوعات العلمية فى دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف «شامبر» التي احتوتها المكتبة أيضــا . وكم من مرة قلب الصــبيان صفحات هذه الكتب منذ طفولتهم الاولى

وكان اورفيل رايت خلال سني مراهقتــه يهتم اهتماما بالغا بالطباعة . فاعد لنفسه مطبعة صغيرة وكان يقوم بأعمال شتى فى الطباعة والنشر بمساعدة شقيقه ولبر

يشتغلان بتجارة الدراجات

وفى سنة ١٨٨٨ ، شرع « أورفيل » فى استغلال خبرته

بالطباعة ، فاصدر مجلة أسبوعية صغيرة سماها « أخبار الجانب الغربي » واستأجر لها مكتبا خاصا ، ثم شجعه رواجها في عامها الأول ، فحولها الى جريدة يومية باسم «خبر المساء» ولكن هذه الطفرة ما لبثت أن قضت عليها بعد قليل !

ومضت بعد ذلك سنوات ، أمضاها الشقيقان في انتاج بعض المطبوعات ، ثم حولا نشاطهما المشترك الى تجارة الدراجات التي بلغ الاقبال عليها ذروته في ذلك الحين ، فأسسا «شركة رايت» لصنعها وبيعها فبدأت أعمالها في أواخر سنة ١٨٩٢ ، وانتقلت من نجاح الى نجاح سنة بعد أخرى . ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان لها مبنى فسيح خاص ، وغمرت الأسواق بمئات من مختلف أنواع الدراجات ، ومن بينها دراجة شعبية تحمل الشعار الخاص بالشركة، ولا يزيد ثمنها على ١٨ دولارا ، وهو يومئذ ثمن زهيد كفل لها الانتشار في جميع الانحاء !

دراستهما للطيران

لم يكتف الشقيقان : « ولبر » و « أورفيل » بنجاحهما الباهر في « شركة رايت للدراجات . فانشآ فروعا لها لانتاج الاطارات والجرارات والآلات الكاتبة والحاسبة وغيرها ، وقد لازمهما التوفيق والنجاح في كل هذه الأعمال !

على انهما كانا مولعين بدراسة الطيران ، وبدأ ذلك منذ حداثتهما حين أهدى اليهما والدهما لعبة هي نموذج صغير لطائرة ، صنعه فرنسي يدعى « بينو » من الخيزران والورق والفلين وخيوط من المطاط . وفي سنة ١٨٩٥ ، حدث أن اطلعا في احدى المجلات على مقال عن « طيران الانزلاق » كتبه الماني يدعى «أوتو ليلنتال» . فكان له أكبر الأثر في نفسيهما، وفي تغيير مجرى حياتهما ، اذ عاودهما الحنين الى هوايتهما المفضلة الاولى . ثم اشتد هذا الحنين حينما علما بعد قليل بمصرع « ليلنتال » المذكور أثناء تجربته طائرة صنعها بنفسه

محاولا الطيران بها . وسرعان ما قررا التفرغ لدراسة الطيران وما طرا عليه من تحسينات

واتصل الشـقيقان بالدكتور « لانجلى » مدير معهـد « سمبثون » فى وشنطن ليدلهما على المراجع التى تفيدهما فى دراساتهما وابحاثهما الجديدة ، فكتب اليهما فى يونيـة من سنة ١٨٩٩ يوصيهما بالاطلاع على كثير من الكتب والتقارير

وعكف الشقيقان « رايت » على دراسة كل هذه المراجع وغيرها ، ومنـاقشة ما تضمنته من بيـانات وملاحظات ومقترحات ، فتبين لهما ان مشكلة الطيران الكبرى تتمثل فى ضرورة الوصول الى طريقة لحفظ توازن الطائرة فى الجو ، ووجها كل عنايتهما واهتمامهما الى البحث والدرس واجراء مختلف التجارب لايجاد هذه الطريقة. وفيما كان «اورفيل» يقلب بين يديه صندوقا من الورق المقوى لاستخدامه فى بعض التجارب ، لاحت له فجاة فكرة لايجاد الطريقة المنشودة . وما شرح هذه الفكرة لشقيقة « ولبر » حتى أقرها ، ثم شرعا من فورهما فى تنفيذها ، فصنعا طائرة طولها خمس أقدام ، ووصلا جناحيها بخيوط يمكن بها تحريكهما وتغيير وضعهما بما يتفق مع درجة الضغط الجوى ، كما زودا هذه الطائرة بذيل فى مؤخرها ليعاون على ارتفاعها . وقد كللت بالنجاح تجربة الطائرة الجديدة باطلاقها فى الجو خارج مدينة دايتون وأمكن حفظ توازنها بتحريك جناحيها بواسطة تلك الخيوط !

اول تجربة للطيران

وفى سنة ١٩٠٠ ، اتصل « ولبر » بالمهندس « أوكتاف شانوت » صاحب كتاب « تاريخ الطيران الآلى » وكان يعيش فى شيكاغو حينذاك ، واجرى تجـارب عدة فى طيران الانزلاق . وكانت نتيجة هذا الاتصال أن وضع الشقيقان تصميما لطائرة زلاقة جـديدة ، واختارا لتجربتهـا منطقة « كيتى هوك » على ساحل كارولينا الشمالية ، مسترشدين

بآراء « شانوت » في هذا الشأن ، وبما انتهت اليه دراستهما لسرعة الرياح وتقلبات الجو . وهناك في هذه البقعة النائية ، الخالية الا من محطتين للانقاذ والأرصاد الجوية وبضعة أكواخ متناثرة للصيادين ، بنى الشقيقان معسكرا متواضعا ، نقلا أليه كل ما يحتاجان اليه لصنع طائرتهما الجديدة ، وشرعا في صنعها في سبتمبر من تلك السنة ، فجعلا هيكلها اطارا كالأضلاع صنعاه من خشب الحور ، وغطياه بالتيل الفرنسي الأبيض ، وزوداها بجناحين طول كل منهما ١٧ر٥ قدما قابلين للتحرك طبقا لنظريتهما السابقة ، كما زوداها بدفة متصلة بمقدمها ، وجعلا لها زلاقات في موضع العجلات لتنزلق بها على رمال الشاطىء

وأسفرت تجربة الطائرة عن نجاح طريقتهما المبتكرة لحفظ توازن الطائرة في الجو . وفي صيف سنة ١٩٠١ عادا الى « كيتي هوك » ومعهما زلاقة جديدة طول كل من جناحيها ٢٢ قدما ، ووزنها ٩٨ رطلا ، وهي أكبر حجما من زلاقة السنة السابقة ومساحة الرفع بها أوسع . وزارهما« شانوت» مشجعا ، ونجحت تجاربهما في هذا العام نجاحا عظيما كان الأول من نوعه في طيران الانزلاق . وقد تبين لهما من هذه التجارب أن طريقتهما المبتكرة لحفظ التوازن يجب أن يؤيدها ذيل عمودي للطائرة ، كما تبين لهما وجوب اعادة النظر فيما اعتمدا عليه من نظرية أساطين العلماء المختصين في تصميم الطائرة . وعلى هذا قاما باعداد جهاز هوائي بأعلى مبنى شركتهما ، هو صندوق خشبي مربع طول ضلعه قدم ونصف ، سلطا عليه من تحته مروحة آلية ، ثم أمضيا الشهرين الأخيرين من تلك السنة في اختبار ما يزيد على مائتين من الأجنحة المختلفة الأشكال والأحجام والأوزان للوقوف على حقيقة مدى تأثر أسطحها المنحنية بضغط الهواء . وكانت النتيجة أن كشفا عن أخطاء عدة في التصميمات السابقة ، ووضعا بدلا منها بيانات دقيقة كل

الدقة ما زال العمل يجرى على أساسها حتى الآن !

وفى خلال السنتين التاليتين ، أجـرى الشقيقان رايت ما يزيد على ألف تجربة فى طيران الانزلاق ، زادا خلالها طول جناح الطائرة عشر أقدام وأضافا الى دفتها ذيلا عموديا طبقا للحقائق الجديدة التى انتهيا اليها .. ثم حولا هذا الذيل الى دفة متحركة وسجلا نموذجا جديدا على هـذا الأساس ، فاصبح بذلك سر اتزان الطائرة حقاً محفوظا لهما

⊏⊐

بدأ الشقيقان بعدئذ خطوة مهمة اخـرى هى بناء طائرة تستطيع الارتفـاع فوق الأرض والتحليق فى الجو ، وقام مسبك دايتون باعداد هذه الطائرة طبقا للتصميم الدقيق الذى أعداه بمساعدة « شـارل تيلور » . وكانت زنتهـا حوالى مائتى رطل ، وقوتها نحو اثنى عشر حصانا ، وقـد وفقا الى تزويدها بمروحة خاصة من ابتكارهما ، وبلغ عرض جناحيها أربعين قدما ، ولكل منها طرف متحرك ، ومجموع زنتها براكبها نحو ٧٥٠ رطلا .. ثم عادا الى « كيتى هوك » لتجربتها هناك، فتمت التجربة فى ١٤ من ديسمبر سنة١٩٠٣ فتحركت الطائرة وفيها « ولبر » وجرت على خط حديدى أعد لذلك بأعلى تلال « كل ديفيل » ثم ارتفعت به فى الهواء وحلقت فترة قصيرة لم تزد على ثلاث ثوان ونصف ثانية ؛ ثم هبطت الى الأرض. وفى اليوم السابع عشر من ذلك الشهر، أعيـدت تجربتهـا ، وركبها فى هذه المرة الشقيق الثانى « أورفيل » فبقى بهـا فى الجو ١٢ ثانية ، برغم سرعة الريح حينذاك اذ كانت لاتقل من ٢٧ ميلا فىالساعة. وفى التجربة الثالثةاستمر تحليق الطائرة ٥٤ ثانية،وعند هبوطها أصيبت بصدع حال دون طيرانها حتى آخر ذلك العام

وهكذا حقق الشقيقان لأول مرة معجزة الطيران الآلى ،

فصار حقيقة واقعة ، بعد أن ظل قرونا وهو لا يزيد على حلم يراود خيال الانسانية !.. ولكن هذه المعجزة الخالدة لم تجد يومئذ ما تستحقه من الايمـان والتنويه بها ، فلم يصدقها أكثر الناس ، وأهملت الصحف شأنهـا فيما عدا صحيفة واحدة لم تسلم الأنباء التي نشرتها عنها من التحريف!

ولم يثبط ذلك الجحود من عزم الشقيقين العبقريين ، وضنا بوقتهما على اضاعته في مجادلة المكذبين والساخرين ، وانصرفا الى تهذيب الآلة الطائرة التي اخترعاها وادخال مختلف التحسينات على صنعها بحيث تصبح سهلة القيادة ويتسع نطاق الانتفاع بها . وما مضت سنه على ذلك حتى انتهت أبحاثهما وتجاربهما المتواصلة الى نصر باهر آخر ، فاستطاعا أن يحلقا بطائرتهما في الهواء خمس دقائق كاملات، مع التحكم في اتجاهها. ورآها الناس وهي ترتفع في الجو من الأبراج العالية التي أعداها لذلك ، ولم يستطيعوا أن يكتموا عجبهم واعجابهم حين شاهدوها تدور عدة دورات في الفضاء ثم تهبط الى ميدان التجربة بسلام !

وفي السنة التالية ، ادخل الشقيقان على آلتهما تحسينات عدة أخـرى ، شملت الدفة والمروحة والجنـاحين ، والآلة نفسها .. وكان عجب النظارة واعجابهم أشد حينما حلقت الطائرة في هذه المرة أكثر من نصف ساعة ، وقطعت خلال ذلك أكثر من ٢٤ ميلا ! .. ولم يسع الصحف بعد ذلك الا العدول عن سخريتها بالشقيقين المخترعين ، وكانت صحف أوربا ونواديها أكثر احتفالا وتكريما لهذا الاختراع الجديد المفيد ، ولكن لم تعره الصحف الأمريكية اهتماما جديا الا بعد ظهوره في امريكا نفسها بثلاث سنوات !

أول تجربة رسمية في امريكا

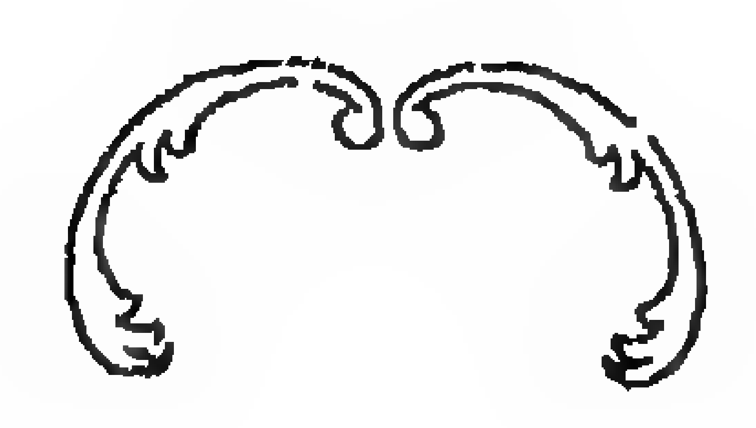
اجريت التجربة الرسمية الاولى لطائرة الشقيين «رايت» في امريكا ، بمدينة « فورت مير » في ولاية فرجينيا ، وركب

الطائرة « أورفيل » على مشهد من الجموع الحاشدة التى حرصت على مشاهدة التجربة

وتوالت تجارب طيران الشقيقين ، لحساب الجيش الأمريكى ، وكان الحد الأقصى لسرعة الطائرة ، طبقا للاتفاق ، أربعين ميلا فى الساعة ، ولكنهما وفقا الى تسجيل زيادة على ذلك الحد ، مقدارها ثلاثة أميال !

وفى اكتوبر سنة ١٩٠٩ ، انشئت فى أمريكا شركة لانتاج الطائرات جعلت مقرها فى نيويورك،واختارت لاقامة مصانعها مدينة « دايتون » حيث نشأ الشقيقان المخترعان

وفى الوقت نفسه بدأت الدول الاخرى تزيد فى عنايتها بهذه الصناعة الجديدة ، فانشئت شركة مماثلة فى فرنسا والمانيا .. ثم فى غيرهما من البلاد !



جورج کارفر



جورج كارفر

زنجي خرج الى الحياة محروما من كل شيء ، ولكنه استطاع بالرغم من ذلك
أن يخلد اسمه في سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية أجل الخدمات

الزنجى النابغ

كان مولده فى امريكا خلال الأيام السوداء للحرب الأهلية التى اجتاحتها فى منتصف القرن الماضى ، وكان هو نفسه زنجيا أسود ، وبدا حظه يومئذ أشــد سوادا من لونه ومن الظروف التى ولد فيها . فقد خرج الى الحيــاة محروما من كل شيء .. حتى من اسم الأسرة التي ينتمي اليها ، فأبوه غير معروف ، وامه « ماري » جارية زنجيـة مملوكة لصاحب مزرعة صغيرة فى قرية « دياموند جريف » فى ولاية « ميسوري » يدعى « موسى كارفر » .. وهكذا لم يكن هناك بد من الاكتفاء باختيار اسم « جورج » لكى يعرف به بين من ضم اليهم من العبيــد القليلين المملوكين لصاحب المزرعة !

وقبل أن يجاوز مرحلة الطفولة ، وقع فى ايدى جماعة من تجار الرقيق المنتشرين فى تلك الأصقاع حينذاك ،وكادوا يذهبون به الى حيث يبيعونه فى مكان آخر ، ولكن صاحب المزرعة وزوجته رق قلباهما له ، فأنقذاه فى آخر لحظة من ذلك المصير المجهول الرهيب .. ولم يكلفهما ذلك أكثر من حصان افتدياه به من النخاسين الذين اختطفوه !

ومنذ ذلك الحين ، صار الزنجي الطفل « جورج » موضع عطف خاص لدى سيديه ، وما كاد يشب عن الطوق ويبلغ السن التى تؤهله للعمل فى المزرعة مساعدا لزملائه العبيد الكبار ،حتي ضن به سيداه الطيبان علي العمل المرهق ،واكتفيا بأن عهدا اليه فى أعمال يسيرة أخرى ، كالاشتراك فى اطعام

الدواجن ، وتنقية حديقة المنزل من الحشائش الطفيلية .
وعرف زملاؤه موضعه عند صاحبي المزرعة ودالته عليهما ، فتركوه وشأنه ، يلهو ويلعب ويمرح فى الحديقة المجاورة للمزرعة . وعرف بينهم بهوايته المفضلة حينذاك ، وهى التجول فى الغابة ، والتأمل فى اشجارها واعشابها وصخورها، ثم العكوف بعد عودته على فحص ما جمعه من غرائب الحجارة والنبات ، واطلقوا عليه من اجل ذلك لقب « طبيب الغابة »

ولم يمض قليل حتى اعلن سيداه انهما اعتقاه ، وبذلك تحققت حريته من الوجهة الرسمية . ثم استمرا فى اغداق عطفهما عليه ، وعاملاه كأنه ولدهما ، واخذت السيدة « كارفر » فى تعليمه القراءة والكتابة ، مستعينة على ذلك بكتاب قديم فى الهجاء وجدته فى المنزل ، وكان اقباله شديدا على التعلم ، فما لبث قليلا حتى وعى ذهنه كل ما فى ذلك الكتاب من دروس !

والح الزنجى الصبى فى ان يواصل الدرس ، وتردد سيداه القديمان فى اول الامر ، اذ لم تكن هناك مدرسة يستطيع الالتحاق بها الا مدرسة مدينة « نيوشو » وهى تبعد اميالا من المزرعة ، ثم لم يسعهما ازاء الحاحه المستمر الا اجابة رغبته فسمحا له بالتوجه الى تلك المدينة كى يلتحق بمدرستها .
وقد سافر اليها وحده ، وبات ليلة فى طريقه اليها ، مفترشا كومة من العشب . على انه سرعان ما نسى كل ما لقيه من تعب وعناء ، حينما وصل الى المدرسة فى اليوم التالى ، وقدر له ان يقبل وهو الزنجى الاسود فى عداد تلاميذها البيض !

□

لم يكن لونه وحده ما اعترض طريق تعلمه ، فقد كان عليه ان يدبر امر معيشته فى خلال ذلك ، لكنه عرف بهمته وطموحه وصبره الجميل كيف يذلل جميع العقبات .

وقضى سنة فى تلك المدرسة الصغيرة استوعب خلالها كل ما كانت تمنحه لتلاميذها من الدروس ، ولم يحل دون احرازه هذا التقدم والتفوق على أقرانه البيض فيها ، أنه كان يقضى جانبا كبيرا من وقته فى العمل لكسب رزقه !

وكان فى أول الأمر يقوم بأعمال مضنية تافهة فى الوقت نفسه ، كالخدمة فى المنازل ومساعدة الطباخين والغسالين ، ثم بدأ يختار لنفسه أعمالا تتفق ورغبته فى الاستزادة من العلم ، فكان يعمل فى مساعدة الخياطين والنساجين وصانعى السجاد والقائمين بالتطريز والحفر ، ومن اليهم . وبذلك أتقن كثيرا من الصناعات الفنية ، بجانب الحصول على نفقات دراسته الاخرى ومعيشته

وبقى هذا شأنه فى البلاد الكثيرة التى رحل اليها وعاش فيها ملتحقا بمدارسها الابتدائية والثانوية،الى أن تركز عمله اخيرا فى انشاء مغسل خاص به فى البلد الذى يقيم به . واستطاع بحسن سياسته واتقانه عمله أن يجتذب الى مغسله كثيرين من العملاء ، مما زاد فى دخله ، وجعل فى استطاعته أن يعيش فى سعة من الرزق ، اذا هو اتخذ من هذا العمل حرفة له

غير أن همته العالية أبت عليه أن يقف عند هذا الحد ، وآنس من نفسه استعدادا للدراسة العليا ، فأرسل الى « جامعة هايلاند » طالبا الالتحاق بها ، ولم يتردد لحظة فى بيع مغسله ليحصل على أجر السفر اليها حين جاءه الرد بقبول طلبه !

وهناك فى مكتب المسجل بهذه الجامعة ، فوجىء الطالب الزنجى بانهيار كل ما شاده من صروح الآمال ، اذ تبين أن الجامعة قبلت طلبه من غير أن تفطن الى أنه زنجى ، فى حين انها لا تقبل فى كلياتها غير الطلبة البيض !

وكانت هذه الصدمة القاسية جديرة بأن تبعث اليأس الى قلب الطالب الزنجى الشاب ، ولكنه لم يكن يعرف اليأس ،

فتلقى الصدمة بروح قوية عالية ، بل حرص على انقاذ مسجل الجامعة من مازقه الحرج ، فسحب طلب التحاقه المقبول بها ، ثم انصرف بعد أن حياه مبتسما شاكرا ، مع أنه لم يكن يملك حتى قوت يومه ، اذ انفق كل ما حصل عليه من بيع مغسله في أجر سفره على أمل الالتحاق بالجامعة !

وفي السنة التالية ، سنة ١٨٩٠ اتيح للطالب الزنجي الشاب أن يحقق امنيته الكبرى ، فقبل طلب التحاقه بجامعة « سمبسون » الحرة في ولاية « ايووا » . ولم يقف توفيقه عند حد قبوله بها برغم زنجيته واضطراب دراسته السابقة ، بل شفع له ذكاؤه وحرصه الشديد على التعلم ، فسجل اسمه في كلية الآداب ، وسمح له في الوقت نفسه بأن يدرس البرامج التي تتفق مع ميوله ومؤهلاته في كلية العلوم !

وفي قسم الفنون بكلية الآداب ، وجد جورج كارفر معونة صادقة كبيرة من الآنسة أتابد Etta Budd رئيسة القسم ، فأمضى السنوات الثلاث التي لبثها بالجامعة ملازما حلقات دروسها الفنية ، حيث أهله استعداده للتقدم يوما بعد يوم في ميدان الفن . واستطاع في سنة ١٨٩٣ عرض مجموعة من لوحاته في معرض شيكاغو الدولي فكانت محل التقدير والتكريم !

وكتب جورج كارفر الى بعض خلصائه من أهل قريته واصفا شعوره بالغبطة والفخر لهذا النجاح الذي أحرزه ، كما أثنى على استاذته الآنسة اتابد أجمل الثناء ، وقال عن أيامه الأولى بالجامعة : « انها كانت مليئة بالتعب والشقاء ، وقد كدت أهلك جوعا لعدم الاقبال على المغسل الذي انشاته لأعيش منه ، اذ انصرف عني الناس لغير سبب سوى لوني الأسود ، ولكني لم أيأس ، ومضيت في سبيلي صابرا مثابرا حتى تبدلت الحال ، فأقبل العملاء على مغسلي ، وصار الجميع يلقونني بالبشر والترحاب في الجامعة ونادى الموسيقى وملاعب الكرة وغيرها من المنتديات العامة »

وسألته الآنسة اتابد عما يعتزم عمله بعد ان اتم دراسته الفنية ، فلم يجد أول الأمر ما يجيب به عن هذا السؤال ؛ ثم ما لبث قليلا حتى وجد الجواب ، وعجب من نفسه كيف غفل عنه فى حين انه كان يفكر فيه ليل نهار .. ولم يكن العمل الذى اعتزم القيام به بعد اتمامه دراساته الفنية الا دراسة العلوم الزراعية والميكانيكية ، لكى يستطيع أن يقدم خدمات نافعة لقومه السود !

وهكذا التحق جورج كارفر بكلية الزراعة فى جامعة أيووا، وكان من حسن طالعه ان توثقت صلاته فيها بالأستاذ جيمس ولسن مدير المحطة الزراعية، والاستاذ هنرى كانتول والاس ، أستاذ الزراعة بالكلية ، فلقى منهما كل عون وتشجيع وتقدير ، وبقيت صلته الوثيقة بهما اكثر من ثلاثين عاما بعد تخرجه فى الكلية وتعيينه مدرسا بها سنة ١٨٩٤

لبث جورج كارفر حوالى سنتين مدرسا فى الكلية التى تخرج منها ، وقد كان خلالهما موضع الثناء المستطاب من ادارة الجامعة وأساتذتها وطلبتها ، لما لمسوه جميعا من اخلاصه فى عمله ، وحسن معاملته لهم . وفى خلال السنة الثانية تحققت امنيته الكبرى اذ كتب اليه معهد توسكيجى Tuskegee يعرض عليه رياسة قسم الزراعة الذى انشىء فيه . فقبل هذا العرض فورا . وكان هذا المعهد قد انشىء حديثا ليكون مركزا لتدريب الشبان المثقفين الزنوج واعدادهم لتعليم ابناء جلدتهم وتثقيفهم

ولو ان رجلا آخر غير كارفر عين رئيسا لذلك القسم ، لما رضى ولما استطاع البقاء فيه شهرا واحدا ، ذلك لأن مجموع الطلاب الذين تيسر التحاقهم بالقسم المذكور لم يكن يزيد على ثلاثة عشر طالبا ، لا يجمع بينهم سوى اللون والرغبة فى

الدراسة . وهم بعد ذلك مختلفون كل الاختلاف من حيث الاستعداد !

ولكنه كان فيما بينه وبين نفسه قد اقتنع بانه وضع قدمه فى أول الطريق الصحيح الى الغاية التى وهب حياته للعمل على بلوغها . ولم يكن غير الموت شيء يستطيع أن يثنيه عن المضى قدما فى هذا الطريق

وسرعان ما أعد كارفر برنامجا مرنا للدراسة يلائم طلبة القسم جميعا ، ولم تقف ضآلة الميزانية حائلا بينه وبين تزويد القسم بعمل بديع مفيد ، فلم تمض اسابيع حتى أنشأ هذا المعمل ، مستعينا بما وجده من الأشياء المهملة فى مخازن المعهد والمناطق المجاورة له من قطع السلك والحبال ، والواح الصفيح ، والزجاجات القديمة المكسورة والجرائد المهملة وما اليها ، ومجموعات من الحشرات المنتشرة فى تلك الأصقاع

وكان يعامل تلاميذه كانهم اخوته الصغار ، فيشعر كل واحد منهم بانه يختصه بكل رعايته وعطفه ، ولا يدخر جهدا فى سبيل تدريبهم على تطبيق ما يزودهم به من علم غزير ، أو فى سبيل الترفيه عنهم لتجديد نشاطهم وتحبيب العمل اليهم . وبذلك كله اخذ عدد الطلاب فى القسم يزداد عاما بعد عام ، كما اخذ المعمل فى الوقت نفسه ينتقل من حسن الى احسن ، بفضل جهوده المتواصلة ليل نهار !

▭

وبعد سنوات ، راى كارفر أن عمله فى المعهد وحده لا يكفى لبلوغ الغاية التى ينشدها ، فأخذ يطوف من حين الى حين بمناطق الجنوب ، حيث يحضر اجتماعات الفلاحين فى قراهم النائية واسواقهم وحقولهم ، وهناك يتبسط معهم فى الحديث ، ويزودهم بارشاداته ونصائحه الزراعية المفيدة،

ويدعوهم الى زيارة مركز الأبحاث الزراعية الذى أنشأه فى المعهد ، لكى يقفوا على مزيد من المعلومات النافعة لهم

وفى هذه الرحلات والزيارات المتعددة ، أخذ كارفر يدعو الفلاحين الى زراعة محصولات أخرى كالبطاطا والفول بدلا من الاكتفاء بزراعة القطن ، مؤكدا لهم أن تعدد المحصولات المزروعة مما يعود عليهم بفائدة أكبر ، وأنه فى الوقت ذاته ضرورى لضمان التربة وجودتها وقدرتها على الانتاج

وكانت دعايته هذه لا تجد قبولا من الفلاحين الذين يستمعون اليها ، لخروجها على ما ألفوه ، ولخشيتهم عواقب الاقدام على التجديد . ثم شاء القدر أن استجاب له بعضهم ، فزرعوا مساحات صغيرة من أرضهم فولا بدلا من القطن ، فكان ربحهم من ذلك كبيرا .. وشجعهم هذا كما شجع غيرهم فزادت المساحة المزروعة فولا فى السنة التالية الى حد كبير ، بحيث ضاقت الأسواق عن تصريف محصوله الكثير ، وضاعت بذلك جهود زارعيه وأصيبوا بخسارة فادحة بدلت اعجابهم بكارفر سخطا ونقمة عليه !

وفى سنة ١٩٢١ ألفت فى وشنطن لجنة لبحث الوسائل الكفيلة بحماية المحصولات الزراعية ، ودعى كارفر الى اجتماعاتها ، حيث قوبل بفتور ، ولم يخف أكثر الأعضاء سخريتهم من الزنجى الكهل الطويل الذى دخل عليهم مثقلا بأحمال من الحقائب والغرارات ، وحينما طلب الكلام ليدلل على صحة الفكرة التى يدعو اليها،لم يسمح له بأكثر من عشر دقائق ، حتى لا يضيع وقت أعضاء اللجنة الثمين

ولم يزد كارفر على أن ابتسم شاكرا للجنة ، ثم فتح حقائبه وغراراته ، وأخذ يخرج منها نماذج عدة مختلفة مما استخرجه فى معمل المعهد من مشتقات الفول والبطاطا . وقد بلغ عددها ١٤٥ بين دقيق وقهوة ولبن وجبن وطلاء للوجه ومخللات ودهان للشعر ، وحبر ، وطلاء للبيوت ، وغيرها

وهكذا اضطر اعضاء اللجنة الى الاصغاء بكل جوارحهم الى الشرح الذى القاه عليهم العالم الزنجى الكهل الطويل ، عن كل مستخرج من هذه المشتقات . وامتد حديثه لا عشر دقائق كما قرروا اول الامر ، بل حوالى ساعتين !

ولم تعد المشكلة بعد ذلك مشكلة ايجاد اسواق للمحصولات الجديدة التى أشار كارفر بزراعتها الى جوار القطن ، بل صارت منذ تلك الساعة هى مشكلة العمل على مضاعفة تلك المحصولات للانتفاع بتلك المشتقات !

واستطاع كارفر بعد ذلك أن يكتشف فى معمله كثيرا من الخواص والمنافع التى كانت مجهولة للمحصولات الزراعية المختلفة ، فاستخرج من القطن كتلا للرصف ، ومن قشور البنجر والأعشاب أدوية كثيرة نافعة ، كما استخرج المطاط من القمامة ، ومن التربة الطينية فى ولاية الباما صنوفا من الأصباغ ومواد التلوين التى كان لها اكبر الأثر فى قيام مصانع كبيرة للطلاء ، جمعت ثروة طائلة بفضل ذلك الكشف العظيم!

▭

استمر كارفر خمسين سنة ، يواصل جهوده العلمية المثمرة التى عادت على أمريكا كلها بأكبر الفوائد الزراعيـــة والصناعية

وفى سنة ١٩٤٣ توفى جورج كارفر ، بعد أن خلد اسمه فى سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية أجل الخدمات . وهناك فى رحاب معهد توسكيجى الذى قضى حياته عاملا فيه يقوم متحف صغير يحمل اسمه العظيم ، ويضم مئات المنتجات النافعة التى اكتشف استخراجها من مواد مهملة تافهة ، كما يضم أمثلة للصناعات اليدوية الدقيقة التى كان مولعا بها . وفى ناحية من المتحف عرضت لوحاته الفنية التى ابدعها وصور فيها أحلامه وأمانيه لخير بلاده وخير البشرية جمعاء . وقد شاء القدر فتحققت فى حياته اكثر تلك الأحلام!

ابراهام لنکولن



ابراهام لنكولن

الفلاح الذى امتحنته الاقدار ـ وهو ما يزال فى صباه ـ بالوان مختلفة من الشقاء والحرمان ولكنه استطاع أن يشق طريقه بين الاشواك وان يصبح رئيسا للولايات المتحدة

الفلاح الذى رأس الولايات المتحدة !

فى سنة ١٨١٦ م ، وصلت الى محلة « جنتز فيل » فى اقليم « أنديانا » شمال غربى أمريكا ـ أسرة صغيرة مؤلفة من اربعة أفراد ، هم : « توماس لنكولن » عميدها الفلاح الأمى الأجير ، وزوجته الضعيفة البنية الشاحبة الوجه « نانسى هانكس » وابنهما « ابراهام » الذى لم يجاوز السابعة من عمره ،وابنتهما «سارة» التي تصغره بسنتين أو ثلاث سنوات

وكان واضحا ان هذه الأسرة المهاجرة من اقليم «كونتكى» البعيدة تعانى بجانب فقرها المدقع أثقالا أخرى من الجهد والقلق والأعباء ، فقد طال سفرها فى القفر الموحش المترامى المخيف الذى قطعته ، ولم يكن لها من طعام خلال ذلك السفر الطويل الشاق سوى ما يوفق عميدها الى صيده من طير او حيوان !.. على انها برغم ذلك كان عليها أن تواجه ألوانا أخرى من التعب والعناء ، قبل أن تستقر فى كوخها الجديد ، الذى أقامته لنفسها ، فى اليوم الأول لوصولها ، من جذوع الأشجار وفروعها ، متخذة من ورقها الجاف فراشا ، ومن بقايا الجذوع والغصون وسائد ومقاعد ومناضد !.. ثم بدأ عميد الأسرة منذ اليوم التالى جهاده الجديد فى الزراعة وما اليها ، ليكفل لهـا القوت .. والاستقرار المنشود فى الوطن الجديد !

والدته تعلمه القراءة والكتابة

وهناك فى جانب من الكوخ البدائى البسيط ، وضع الوالدان كيسا من التبن لينام فوقه ابنهما الحبيب «ابراهام»

او « آب » كما كانا يدعوانه من قبيل التدليل . ولم يكن فى طاقتهما أن يزوداه عدا ذلك بغير الضرورى من الغـذاء ، أما الغطاء والكساء والحذاء وما اليها ، فكان حسبه منهـا سراويل من جلد الغزال ، لا تفـارق بدنه ليل نهـار . وأما تزويده بالتعليم ، فلم يكن هناك مكتب يمكن ارساله اليه كالمكتب الأولى المجانى الذى أمضى فيه شهرين فى « كونتكى» قبـل ان تفـادرها الأسرة ، ولكن امه كانت تعرف القراءة والكتابة ، فعز عليها أن يشب أميا كأبيه ، واخذت على عاتقها ان تعلمه فى أوقات فراغها بقدر ما تستطيع !

ولم يكن لدى الام اى كتاب غير نسخة قديمة من الانجيل، فاستعانت بها على اداء تلك المهمة ، وكان للذكاء «آب» ورغبته القوية فى التعلم ، فضلا عن فرط تعلقه بوالدته ، أكبر الأثر فى تيسير مهمتها ، فسرعان ما أتقن القراءة والكتابة ، ثم اخذ فى حفظ ما تيسر من الانجيل عن ظهر قلب، فما مضت سنتان وأوشك أن يتم العاشرة حتى كان قـد حفظ الكثير من آياته، ووعى معانيها واهدافها، واصبح لهذا مرموقا بالاعجاب والتقدير من والديه وجميع عارفيه !

عامل فى مزرعة

ابت الأقدار الا ان تمتحن الصبى الصغير الفقير ، بلون جديد من الشقاء والحرمان ، فما اتم العاشرة من عمره حتى فجع بوفاة والدته الحبيبة الحنون

ومنذ الشهور التالية ، بدأ «آب» جهاده فى سبيل العيش، عاملا فى المزارع المجاورة لكوخ الأسرة ، لقاء اجر زهيد ، ولكن شغفه بالقراءة لم يزايله ، واتيح له ان استعار كتاب « طواف الحاج » للمؤلف الانجليزى « بانيان » فقراه مثنى وثلاث ورباع حتى علق بذاكرته اكثر ما فيـه ، ثم اسـتعار كتبا اخـرى وقراها على هـذا النحو ، وفى مقدمتها « خرافات ايسوب» . و « روبنسون كروزو »

ووقع فى أثناء ذلك حادث كان له أكبر الأثر فى تشجيع الصبى على الاستزادة من العلم والمعرفة ، فقد تزوج والده ، وجاءت الزوجة الجديدة الى الكوخ ، ومعها أطفالها الثلاثة من زوجها الأول ، وقطع مختلفة من الأثاث ، وشىء غير قليل من الفراش والأدوات المنزلية . وهكذا أتيح له ــ لأول مرة فى حياته ــ أن ينام فى فراش مريح . ووجد من عطف ربة الكوخ الجديد عليه وعلى شقيقته ما الهج لسانه بالثناء عليها والتحدث بفضلها حتى آخر حياته !

نبوءة عجيبة

ووقعت فى يده بعد ذلك نسخة من كتاب «حياة وشنطن» زعيم الثورة الأمريكية ، فاستأثرت باعجابه قصة تلك الثورة وما قام به ذلك الزعيم العظيم من أعمال خالدة ، وبدأت الأمانى الكبار والأحلام الذهبية بالمستقبل المجيد تثير خياله ، وتملك عليه تفكيره . وحدث يوما أن عنفته جارة للأسرة على أثر مشاجرة بينه وبين ولدها ، فقالت له ساخرة :

ــ ماذا تظن أن ستكون فى المستقبل ؟

فما كان جوابه الا أن قال لها على الفور : « أظن انى سأكون رئيسا للولايات المتحدة ! »

وقد اكسبته أعماله اليدوية قوة بدنية كبيرة ، ولكنه لم يكتف بذلك فكان يخصص جانبا من أوقات فراغه القليلة لممارسة الألعاب الرياضية ، حتى صار من البارعين المعدودين فى القفز والمصارعة وغيرهما !

دراسته للقانون

وحينما بلغ الثامنة عشرة من عمره سنة ١٨٢٧ ، وجد لنفسه عملا آخر ، بدا له فى أول الأمر اسهل وأحسن ، وكان هذا العمل الجديد هو القيام بمهمة البيع فى متجر بالقرب من القرية ، ولكنه ما لبث قليلا حتى ضاق به فتركه غير آسف

عليه . على ان الفترة التى امضاها فى ذلك العمل افادته من جهة اخرى ، اذ قرأ خلالهـا كتاب « القوانين المعدلة لولاية أنديانا» فاتجه منذ ذلك الحين الى دراسة القانون،وحرص فى الأشهر التالية على قضاء الأيام التى يخلو فيها من العمل فى التوجه الى المحكمة التى كانت تعقد على مسافة خمسة عشر ميلا من القرية. فكان يقضى هناك أكثر النهار فى تتبع القضايا المعروضة،والاستماع لما يدور فيها من المرافعات والمناقشات!

ومن طريف ما يذكر ، انه استمع هناك يوما لمرافعة بليغة من المحامى « جون بريكنردج » فأعجب بأسلوبه ، وما كاد الحكم يصدر ببراءة موكله المتهم بالقتل ، حتى اندفع من بين جموع النظارة ومد اليه يده يريد مصافحته وتهنئته ، ولكن ذلك المحامى المشهور لم يلتفت اليه ، وانصرف غير عابىء بالفتى الريفى الفقير المتحمس له !

وفى السنة التالية ، أتيح للفتى وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره أن يغادر قريته لأول مرة الى مدينة « أورليان » اذ استأجره صاحب سفينة ذاهبة اليها لحراسة ما بها من بضاعة ، فى مقابل دولارين فى الاسبوع عدا الطعام . وقد كان لهذه الرحلة اعمق الأثر فى نفس « ابراهام لنكولن » الفلاح الأجير الفقير الطموح ، ففى خلالها وقف بنفسه على الوان الحياة التى يحياها كبراء المدن وأثرياؤها ، وشاهد للمرة الاولى أسواق الرقيق حيث يساق بعض الناس فى السلاسل والأغلال ، وينتقلون بالبيع والشراء من سيد الى سيد ، يفعل بهم ما يشاء،دون أن يكون لهم أى حق فى الرفض او المعارضة وهكذا نبتت فى ذهنه فكرته السامية الخالدة التى وقف حياته على الدعاية لها وتنفيذها .. فكرة تحرير العبيد !

عودته اجيرا بالمزارع والمتاجر

لم تطل بعدئذ اقامة اسرة لنكولن بمحلة « جنتزفيل » اكثر من سنتين ، فقد رأى « ابراهام » أن ينتقل بالأسرة

الى ولاية « الينوى » . وحملتهم جميعا الى هناك عربة ريفية كبيرة يجرها اربعة ثيران ! قضت أياما وليالى فى سفر شاق رهيب !

وما حطت الأسرة رحالها فى موطنها الجديد حتى أخذ « ابراهام » فى اقامة كوخ لها من جذوع الشجر ، ومن هذه الجذوع نفسها اقام سياجا حول قطعة من الأرض البكر ، ثم بدأ يستصلحها للزراعة ، ويلقن اخوته من ابيه خير الوسائل لبلوغ هذه الغاية . ولما اطمأن الى قيامهم بزراعة الأرض استأنف العمل أجيرا فى المزارع المجاورة ، مخصصا الجانب الأكبر من أجره لمساعدة الأسرة ، بل كثيرا ما كان يختصها بكل ما يحصل عليه من أجر عمله اليومى العادى ، ثم يقوم بأعمال اضافية مجهدة لكى يحصل على ما ينفقه فى شئونه الخاصة كشراء الملابس والكتب وما اليها . وقد اضطر لكى يحصل على سراويل جديدة فى تلك الأيام الى ان يقوم فى أوقات فراغه بقطع ما يزيد على ألف غصن من أغصان الأشجار !

وعلى هذا النحو ، قضى أكثر من عام ، ثم اتفق معه صاحب مطحن بالمنطقة على أن يتولى انشاء سفينة نقل لحسابه ، ثم الاشراف على أول رحلة لها الى مدينة « أورليان » . فقام « ابراهام » بهاتين المهمتين خير قيام ، وبلغ من اعجاب صاحب المطحن بخبرته ونشاطه وأمانته أن عينه مديرا لمتجر يملكه فى « نيوسالم »

زواجه واشتغاله بالمحاماة

فى ذلك الحين ، كانت ثورة الهنود الحمر قد بلغت أشدها بزعامة « الصقر الأسود » رئيس قبائل « الساكس » . ولم يجد حاكم الولاية بدا من اعلان الحرب على أولئك الثائرين وفتح باب التطوع للاشتراك فيها . فأجمع المتطوعون من أهل « نيو سالم » على اختيار « ابراهام » قائدا وزعيما

ومرشدا لهم. وكان هو عند حسن الظن بهمن أولئك المواطنين المتطوعين ، فقاد كتيبتهم من نصر الى نصر ، وكانت خططه الحكيمة موضع تقدير الجميع . فلما انتهت الحملة وعادوا لبلدتهم ، ثم بدات الانتخابات العامة للمجلس التشريعى ، ابوا الا أن يرشحوه لعضوية المجلس ، وكان عدد الناخبين منهم ٢٨٠ فانتخبه من بينهم ٢٧٧

وكان رئيس المساحة بالمنطقة فى حاجة الى مساعد فعرض هذه الوظيفة على « ابراهام » واعطاه كتابا فى المساحة ليدرسه ، فحفظه عن ظهر قلب فى ستة اسابيع !

على انه كان قد وطد عزمه على الاشتغال بالمحاماة، فعكف على دراسة كل ما تصل اليه يده من كتب القوانين، واتفق فى ذلك الحين ان انقطعت اخبار خطيب الآنسة « آن » ابنة المستر « رتليج » صديقه الذى أسكنه بمنزله ، وكان هذا الخطيب قد سافر الى « نيويورك » لقضاء مصلحة له فيها بعد ان حدد موعد الزفاف ، ثم ارسل من هناك خطابين ؛ ضمن احدهما نبأ مرض أبيه ، ونعاه فى الخطاب الثانى ؛ ثم لم يعد احد يعرف عنه شيئا بعد ذلك ، الى ان فات موعد الزفاف . وقد شعر « ابراهام » بالعطف على الفتاة الحسناء ابنة صديقه ، وما لبث هذا العطف ان تحول الى حب قوى ، جعله يطلب يدها لنفسه ، فرحب والدها بذلك . ولم تكن « آن » اقل رغبة فى قبول الخطيب الجديد ، ولكنها تمنعت اول الأمر محتجة بان خطيبها الأول قد يعود فجأة بعد قليل فلما انقضى عام على انقطاع اخباره ، لم تجد بدا من اعلان موافقتها على الزواج بابراهام ، ثم كانت له نعم الخطيبة الوفية الملهمة. وسرعان ما اتم دراسة القانون واستوعب كل المؤلفات فيه ، ثم أسعده الحظ فى الانتخابات النيابية التالية ، فانتخب عضوا فى المجلس التشريعى عن الولاية

مكافحته لتجارة الرقيق

شهدت سنة ١٨٤٦ نصرا جديدا لابراهام لنكولن المحامى القدير ، فقد فاز فى انتخابات « الكونجرس » فوزا منقطع النظير ، وطارت شهرته فى السنين الأربع التاليات بوصفه نائبا جريئا عقد له لواء الزعامة فى معارضة اعلان الحرب على المكسيك ، وفى مكافحة تجارة الرقيق

ولكن جهاده وانتصاره فى سبيل تحرير العبيد لم يلق ما يستحقه من النجاح الكامل المنشـود ، فانتهى الأمر فى سنة ١٨٥٠ بموافقة المجلس على تسوية غير كاملة ، وذلك بالغاء الرق فى كاليفورنيا وكولومبيا ، مع ابقاء الحق لصاحب العبد الآبق فى اعتقاله واعادته للرق والعبودية عنده حتى اذا كان فى ولاية تحرم تجارة الرقيق !

انتخابه رئيسا للولايات

وفى مايو سنة ١٨٦٠ دعى الى مؤتمر الحزب الجمهورى فى «سبرنجفيلد» وكانت الحماسة فى استقباله بحيث لم يستطع بلوغ المنصة الا بشق النفس ، ثم لم تمض على ذلك عشرة أيام حتى اعلن فوزه فى ترشيحات المؤتمر الوطنى بشيكاغو ضد « وليام سيوارد » ممثل نيويورك فى ذلك الحين . وترقب الجميع نتيجة المعركة القادمة لانتخابات رياسة الجمهورية بين « لنكولن » و « دوجلاس » بصبر نافد ، وما أعلن فوز « لنكولن » على خصمه العتيد حتى عمت البلاد موجة من الاضطرابات انتهت باعلان العصيان فى الولايات الجنوبية

وقد حرص « لنكولن » عند رحيله من « سبرنجفيلد » الى « وشنطن » على ابقاء اسمه على لوحة مكتب المحاماة . وكان اشد ما يكربه أن الخزانة العامة خاوية ، وأن الحرب الأهلية توشك أن تشب بسبب تمرد الولايات الجنوبية ، فاعلن فى خطبة افتتاح المجلس النيابى ان الحكومة لن تهاجم

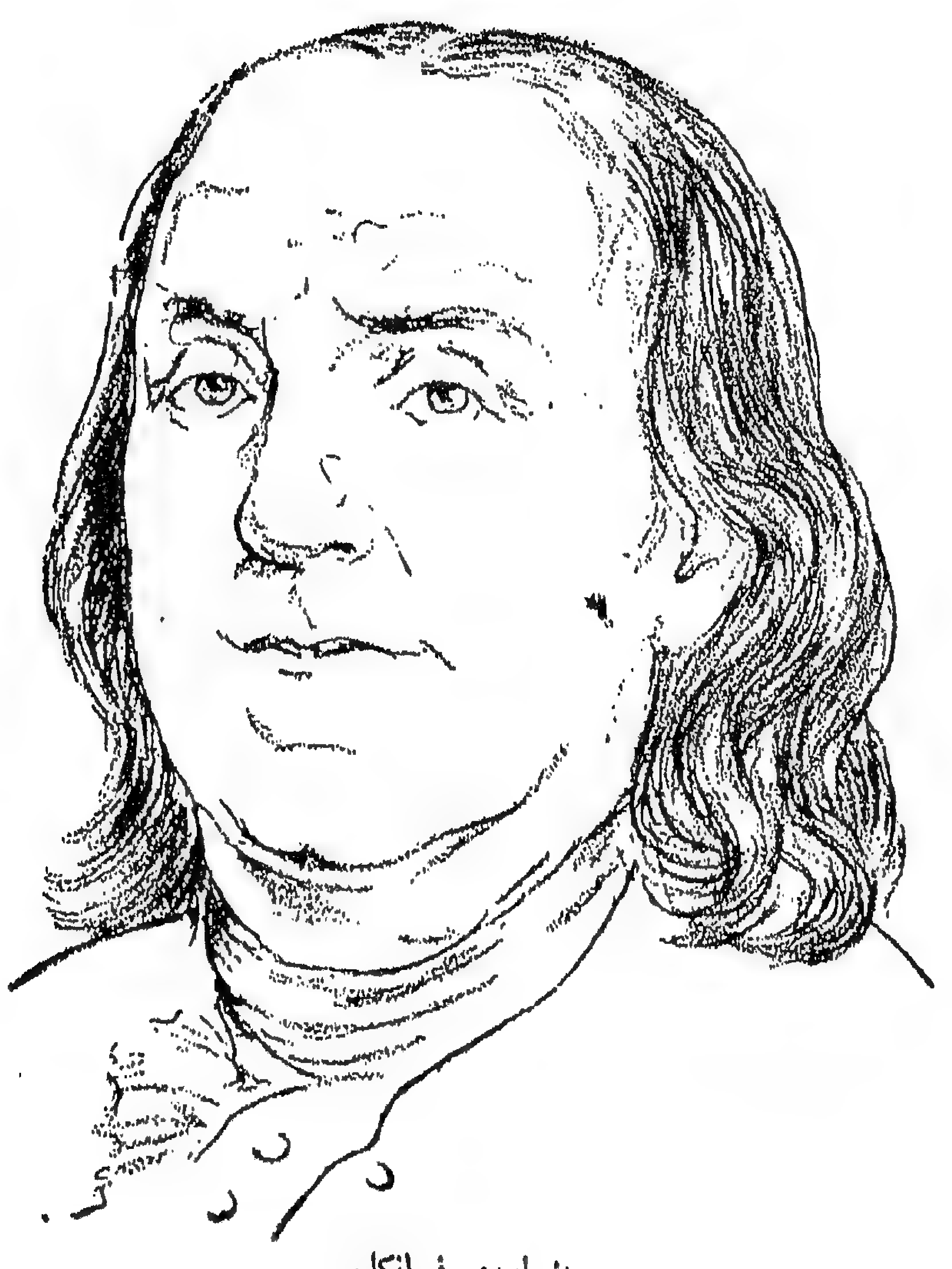
المتمردين فى الجنوب الا اذا بداوا مهاجمتها ، ثم اخذ يكرر الدعوة الى الاتحاد . ولكن الولايات الجنوبية لم تلبث ان هاجمت قلعة « فورت سومتر » فى ابريل سنة ١٨٦١ فبدأ القتال بين الفريقين من ذلك الحين ، وبقى الصراع يشتد ، وتزداد الخسائر ، فى الارواح والأموال . وكانت انجلترا تساعد الجنوبيين ضد الحكومة فى الشمال حرصا منها على مصالحها الخاصة عندهم . وكان « ويلى » ابن الرئيس لنكولن احد الضحايا العديدين فى تلك الحرب الضروس ، فكانت فجيعته فيه عظيمة ، لكنه بقى بعدها يعلن عطفه الشديد على المقاتلين جميعا من الشماليين والجنوبيين على السواء ، لأن هؤلاء وهؤلاء مواطنوه !

وفى سبتمبر سنة ١٨٦٢ ، اصدر « لنكولن » بيانه الخالد الذى ضمنه قرار تحرير اربعة ملايين من الرقيق ، وما اقبل العام التالى حتى اشتد أوار القتال بين الفريقين ، ووقف « لنكولن » يخطب الناس قائلا : « ان هذه الأمة ستشهد مولدا جديدا لحريتها ، وستكون حكومتها حكومة الشعب ؛ وستبقى خالدة أبد الدهر »

وفى العام التالى ،احرزت جيوش الشمال انتصارات كبيرة، واعيد انتخاب « لنكولن » رئيسا للجمهورية ، فأعلن فى خطبة افتتاح البرلمان أن الحرب الأهلية يجب ان تنتهى عاجلا ، لكى تبدأ البلاد عهدا جديدا سعيدا من السلام والعدل والرخاء وحسن العلاقات بالشعوب الاخرى

وفى التاسع من ابريل سنة ١٨٦٥ تحققت آمال لنكولن العظيم ، فانتهت تلك الحرب ، وعادت الى الأمة الأمريكية وحدتها ، وزالت معرة الرق عن جبينها

بنيامين فرانكلين



بنيامين فرانكلن

اتخذ لنفسه منذ صباه شعارا هو « أن يعمل ويتعلم » وكثيرا ما آثر أن يبيت طاويا ليشترى كتابا جديدا يقرؤه بدلا من طعام العشاء

الناشر العبقرى

ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٧٠٦ بمدينــة « بوسطن » • وكان الابن الخامس عشر من سبعة عشر ولدا رزق بهم أبوه « يوشيا فرانكلين » العامل فى صناعة الشمع والصابون ، فكان طبيعيا حين بلغ العـــاشرة من عمره أن اكتفى والده بتعليمه القراءة والكتابة وألحقه بأحد المصانع ليتدرب فيه على عمل يعيش منه • ولكن الصبى بنيامين كان أكثر طموحا وأملا فى المستقبل فلم يرض لنفســـه أن يكون نجــارا أو جدادا أو بناء أو صانع أحذية كما أراد له والده ، واقترحت أمه اعداده ليكون قسيسا ، فرضى بذلك حينا ، ثم عزف عن دراسة الدين

عامل فى مطبعة

وحاول أبوه أن يدربه على العمل معه فى صنع الشمع ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضا ، وسرعان ما شعر الوالد بأن ابنه الصغير يحاول الهرب من المنزل كما صنع اخوته من قبل ، فأعفاه من العمل معه ، وأجابه الى رغبته فى تعلم فن الطباعة •وكان ابنه الاكبر « جيمس » قد سبق الى تعلم هذا الفن الجديد وأنشأ لنفسه مطبعة صغيرة ،. فألحقه بالعمل فيها ، وتعهد «جيمس» بأن يجعل من أخيه طابعا ممتازا فى خلال تسع سنين !

وكان هذا العمل الجديد شاقا مضنيا للصبى الصغير ، وزاد فى مشقته أن « جيمس » كان حاد الطبع ، شـــديد

الوطأة ، لا يكتفى بتدريبـــه على صف الحروف وادارة آلة الطبـــاعة ، وتفهيمه دقائق الصناعة وأسرارها ، بل يكلفه فوق ذلك كله كثيرا من الاعمـال المرهقة داخـــل المطبعة وخارجها ، ولا يتورع عن ضربه بقسوة اذا لاحظ عليه أى اهمال أو ملال • على أن « بنيامين » لم يبد برغم ذلك تأففا أو تبرما ، بل مضى قدما فى الطريق التى اختارها لنفسه ، ولم يكتف بما لقى من ترقية جزاء مثابرته ودقته وخبرته ، فصار يقضى أمسياته فى المطالعة للتزود بما يحتاج اليه من مختلف العلوم والفنون والآداب• وساعده ذكاؤه وطموحه، فلم يمض الا قليل حتى أحس فى نفسه قدرة على الكتابةفى الموضوعات التى كانت تنشر فى الصحف الثلاث التىكانت تصدر فى أمريكا حينذاك ، وفى مقدمتها صـحيفة « بريد انجلترا » التى يصدرها ويشرف على تحريرها أخوه • على أنه خشى ألا يشجعه أخوه على المضى فى هذا الطريق خشية أن يلهيه عن الطباعة ، فكتب أول مقال له ولم يوقع عليه ، ثم وضعه خفية فى مكتب أخيه ، فلما قرأه هذا أعجب به ونشره فى صحيفته وهو يحسب أنه لكاتب كبير !

رحلات لطلب الرزق

ولم تقف همة الطابع الشاب عند حد اجادة الكتـــابة النثرية ، فحاول قرض الشعر أيضا ، وأصـــاب فى ذلك نجاحا غير قليل • ثم اتفق أن علم أبوه باتجاهه الى الكتابة، فسارع اليه غاضبا ناصحا له بالعدول عن هـذا الاتجاه • وفى الوقت نفسهأخذ أخوه يزداد شدة فى معاملته له ، فلم يجد بدا من النجاة بنفسه من العناء الذى يقاسيه ، وغادر المطبعة فى ذات ليلة الى غير رجعة ، اذ ترك المدينـــة كلها وتوجه الى « نيويورك » ليبحث عن عمل يعيش منه هناك !

لم تطل اقامة « بنيامين » فى نيــــويورك ، فقد رفضت مطبعتها الوحيدةالحاقه بعمل فيها فواصل رحلته قاصدا الى

« فيلادلفيا » .. وكان عليه أن يقطع أكثر الطريق اليها ماشيا ، اذ فرغ ما كان معه من مال قليل . وهكذا لقي من المشقة والعناء ما لا طاقة به لصبي في مثل سنه ، وقبض عليه غير مرة في الطريق باعتباره خادما هاربا ، واجتمعت عليه آلام التعب والجوع وخيبة الرجاء .. ثم أتيح له أخيرا أن يجد سفينة صغيرة متجهة الى فيلادلفيا ، ورضي بحارتها باصطحابه معهم في مقابل قيامه بالعمل فيها بقية الرحلة!

جوع .. وجمال

وفي فيلادلفيا ، كانت الصعاب والعقبات التي لقيها الصبي الهارب أدهى وأمر ، وقد بقي يذكر يومه الاول فيها حتى آخر حياته . فقد دخلها وحيدا شريدا مهلهل الثياب ، لا يكاد يقوى على المشي من فرط التعب والجوع ، ولم يكن يملك أكثر من ثلاثة بنسات ، فاشترى بها ثلاثة أرغفة من أول خباز صادفه ، ثم سار على غير هدى في طرقات المدينة وهو يقضم في شراهة أحد الارغفة الثلاثة بينما الرغيفان الآخران تحت ابطه .. وهناك على باب أحد المنازل التى مر عليها يومذاك وقعت عيناه الزائغتان على فتاة حسناء وقفت تبتسم وهي في دهشة من منظره ، فلم يزد على أن ابتسم بدوره ، ثم انطلق في سبيله مواصلا التغلب على جوعه بقضم الرغيف ... وبعد سبع سنين على ذلك المشهد الطريف .. شاءت الاقدار الا أن تجمع بين ذلك الفتى الشريد وبين تلك الفتاة الحسناء « ديبورا رير » فاذا هما زوجان متحابان سعيدان ، يتبادلان التقدير والاخلاص

يعمل ويتعلم

اتخذ بنيامين فرانكلين شعارا لنفسه منذ وصل الى فيلادلفيا ، هو أن يعمل ويتعلم .. وكثيرا ما آثر أن يبيت طاويا ، ليشتري كتابا جديدا يقرؤه بدلا من طعام العشاء!

وما بلغ العشرين من عمـــره حتى بدأ الخطوة الاولى فى سبيل نجاحه العظيم ، فصار صـــاحب « مجلة فيلادلفيا » واستطاع أن يجعل لها مكانا بارزا بين الصحف التى كانت تصدر بأمريكا فى ذلك الحين ، بما أدخل على تحريرها من تحسينات ومبتكرات. وسرعان ما اشتد اقبال القراء عليها، لما وجدوا فيها من مقالات بليغة تعالج الموضوعات التى تتصل بحياتهم ، وتنشر من الانباء ما يثير اهتمامهم ، بجـــانب ما ابتدعته من نشر الاعلانات المختلفة مما عد حدثا جـديدا

وشجع هذا صاحب المجلة الشاب ، فاخذ يستغل خبرته بالطباعة والصحافة فى اخراج نشرات وكراسات مطبوعة كانت النواة الاولى للكتب المطبوعة فيما بعد .. وفى تلك النشرات والكراسات كان عشاق الحرية من الامريكيين فى عصر الاستعمار يجـدون ما يشفى غليلهم ويشبع رغبتهم ويقوى آمالهم من المقالات الجامعة المعـالجة لمختلف الشئون السياسية والاجتماعية .. وكانوا الى ذلك يحصلون عـلى هذه النشرات بثمن مقبول

وما كاد يطمئن الى نجـــاح مشروعاته فى دار الطبـــع والصحـــافة والنشر ، حتى ترك الاشراف الادارى عليها لشريك يثق به ، واكتفى هو بالادارة الفنيـــة ، لكى يقوم بجانب عمله فيها باشباع رغبته فى البحث والدرس وابتكار ما ينفع المواطنين

نواة المكتبات العامة

واستطاع ان يعلم نفسه اللغة الفرنسية ثم الايطاليـــة والاسبانية واللاتينية .. وقرأ روائع الأدب العالمى ، وألم بجميع العلوم المعروفة فى عصره ، كما أتقن العزف عـــلى الكمنجة وغيرها من الآلات الوترية ، وبرع فى لعبة الشطرنج .. وصار من أساطين المحدثين

وبدأ مبتكراته العامة لخدمة مواطنيه، فانشأ مع بعض زملائه

ناديا يتبادلون فيه الكتب والآراء ، اسمه « نادى الجنتو » أو « الفوطة البيضاء » . وكان المبدأ الذى وضعه لتبادل الكتب بين الاعضاء نواة لانشاء المكتبات العامة التى كانت ولا تزال من أهم الوسائل لتثقيف الشعوب !

نظام حديث للبوليس

وأنشأ بعد ذلك اتحادا أهليا لمكافحة الحريق ، وشركة للتأمين ضده ، واقترح على المسئولين عن حفظ الامن نظاما جديدا كان نواة النظام الحديث للبوليس . ثم أنشأ جمعية لدراسة العلوم ، ودعا الى انشاء مدرسة عالية هى التى صارت فيما بعد « جامعة بنسلفانيا » . كما كانت له اليد الطولى فى انشاء المستشفيات العامة لاول مرة فى العالم

وفى سنة ١٧٣٧ تولى فرانكلين ادارة البريد فى فيلادلفيا، ثم عين مديرا عاما للبريد فى جميع المستعمرات التى كانت تتألف منها أمريكا ، فنقل هذا المرفق الهام من الحالة البدائية التى كان عليها الى العمل طبقا لنظام دقيق جعله أسرع وأنفع ، وفى الوقت نفسه ابتدع فكرة طوابع البريد، ثم نفذها فغطى ايرادها جميع نفقات البريد !

فى الزراعة والصناعة

ويعد فرانكلين فى أوائل رواد البحث العلمى فى الزراعة والصناعة ، وقد نجح بالوسائل العلمية التى استحدثها فى اصلاح قطعة كان يملكها من الارض البور فصارت تنتج أجود الحاصلات ، ووضع بحثا عن حياة النحل ضمنه كثيرا من الملاحظات الدقيقة والبيانات الوافية ، واستطاع أن يستنبط الكهرباء بوسيلة علمية بسيطة لم تزد على طائرة حريرية وحبل من قنب ومفتاح من حديد

فى ميدان السياسة

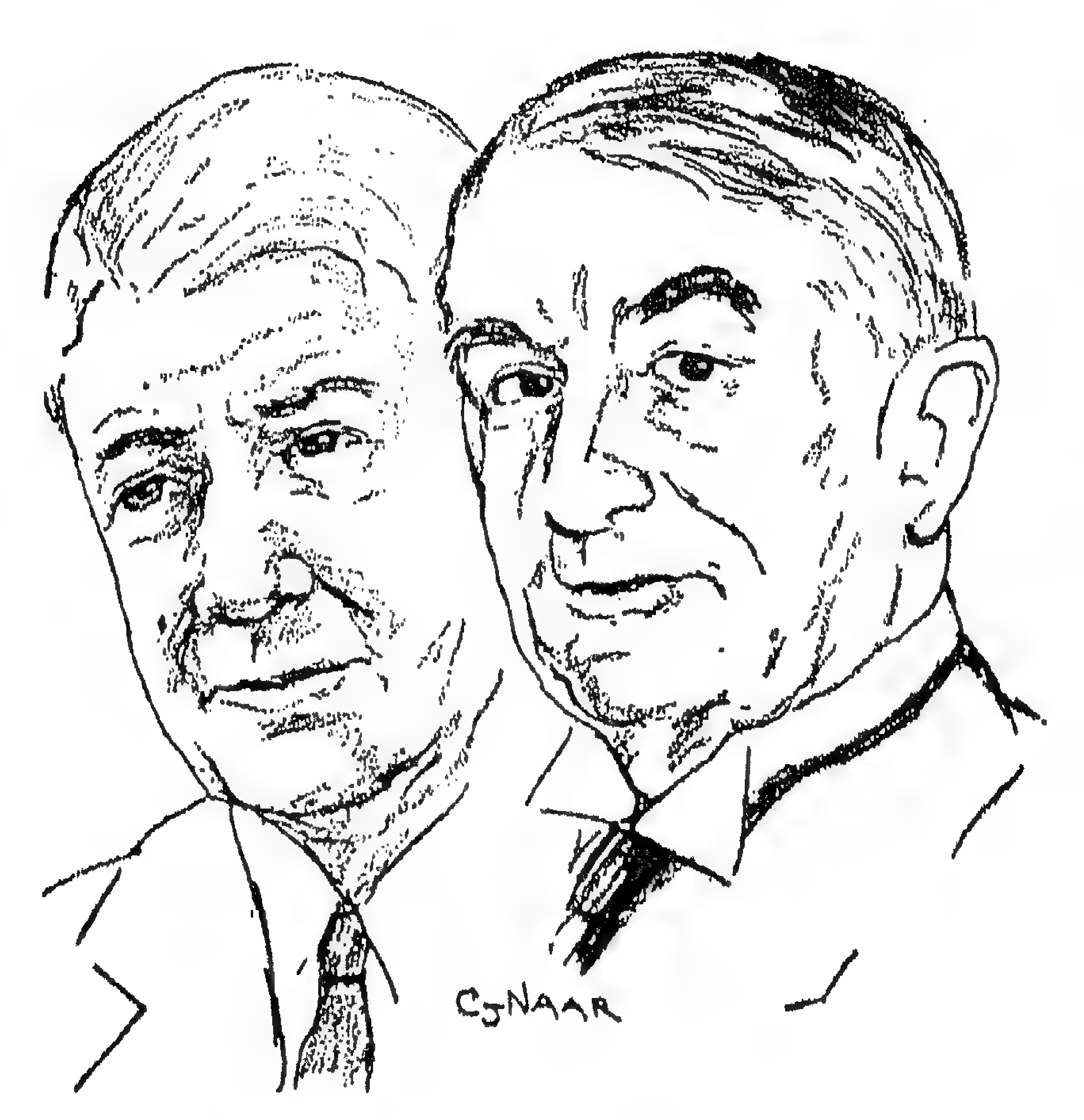
وكان طبيعيا أن تتجه همة فرانكلين الى ميدان الاصلاح السياسي ، واليه يعزى الفضــل الاول فى وضع أول خطة مشتركة لتوحيد صفوف الامريكيين وضمهم فى اتحاد عام، وحينما اشتد الخلاف بينهم وبين انجلترا حــول رغبتهم فى التخلص من استعمارها،لم يجدوا من هو أصلح منه للتحدث باسمهم والدفاع عن مطالبهم ، فأوفدوه الى انجلترا لهــذا الغرض ، حيث مكث فيها عشر سنين ، واصل خلالها العمل لانجاز مهمته، ثم عاد الى فيلادلفيا، ليشترك مع قومه فى الجهاد استخلاصها بالحجج والبراهين ، وعلى أثر عودته عين عضوا فى المؤتمر الوطنى الثانى ، وأسندت اليه مهمة المعاونة على تنظيم الجيش والبحرية وتدبير المــال اللازم لبدء الجهاد ٠ وكان يومئذ قد بلغ التاسعة والستين من عمره ، لكنه تقبل هذه المهمة الشاقة بارتياح ، وأبدى فى سبيل انجازها همة عالية يحسده عليها أقوى الشبان ، وكان له أكبر الفضــل فى حمل جماعة الكويكر على الاكتتاب فى الجهاد !

ولا شك فى أن الاعبـــاء التي ألقيت على كاهله فى تلك السن المتقدمة والظروف العصيبة قد خفت كثيرا بعد أن عين « جورج وشنطون » صديقه الحميم قائدا للجيش ، وكان هذا يصغره بستة وعشرين عاما ، وكل منهما مؤمن بصاحبه ، ويضع كل ثقته فيه

وحينما ألفت لجنة اعداد الوثيقة الخاصة باعلان الاستقلال، اختير فرانكلين لعضويتها ، وكان له نصيب كبير فى تحرير هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة ، ووقع عليها معه : توماس جيفرسون ، وجون ادامز ، وروجر شـــيرمان ، وروبرت لبفنجستون ٠ ثم عرضت على نواب الأمة فوقعوا عليهــا جميعا ، بعد أن ألهب فرانكلين حماستهم بقوله لهم :

ـ اسمعوا أيها السادة ٠٠ يجب أن يتعلق بعضنا ببعض حتى لا يعلق كل منا على حدة فى حبال المشنقة !

الشقيقان مايو



الاخوان مايو

كان لنجاحهما الباهر في كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق في
نفوس كثيرين ، حتى لقد راجت من نجاحهما حكايات كثيرة اشبه بالاساطير

أبو الطب الأمريكى

فى سنة ١٨٤٥ ، هبط أمريكا مهاجر شـاب ، يختلف كثيرا من حيث الثقافة والهدف عن المهاجرين الذين كانوا يتدفقون عليها من جميع الانحاء فى ذلك الحين ، سعيا وراء العمل والثراء

كان هذا الفتى ـ واسمه « ويليام دبرال مايو » ـ طبيبا انجليزيا ، أتم دراسته ومرانه فى أكبر المستشفيات بلندن وجلاسجو ومانشستر ، واكتسب خبرة ممتازة فى الكيمياء من عمله سنوات مع الكيميائىالكبير « جون والتون » • فلم تكن هجرته الى العالم الجديد للبحث عن عمل ، كما أنها لم تكن عن طمع فى الغنى أو الشهرة ، اذ دلتاريخ حياته فيما بعد على أنه من أشد الناس زهدا فيهما ، وانما هاجر من انجلترا ضيقا وتبرما بازدحامهـــا الذى لا يتفق مع ما فى فطرته من حب العزلة والهدوء ، وسخطا على ماكان يسودها من استعلاء بعض الطبقات على بعض ، الامر الذى لم يكن ينسجم مع تواضعه الجم ورقة طبعه ودماثة خلقه وبغضـــه الشديد للكبرياء والمتكبرين !

وشاءالقدر أن يستقر المقام بالطبيب الشاب فىالولايات الغربية ، وهى يومئذ لا تعرف من الاطباء غير جماعات من الدجالين الذين لا علم لهم ولا خبرة ، وانما كل همهم أن يغرروا بجماهير المرضى البســـطاء لكى يبتزوا أموالهم ، ويمتصوا دماءهم ، معتمدين على ما يقومون به لانفسهم من دعايات كاذبة جوفاء !• وعلى هذا لم يرض لنفسه أن يكون

زميلا لأمثال هؤلاء الدجالين ، وآثر أن يترك لهم ميـدان الطب حرصا على كرامته التي يعتز بها ، وضنا بالمهنة التي يجلها ويقدسها على الهبوط بها الى الدرك الاسـفل الذى يعملون فيه . وقضى زهاء ثلاث سنوات متنقلا بين أعمـال أخرى في مدن تلك الولايات وقراها ، ثم انتهى به المطاف الى مدينـة « لافييت » بولاية « انديانا » .. حيث أنشأ مصنعا لحياكة الملابس ، واستطاع أن يحرز نجاحا كبيرا !

ومضت خمس سنوات،غلبه الحنين الى الطب في نهايتها، فاذا به يضحي بمصنعه النسـاجي ، لكي يدخل جامعـة « ميسورى » في سنة ١٨٥٣ حيث حصل منها على درجـة طبية جديدة ، ثم يرحل ومعه زوجته الى مقاطعة «مينسوتا» في الجانب الاقصى من الحدود الامريكية ، وهناك قضى بضعة أشهر في الطواف بالقرى البدائية المنعزلة والقفار المحيطة بها ، لتفقد أحوال القبائل الهندية القاطنة هناك ، ودراسة عاداتها وتقاليدها وكل شيء في حياتها

وحينما نشبت الحرب الاهلية بعد ذلك ، عين الدكتـور مايو جراحا في الجيش الاتحادى ، وكان من نصيبه أن أقام طول فترة هذه الحرب بمدينة « روشستر » الصغيرة ، ثم حببت اليه الحيـاة بها بعد انتهاء الحرب ، فاعتزم الاقامة الدائمة بها ، وأنشأ لنفسه عيادة في منزل صغير بالشارع الثالث فيها ، كما سكن وزوجته في المنزل نفسه ، وجعل من احدى غرف المنزل معملا يجرى فيه ما يعن له من تجارب وأبحاث

نجح الدكتور مايو نجاحا عظيما في عيادته الخاصـة ، وكان لمعرفته السابقة بأهل المنطقة وحسن معاملته اياهم أثر كبير في هذا النجاح . على أن الجانب الاكبر من نجاحه يرجع ولا شك الى عاملين مهمين آخرين : أحدهما اخلاصه وتفانيه في حب مهنته ، والآخر حبـه لأهل تلك المنطقة

ورغبته الصادقة القوية فيخدمتهم بخاصة وخدمةالامريكيين مواطنيه الجدد بعامة !

وهكذا قسم الطبيب الشاب وقته بين العمل في عيادته ومعمله وبين المشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسيفي المنطقة والولاية كلها ، ولم يكف مع هذا كله عن الاستزادة من معلوماته ، بالمطالعة المنظمة،والقيام برحلات استطلاعية في المناطق المجاورة ، وفي الولايات الشرقية للمدارسة والمباحثة مع كبار الاطباء فيها

ولم يمض قليل حتى لمع اسمه وبرزت شخصيته وصار موضع الحب والاجلال من الجميع ، ولاسيما بعد أن تعددت الخدمات العامة التي قدمها للأهلين ،كابتكاره نظاما للصحة العامة في المدينة ، وسعيه في سبيل انشاء مكتبة عامة بها ، وفي سبيل توسيع مدرستها،فضلا عن دعوته كثيرين من العلماء والاطباء الذين عرفهم في الولاياتالشرقيةوغيرها الى زيارة المدينة والقاء محاضرات عامة بها

وقد رزق بولدين : أولهما « وليم » الذي ولد في سنة ١٨٦١ ، والثاني « شارلى » الذي ولد في سنة ١٨٦٥ ، وكان طبيعيا أن نشأ ولداه على حب مهنة الطب ، والرغبة في أن يكونا طبيبين مثله • ولم يدخر هو جهدا في تقوية هذه الرغبة وتنميتها ، فكان يصطحبهما منذ طفولتهما الى عيادته ، والى جولاته في المزارع القريبة حيث يشاهدان في اغتباط ما يقوم به من الفحص والعلاج • وما كادا يشبان عن الطوق حتىكانكل منهما يعرف الكثير من أسرار المهنة، ويعرف جميع الاجهزة والادوات التي يستعملها أبوه في العيادة والمعمل • لكثرة ما شاهداها ، وساعدا والدهما في استعماله اياها !

وواصل الطبيب العالم جهوده الطيبة في سبيل اعداد ولديه ومعاونتهما على التفوق في دراساتهما الجامعية والشخصية ، وما تخرجا في سنة ١٨٨٣ حتى عادا الى

« روشستر » حيث استأنفا العمل مع والدهما، لا مساعدين في هذه المرة بل طبيبين أصيلين ، وسرعان ما أحرزا ثقة الأهلين

كانت سنة ١٨٨٣ بداية تحول في تاريخ آل مايو ، ففي هذه السنة التي بدأ فيها العمل المشترك للاطباء الثلاثة ، الوالد وولديه ، هبت عاصفة شديدة في اليوم الحادي والعشرين من شهر أغسطس ، أتت في دقائق معدودات على جانب كبير من المدينة الصغيرة التي يعملون فيها ،وكان ضحايا هذه الكارثة كثيرين جدا ، فشمر الاطباء الثلاثة عن سواعدهم وأخذوا يواصلون العمل لاسعاف الجرحى وعلاجهم في مستشفى مؤقت اتخذوه لذلك في قاعة للرقص بأحد المنازل التي تشملها كارثة العاصفة الهوجاء . وواجهتهم مشكلة كبرى هي مشكلة تمريض ذلك العدد الكبير من المصابين . ولكنهم سرعان ما تغلبوا على هذه المشكلة اذ استطاعوا اقناع رئيسة دير القديس فرنسيس ، القائم على مقربة من المدينة ، بأن تمدهم بطائفة من راهبات الدير ، ليقمن بمهمة التمريض !

ومضت أشهر ، والعمل يجرى بنجاح في المستشفى المؤقت الذي أقامه آل مايو، ولم يكن اعجاب الناس بالتضامن التام بين الاطباء الثلاثة البروتستانيين وبين أولئك الممرضات من الراهبات الكاثوليكيات بأقل من اعجابهم بالهمة الصادقة التي بذلت في المستشفى وكان لها كل الفضل في تخفيف آثار النكبة الفادحة التي نزلت بالمنطقة ، من جراء تلك العاصفة القاصفة !

وعرضت رئيسة الدير على آل مايو استعدادها للاشتراك معهم في انشاء مستشفى دائم في المدينة باسم القديسة ماري ، ليعالجوا فيه المرضى والجرحى من أهل المنطقة جميعا، بلا تفريق بين أديانهم وألوانهم وحالاتهم المالية، وتم الاتفاق على ذلك أخيرا ، واستغرق اعداد المستشفى الجديد سنوات،

تناوب الاطباء الثلاثة خلالها القيـام برحلات لزيارة المعاهد والمستشفيات الكبيرة في الولايات الشرقية، للبحث والدرس واقتباس أحدث النظم وأحسنها

ويدأ العمل في مستشفى القديسة ماري سنة ١٨٨٩ ، وأقبل المرضى عليه من أنحاء المنطقة وما يجاورها، ولم تمض سنتان حتى كان اسم « مايو » يتردد في جميع أنحاء أمريكا مشفوعا بأكبر الاجلال والاعجاب ، وبدأ الاطباء أنفسهم في الولايات الاخرى يبعثون الى المستشفى بالمرضى الذين يحارون في تشخيص أمراضهم وعلاجها ، وهناك يجد هؤلاء المرضى من العناية والرعاية ، ما يلهج ألسنتهم بالدعاية الضخمة للمستشفى والقائمين بالعمل فيه !

□

وأخيرا .. رأى الدكتور وليام مايو أن ولديه النجيبين الشابين صارا جديرين بأن يستقلا بادارة المستشفى الناجح الكبير ، فتركه لهما ، وتفرغ للمهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها بوصفه عضوا فى مجلس الشيوخ بالولاية، وبقى كذلك حتى اعتزل العمـل فى المجلس فى الرابعـة والسبعين من عمره

وكان أول ما صنعه الطبيبان الشقيقان بعد استقلالهما بادارة المستشفى ، أن قررا تزويده بكل ما من شـأنه أن يدعمه ويوسـع نطاق الخدمات التى يؤديها ، وعلى هـذا الاساس المتين أخذا يضمان اليه كل نابه كفء من العلماء والاطباء والكيميائيين ، ويزودانه بكل مستحدث من الاجهزة والآلات والادوات !

وحرصا في الوقت نفسه على معاملة جميع المعاونين لهما أحسن المعاملة ، بل حرصا على أن يكون عمـل هؤلاء فى المستشفى على أساس أنهم شركاء . وكان الدكتـور هنرى

بالمر فى مقدمة العلماء الاكفاء الذين انضموا الى المستشفى، فما لبث قليلا حتى جعل من معامله أكبر مؤسسات علمية من نوعها ، وصار فى إستطاعتها أن تقدم مساعدات فنية لا يمكن تقدير قيمتها لعدد كبير من الاطباء والباحثين، وعلى مر الوقت تحول المستشفى من بضع غرف فى الطابق الثانى من بناء المعهد الماسونى بالمدينة ، الى بناء مجمع ضخم يشغل مساحة كبيرة جدا ، والى جواره عشرات من الملحقات المنشأة على أحدث طراز، بين مصحات لايواء المرضى ، وأخرى للعناية بالناقهين ، ومؤسسات للاستشفاء ، وفنادق مختلفة لاقامة من شاء من النزلاء

لم يكن النجاح العظيم الذى أحرزه الشقيقان مايو ليقعد بهما عن مواصلة الدرس والبحث، وقد زودهما ذلك باصدقاء كثيرين من العلماء والاطباء فى مختلف أنحاء أمريكا ، كما بقيت صلاتهما وثيقة بكبار الاطباء الذين عرفوهما بالولايات الشرقية فى مستهل حياتهما العملية ، كالدكتور برايس فى فيلادلفيا، والدكتور هلستيد طبيب مؤسسة جون هوبكنس، وغيرهما من كبار الاطباء فى نيويورك وبوسطن

وكان لنجاحهما الباهر فى كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق فى نفوس الامريكيين جميعا ، حتى لقد راجت عن نجاحهما هذا حكايات كثيرة أشبه بالاساطير ، وحدث يوما أن أرسل الدكتور « ول » الى صحيفة طبية فى احدى الولايات الشرقية بحثا ضمنه طريقة ابتكرها لعلاج المرارة بالجراحة ، وكانت هذه الجراحة من التعقيد بحيث لم يصدق نجاحها رئيس تحرير الصحيفة ، فلم ينشر البحث الخاص بها ، وأعاده الى صاحبه بالبريد !

جيمس وات



جيمس وات

واصل جهاده صابرا على التعب والمرض والفقر حتى اصبح لعظمتــه وعبقريته العلمية العالمية يعد أعجب رجل انجبتـــه انجلترا ...

مخترع أول آلة بخارية

هناك فى مدينة « جرينوك » الصغيرة باسكتلندة ، ولد « جيمس وات » فى ١٩ يناير سنة ١٧٣٦ ، وكان والداه الفقيران يختصانه بمزيد من حنانهما وعطفهما ، لأنه أضعف أولادهما جسما ، وأرقهم طبعا ، وأوفرهم ذكاء . وحينما حال ضعف صحته دون الحاقه بالمدرسة كاخوته ، تكفلت والدته بتعليمه فى المنزل، فتلقى عليها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ووجد منها خير تشجيع على ممارسة هوايتيه المفضلتين وهما : الرسم ، وأصلاح الآلات والأدوات المنزلية !

ومنذ السادسة من عمره، بدا شغفه الشديد بكل ما يتصل بالعلم والمعرفة ، فكان يمضى الساعات الطوال كل يوم فى تأمل الأشكال الهندسية المختلفة ، محاولا رسمها بالطباشير الملون على جدار الموقد بالمنزل ، او تكوينها بواسطة القطع الخشبية الصغيرة . كما كان يطيل التأمل فى « غلاية الشاى » ومراقبة أثر البخار المتصاعد منها فى غطائها ، أو فى ملعقة أو نحوها ، يقربها من ذلك البخار . وفى الوقت نفسه كان ولوعا بقراءة القصص الخيالية والاستماع لها ، وروايتها لاخوته وأترابه بطريقة مشوقة جذابة ، تدل على موهبة ممتازة فى سعة الخيال وقوة الذاكرة وعذوبة الحديث !

طالب ممتاز

ولم يكن عجيبا أن يبرز تفوقه على اقرانه الذين يتعلمون فى المدرسة، وما بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كانت ذاكرته العجيبة قد وعت ما قرأه فى عشرات من الكتب العلمية

المختلفة ، وفى مقدمتها كتاب فى فلسفة الطبيعة لم يكن يحسن فهمه من الكبار الا قليلون !.. وكان حريصا على تطبيق ما يتعلمه ، فأخذ لنفسه مصنعا خاصا بالمنزل، فصنع بعض ادواته وآلاته بنفسه ، ومن بينها آلة كهربائية كان يحلو له ان يداعب أصدقاءه الصغار بصدماتها، كما صنع آلات عديدة لرفع الأثقال ، ومضخات ، واصلح كثيرا من الآلات والأدوات المستعملة فى السفن ، وحصل على معلومات فلكية قيمة

يعمل ليعيش

راى « جيمس وات » حين بلغ الثامنة عشرة من عمره ان رقة حال اسرته توجب عليه الا يجشمها عناء اعالته ، فسافر الى «جلاسجو» ليتعلم هناك صناعة الآلات الرياضية، ووصل الى تلك المدينة وهو لا يملك غير ملابسه التى عليه ، وبعض أدوات النجارة التى حملها معه . وكان اغتباطه شديدا حين أتيح له الحصول على عمل يقوم بأوده ، فى مصنع صغير لاصلاح شباك الصيد والقيثارات والصفارات وما اليها !

وبعد ايام ، لقيه فى جلاسجو قائد بحرى سابق ، كان صديقا لأبويه ، فأشار عليه بالسفر الى لندن للبحث عن عمل اليق به واكبر اجرا ، فسارع الى العمل بهذه المشهورة . ومكث فى العاصمة البريطانية أياما شقية بائسة ، ثم وفق اخيرا الى الالتحاق بورشة ميكانيكية يواصل الكدح فيها منذ الصباح حتى العشاء

وما انتهت تلك السنة حتى كان « جيمس وات » قد حذق الميكانيكا وبرع فيها ، فعاد الى جلاسجو معتزما انشاء مصنع لنفسه بها، ولكن نقابة الصناع فى المدينة لم ترخص له فى انشاء المصنع المطلوب ، بحجة أنه لم يمض المدة المقررة للتعلم والتدرب !.. فكاد اليأس يستولى عليه ، ثم رق له قلب أستاذ فى الجامعة فأفرد له حجرة بها يمارس فيهما

صناعته المحببة ، ويجرى تجاربه لحسابه الخاص !

وصنع « جيمس وات » آلات كثيرة ، لها مزايا لا يستهان بها ، غير أن الاقبال عليها لم يكن كبيرا ، فاضطر لكى يعيش الى التحول عن صنع تلك الآلات الميكانيكية الى صنع الآلات الموسيقية واصلاحها، وفى سبيل ذلك درس نظريات الموسيقا وصناعة آلاتها المختلفة حتى أتقنها بعد أشهر معدودة ، ووفق الى صنع أرغن مبتكر نال كل الاعجاب ممن شاهدوه وجربوه !

دراسته لقوة البخار ..

وفى الثامنة والعشرين من عمره عرض عليه معمل الجامعة أن يقوم باصلاح مضخة بخارية لامتصاص المياه من مناجم الفحم ، هى نوع من الآلة الهوائية التى اخترعها « توماس نيوكومن » . فأتيحت له بذلك فرصة ثمينة لدراسة علمية عملية دقيقة ، وبدأ يفكر فى اختراع آلة تدور بقوة البخار !. وفى هذه السنة نفسها تزوج بالآنسة « مرجريت ميللر » فوجد من اخلاصها له واعجابها بعبقريته خير مشجع له على المضى فى تنفيذ ذلك الاختراع !

قضى « جيمس وات » بضعة أشهر يواصل العمل ليل نهار فى سبيل اختراع تلك الآلة الجديدة

وكانت العقبات التى تعترض سبيله كثيرة ، وفى مقدمتها فقره وقلة ما لديه من وسائل وأدوات لازمة لاجراء تجاربه المتعددة . وبرغم ذلك كله لم يجد اليأس الى نفسه سبيلا ، واخذ يستخدم الزجاجات العادية لحفظ البخار ، ويستخدم لنقله أنابيب القصب وما اليها ، ثم استأجر حجرة أخرى وشرع فى صنع الآلة المنشودة طبقا للنموذج الذى ابتكره

وفيما هو منهمك فى العمل ، فوجىء بعقبة جديدة ، هى موت مساعده الاول ، فى وقت شدة الحاجة اليه . وكانت الديون قد تراكمت عليه لانعدام كل انتاج آخر فى مصنعه ؛

وساءت حال اسرته الى حد كبير .. على انه تحامل على نفســه وواصل العمل بهمة لا تعرف الكلل حتى انتهى من صنع الآلة .. ولكنه ما كاد يشرع فى تجربتها حتى انهــارت صروح آماله كلها ، واســـفرت التجربة عن فشل تام ، لا لنقص فى الفكرة التى بنى عليها اختراعه الخطير ، ولكن لضعف الالات والأدوات التى استعملها فى اخراجه مضطرا

كاد الياس يقعده

وكاد الياس يغلبه ازاء تلك الصدمة القاسية،ولكن زوجته الوفية عرفت كيف تعيده سيرته الاولى من الهمة والطموح والأمل ، ولم يمض قليل حتى قبل الدكتور «جون روبيك» مؤسس مصانع حديد «كارون» أن يمد يد المساعدة للمخترع الشــاب الفقير ، فتولى تسـديد ديونه ، وكانت قد بلغت خمسة آلاف دولار ، واشار عليه بالسفر الى لندن للحصول على براءة بحق اختراع الآلة الجديدة ، فحصل على هذه البراءة بعد جهد جهيد ، ثم عاد الى جلاسجو حيث شرع فى صنع الآلة من جديد

ومضت سنتان ، بذل خلالهما « جيمس وات » كل ما فى وسعه من قوة وحيلة لانجاز اختراعه ، وكانت العقبات التى اعترضت طريقه فى هذه المرة اشد وانكى ، فالمستر روبيك غرق فى الديون فلم يستطع الاستمرار فى مساعدته،وزوجته الحبيبة الوفية توفيت فجاة تاركة له ثلاثة أولاد لا معين لهم سواه ، لكنه مع هذا استمر فى جهاده ، صابرا على التعب والمرض والفقر ، الى ان انتهى من صنع الآلة سنة ١٧٧١ .. ثم كانت الصدمة الكبرى حين أسفرت تجربتها عن الفشل أيضا ، نتيجة لرداءة اسطوانتها ، ولأن القطع التى استطاع الحصول عليها لصنعها كان ينفذ منها الهواء والبخار ، ولم يفد فى علاجها سد خروقها بالفلين والخرق المشبعة بالزيت وكان احيانا لا يجد حتى هذه الخرق فيضطر الى سد تلك

الخروق بقطع ينتزعها من قبمته !

وكانت النتيجة لهذا الفشل الجديد ان عاد جيمس وات وهو فى الخـامسة والثلاثين من عمره الى البحث عن عمل آخر يعول به نفسه وأسرته ، فعمل مهندسا مدنيا

نجاحه فى اختراع الآلة البخارية

كان مستر « روبيك » ــ شريك « وات » السابق ــ قد حدث عنه صديقا له من كبار أقطاب الصناعة فى برمنجهام ، هو المستر « متي بولتن motea Roulton » صاحب احدى المؤسسات الكبرى لصناعة الساعات والأدوات المعدنية والزهريات المقلدة . وكان هذا بدوره يدرس آلات البخار ويؤمن بمستقبلها الباهر ، فأخذ يفاوض « وات » للاتفاق معه على تنفيذ مشروعه فى مؤسسته ، على أن يعطيه ثلث ما يغله صنعها وبيعها من الأرباح

وكان طبيعيا أن وافق « وات » على هذا العرض ، ولكن مستر « بولتن » بقى ثلاث سنوات بعد ذلك مترددا فى التنفيذ ، فعاش « وات » خلال هذه السنوات معلقا بين اليأس والرجاء ! ولقى من المتاعب ما كان له أكبر الأثر فى ازدياد ضعف صحته ، على أنه سرعان ما تناسى ذلك كله حين بدأ تنفيذ الاتفاق ، وتم صنع الآلة الجديدة واسفرت تجربتها فى هذه المرة عن نجاح باهر ؟ ثم بدات الطلبات تنهال على المؤسسة من جميع الأنحاء لشراء الآلة البخارية الجديدة !

وفى ذلك الحين ، تزوج « وات » للمرة الثانية ، وكانت زوجته الجديدة « أنا ماك جريجور » ربة بيت ممتازة ، فاستطاعت أن تكفل له ولأولاده عيشة راضية

وازداد مستر « بولتن » تقديرا لشريكه مخترع الآلة البخارية الاولى واعجابا بعبقريته وخلقه ، حين رفض «وات» ما عرضته عليه الحكومة الروسية أن يعمل لحسابها، فى مقابل خمسة آلاف دولار ، وكان مثل هذا المبلغ يعد ثروة

كبيرة فى ذلك الحين !

بيد ان كثيرا من المؤسسات والمصانع بدأت تنتج آلات بخارية رخيصة ، تغمر بها الأسواق ، مقلدة آلتهما المبتكرة . وعبثا حاول الشريكان منع ذلك التقليد !

وفى خلال هذه المتاعب والمضايقات ، كان « وات » يقضى الساعات الطوال كل يوم فى معمله بالمؤسسة عاكفا على تجاربه وأبحاثه لاخراج مخترعات جديدة أخرى . وقد وفق فى ذلك الوقت الى صنع آلة للطباعة ولكن الاقبال عليها لم يكن كبيرا ، لما شاع يومئذ من ان استعمالها قد يؤدى الى انتشار التزوير!

آلة لطحن الدقيق

وفى ذلك الوقت ايضا ، اخذ « بولتن » يلح عليه فى صنع آلة بخارية لطحن الدقيق ، وقد تم صنع هذه الآلة على يد « وليام ماردوك » رئيس عمال المؤسسة ، وكان مخترعا ذا مواهب عظيمة ، نشر فوائد الاضاءة بالغاز ، وصنع أول نموذج للقاطرة ، وابتكر استعمال جلد السمك لصنع الفراء بدلا من الباغة . وقد حصل الشريكان « بولتن » و «وات» على حق انتاج هذه الآلة الجديدة ، وكلفهما صنعها ما يزيد على مائتى الف دولار ، وكان رواجها عظيما بعد ان جاهدا فى سبيل ذلك اعظم الجهاد لتذليل العقبات

وبعد ذلك بقليل ، اخرج « وات » اختراعين جديدين كان لهما أكبر الأثر فى تقدم الصناعات وهما : جهاز الحركة المتوازية « Parallel motion » وجهاز التحكم فى سرعة الآلة

وفى سنة ١٨٠٠ ، اعتزل « وات » عمله فى المؤسسة ، وحول أسهمه فيها الى ولديه: « جريجورى » . و «جيمس» ثم اقام بمنزل شاده فى « هينفيلد » على مقربة من برمنجهام

وفى سنة ١٨١٩ ، توفى « جيمس وات » مخترع أول آلة بخارية عن ثلاثة وثمانين عاما قضاها فى جهاد متواصل لخدمة العلم والعالم

میشیل فارادای



ميشيل فاراداى

اضطر بعد عامين من التحاقه بالمدرسة الى مغادرتها للبحث عن عمل يكسب منه ما يقتات به ، ولكن ذلك لم يحل دون ان يصبح من كبار العلماء

موزع الصحف الذى صار أعظم عالم !

كان مولده مبعث حزن وشقاء ويأس لأسرته كلها ، ففى ذلك الحين ، سنة ١٧٩١ ، لم تكن حرفة الحدادة التى يكد ابوه طول يومه فى ممارستها تدر عليه ما يكفى الأسرة حاجاتها الضرورية ، حتى انها اضطرت الى مغادرة مسكنها المتواضع لعجزها عن دفع اجره الزهيد ، واستقرت فى « حظيرة » مهجورة بجانب أحد الاسطبلات !

وكثيرا ما تعرض واخوته للموت تأثرا بالبرد القارس الذى ليس لديهم ما يدفعونه به ، بل كثيرا ما تعرضوا للموت جوعا ، لعودة والدهم من عمله خالى الوفاض ، أو برغيف واحد من الخبز اليابس الرخيص ، يقسم على أفراد الأسرة

ولما بلغ السادسة من عمره ، ألحقه والده بمدرسة أولية مجانية تعلم تلاميذها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، وقد اظهر الصبى ميلا شديدا الى التعلم ، واستطاع ان يظل متفوقا على أقرانه فى خلال السنتين اللتين قضاهما بتلك المدرسة ، ولكنه اضطر بعدهما الى ترك الدراسة والاكتفاء بتحصيل ذلك القدر الضئيل من المعرفة ، لكى يبحث لنفسه عن عمل يكسب منه ما يقتات به

موزع للصحف

وكان العمل الأول الذى وفق الصبى اليه ان عمل لدى بائع للكتب والصحف فى لندن ، فينهض مع فجر كل يوم ليحمل على كاهله الواهن حزمة ثقيلة من الصحف والكتب ،

ثم يمضى بها من شارع الى شارع وسط ضباب لا يكاد يتبين طريقه فيه ، لكي يطوف بالمنازل تاركا صحيفة فى أحد المساكن وكتابا فى مسكن آخر .. وهكذا الى ان يتم توزيع كل حمله الثقيل فى نحو ساعتين ، ثم يعود فيجمع ما وزعه صحيفة صحيفة ، وكتابا كتابا ، مع تحصيل الأجر المقرر لقراءتها ، وهو بنس واحد عن كل نسخة ، واخيرا ينتهى به الطواف الى المكتب الذى يعمل فيه ، فيسلم صاحبه صحفه وكتبه والبنسات التى قرنت بها ، ويسلمه هذا اجره الزهيد

مجلد كتب

امضى ميشيل عاما كاملا فى ذلك العمل المرهق الذى لا يطيقه صبى مثله لم يبلغ العاشرة من عمره

واعجب صاحب العمل بهمة موظفه الصغير وصبره الجميل ، وبما تبين له من امانته ووداعته وذكائه ، فاعفاه من ذلك العمل المجهد الذى لا يلائم سنه وطبعه ، واخذ على عاتقه تعليمه صنعة تجليد الكتب ، ليتيح له باحترافها بعد ذلك عملا أقل اجهادا واوفر اجرا

وفى اسابيع معدودة ، الم الصبى الذكى بدقائق حرفته الجديدة ، واخذ فى ممارستها بنشاط وخبرة وحرص على السرعة والاتقان . وكان لزيادة اجره اثر محمود فى تحسن صحته وحالة أسرته ، مما أدخل السرور على قلبه . ولكن سروره كان اشد ، لان عمله الجديد هيأ له فرصة ثمينة طالما راودت خياله وتراءت له فى احلامه ، وتلك انه أصبح يجد متسعا من الوقت لكى يقرأ ما يحلو له من الكتب والصحف ، ويرضى بذلك نزعته وميله الفطرى الى الاطلاع

كانت علوم الطبيعة ، وما يتعلق منها بالكهرباء خاصة ، اشد ما استهوى قلب الصبى المحب للمعرفة واجتذب مشاعره وآماله . وبدا ولوعه بهذا النوع من العلم يشتد بعد ان قرأ كتاب « مناقشات العلوم » للأستاذ « مارست

Marcet » وأطلع على بحث شامل من الكهرباء فى دائرة المعارف البريطانية . وفيما هو راجع الى مسكنه بعد يوم حافل بالعمل الشاق ، لفت نظره أعلان عن مجموعة من المحاضرات فى التاريخ الطبيعى يلقيها الاستاذ « فتمان » . وحز فى نفسه أن الاستماع لكل من هذه المحاضرات حدد له رسم قدره نصف جنيه،وافضى بهذا الأمر الذىأهمه واحزنه الىشقيقه « روبرت » الذى يكبره بثلاث سنوات ويعمل حدادا كأبيه ، فرثى هذا لحالته ، ولم يسعه الا معاونته على تحقيق هذه الرغبة ، كما سمح له صاحب المحل الذى يعمل فيه بالتغيب عنه فى مواعيدها ، وتطوع أحد زملائه لاعطائه دروسا فى الرسم لكى يستطيع أن يوضح بالرسوم ما يسجله من مذكرات عن تلك المحاضرات !

وبعد قليل ، التقى به فى محل تجليد الكتب العالم المشهور « سير همفرى » الاستاذ بالمعهد الملكى ، فأعجب به الى حد كبير ، وسهل له دخول المعهد للاستماع لمحاضراتأربع ألقاها هنالك . وما كاد ينتهى منالقائها حتى تلقى من « ميشيل » رسالة رقيقة يشكر له فيها فضل تيسير استماعه لتلك المحاضرات،ويشيد فى تفصيل دقيق بما تضمنته من نظريات وملاحظات، ثم يرجو انيجد من عطفالعالمالكبير ما يساعده على الالتحاق بأى عمل فى المعهد ، ليسهل عليه التزود بما يحتاج اليه من الدروس !

وكان « سير همفرى » من العصاميين الذين شقوا طريقهم فى الحياة بأنفسهم ، فرق قلبه للصبى الفقير الطموح ، وكتب اليه يعده بأنه سيعمل على اجابة طلبه بعد عودته من رحلة اعتزم القيام بها ، وينصح له بمواصلة الدرس والبحث ،

شعاع من الأمل ..

كان الخطاب الذى تلقاه « ميشيل » من سير « همفرى » خير مشجع له على المضى فى الطريق العلمى الذى اختطه

لنفسه ، فبدأ يخصص الجانب الأكبر من وقته للبحث والاطلاع وأجراء تجارب أولية فى الكهرباء . على أن الظروف التي تلت ذلك كانت من القسوة بحيث قوضت كل ما شيده

لقد مات أبوه فى تلك الفترة ، فصار عليه أن يخلفه فى اعالة والدته واخوته الصغار ، وانتقل الى العمل فى محل لتجليد الكتب يملكه فرنسى مريض الأعصاب ، اخذ يثقل عليه ملاوة على العمل بألوان سخيفة من التعليمات والملاحظات ، ويشتد فى لومه وتعنيفه لأتفه الأسباب

وفى ذات يوم ، فوجىء الصبى بشعاع من الأمل شق ظلمة اليأس المحيطة به ، ولم يكن ذلك الشعاع سوى بطاقة من سير همفرى يدعوه فيها الى موافاته فى صباح اليوم التالى بمكتبه فى المعهد . وامضى ليلته لم يغمض له جفن ، وكانت نتيجة المقابلة فوق كل ما تصور ، فقد بشره العالم الكبير بانه سيعينه « مساعد محضر » فى المعمل التابع للمعهد !

ولم يكن « سير همفرى » فى حاجة الى وقت طويل لكشف ما للمساعد الصغير من مواهب ومزايا ، وهكذا سرعان ما اولاه ثقته ، واخذ يعهد اليه فى اجراء بعض التجارب الدقيقة التى يقوم هو بها فى المعمل

رحلة علمية

وما هى الا شهور معدودة ، حتى اتيحت لميشيل فاراداى فرصة ثمينة لم يكن يحلم بها ، وكان لها اكبر الأثر فى مستقبله وذلك ان سير همفرى اصطحبه فى رحلته التالية الى مختلف انحاء أوربا ، وكانت رحلة طويلة استغرقت زهاء سنة ونصف سنة ، طاف خلالها مع استاذه الكبير بمختلف المعاهد والمعامل والمؤسسات العلمية بالقارة ، وشهد مئات من التجارب واستطاع ان يقوم فى المعمل بتجارب خاصة بابحاثه المستقلة ، كما اتيح له ان يلقى سلسلة من المحاضرات عن اكتشافاته الخاصة ، استمع لها كثيرون من المثقفين

اول بحوثه العلمية

وفى السنة نفسها نشرت له مجلة « كوارترلى جورنال » العلمية أول أبحاثه عن « الجير الكاوى » ثم ستة أبحاث لخص فيها تجاربه فى الغازات والمعادن . كما ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات ، عن اكتشافاته العلمية فى معمل المعهد ولم تكتمل السنة التالية حتى كان قد نشر سبعة وثلاثين بحثا جديدا ، واخرج كتابا عن « خلط الصلب » . وقدم للمعهد بحثا خطيرا عن مركبين جديدين

دخلت حياة « ميشيل فاراداى » فى طور آخر بعد تلك الفترة التى توالت فيها مظاهر نجاحه العلمى ، وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره أو نحوها ، وتعرف الى فتاة مهذبة جميلة بادلها الاعجاب والحب ، وكادت تجعل منه شاعرا يدبج قصائد الغزل والتشبيب ، لولا أن كلل ذلك الحب العنيف العميق المتبادل بالزواج العاجل السعيد ، فعاد الزوج الشاب الى تجاربه وابحاثه العلمية

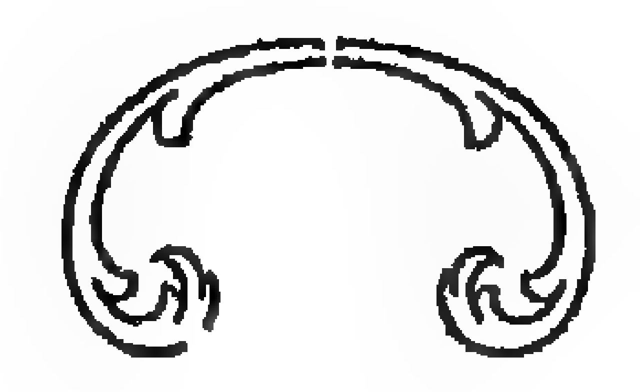
وفى خلال السنين العشرين التى تلت ذلك ، اصبح « ميشيل فارادى » الذى بدأ حياته عاملا فقيرا لدى بائع صحف أعظم عالم فى عصره ، اذ انتخب زميلا فى الجمعية الملكية ، ودعاه معهد لندن الى القاء اثنتى عشرة محاضرة عن اكتشافاته فى الكيمياء ، كما أنه ألقى ست محاضرات فى الجمعية الملكية عن « الفلسفة الكيميائية » ونشر ستة أبحاث عن «المغناطيسية» ثم بدأ تنظيم محاضرات علمية مبسطة يلقيها بأسلوب جذاب على الأطفال ، وصار الجميع يحرصون على الاستمتاع بالاستماع لهذه المحاضرات ، من أكبر رجال البلاط الملكى ، الى أفقر العمال فى الأحياء الشعبية

الكشف الخالد ..

وأنتج فى أثناء ذلك ١٥٨ بحثا علميا ، وثلاثين مجموعة من التجارب الدقيقة الجديدة فى الكهرباء . ثم بدأ أبحاثه فى

« المغنــاطيسية الكهربائية » الى أن وفق اخيرا الى ذلك الكشف العظيم الخالد الذى اثبت به أن المغناطيسية تنتج الكهرباء ، فكان ذلك ايذانا بمولد عصر الآلات الكهربائية . ثم قدم بعد سنوات كشفين آخرين جليلين : اولهما الخاص بسريان الكهرباء وهو الذى على أساسه بنى نظام التليفون الحديث ، والآخر هو الخاص باثبات اختلاف أنواع الكهرباء

وفى التاسعة والأربعين من عمره ، شعر بتضعضع قواه بعد تلك الجهود الجبارة التى بذلها ، فغادر لندن ومعــه زوجته الى رحلة فى الخارج للراحة والإستجمام . وطالت هذه الرحلة الى خمس سنوات ، وقضى أكثرها فى الريف ، سعيدا بمشاركة اهله البسطاء حياتهم . وما كاد يعود للندن بعد ذلك حتى استأنف جهاده العلمى فى معمله الحبيب ، فبدا يبحث علاقة الكهرباء بالضوء ، واجرى فى ذلك تجارب عديدة لا تحصى ، كللت بنجاحه الخالد فى اكتشاف طريقته لحفظ شعاع من الضوء ، وعلى هدى هذه الطريقة العظيمة قدر للعالم أن ينتفع بالمصباح الكهربائى المتوهج ، بعد ســنوات على يد توماس أديسون !



جوسیبی غاریبالدی



جوسيبى غاريبالدى

نشا فقيرا فقد كان ابوه صيادا ايطاليا فقيرا يعول اسرة كبيرة ، ولكنه ما ان بلغ اواسط العمر حتى كان الشعب الايطالى باسره يهتف باسمه ويمجده

الصياد الذى حرر ايطاليا !

كانت أمواج البحر الثائرة أول ما تفتحت عليه عيناه من صور الحياة ، فلا عجب ان كان البحر والثـــورة هما أبرز الخطوط الرئيسية فى لوحة حياته الخالدة ، التى امتـــدت ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، منذ مولده فى «نيس» بجنوب فرنسا سنة ١٨٠٧ ، حتى أسلم روحه فيها سنة ١٨٨٢ ، وكانت تلك الامواج الثائرة نفسها آخر ما رأته عيناه !

وما أبعـــد الفرق بين حال « جوسيبى غاريبالدى » فى أخريات أيامه ، حيث كان يتطلع الى تلك الامواج من نافذة منزله الجميل ذى الحديقة المزدهرة الغنـــاء ، وبين حاله فى مطلع حيـــاته وهو يتطلع الى الامواج فى المنطقة نفسها من نافذة الكوخ الوضيع الذى نشأ فيه هو وأخوته مع والدهم الصياد الايطالى الفقير !

هناك فى ذلك الكوخ ، كان الطفل « جوسيبى » كثيرا ما يشعر بالألم الممض من عضات البرد والجوع ورهبة الخوف من المستقبل المظلم المجهول ، ومن الظـــلام الموحش الذى يمتد فيما وراء الأفق ، وتلك الصخور والممرات الجبليـــة المحيطة بالكوخ !

ميله للمغامرات

وقد طالما حلق خياله حينذاك فى جو القصص العجيبـــة والمغـــامرات المثيرة التى كان البحارة يروونها عن رحلاتهم البعيدة الخطيرة ، وود لو يتاح له أن يكون من أبطـــال تلك

الرحلات ، وأن تروي عن مغامراته أمثـــال تلك القصص والاساطير • ولكن هذه الأمنية كانت أكبر من أن تحققها له ظروفه التعسة التي لازمت نشأته ، فبقى حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، دون أن يستطيع القيام برحلة خاصة به ، يمضي فيها حيث يشاء ، ويغامر كما يشاء • على أن رحلته الخاصة الاولى لم تكن على شيء من التوفيق ، وتحول بعدها الى قراءة الكتب العلمية والرياضية ، والى الاســـتزادة من المعرفة باللغات المختلفة التي يعرفها قدماء البحارة ، ثم لم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى خرج من تلك العزلة ليبدأ أولى رحلاته البحرية الحقيقية، بوصفه قائدا مساعدا للسفينة « كورتيزى » التي كانت تتأهب للقيام برحلة تجـارية الى موانيء البحر الاسود !

كان « جوسيبى غاريبالدى » قد شـــاهد « روما » فى احدى الرحلات التى صحب والده فيها • وقد راعتـه آثار المدينة القديمة الخالدة فى العاصمة الايطاليـــة حينذاك ، واستطاع ـ وهو الصبى الصغير الفقير ـ أن يلمس الفارق العظيم بين حياة الايطاليين القوية الغنية فى ذلك المـــاضى البعيد السعيد ، وبين حياتهم الراهنة الذليلة البائسة، تحت نير الاستعمار والطغيان !

خطر القراصنة

وشاء القدر أن تتعرض السفينة « كورتيزى فى رحلتها لخطر القراصنة الذين كانوا منتشرين فى تلك المناطق البحرية حينذاك وقد أبلى «جوسيبى» وبحارة السفينة أحسن البلاء فى الدفاع عن أنفسهم وعما تحمله سفينتهم من بضائع ومؤن، ولكن القراصنة عاودوا الهجوم عليها ثلاث مرات فى عرض البحر ، وتمكنوا فى المرة الثالثة من التغلب على المدافعين عنها بعد أن قتلوا وجرحوا كثيرين منهم ، وهكذا نهبوا كل ما كان فيها حتى قلاعها وآلاتها، وتركوا الباقين من بحارتها

على ظهرها ، مجردين من كل سلاح ، بل مجردين من أى طعام أو شراب أو كساء !

وكان الفتى « جوسيبى غاريبالدى » من هؤلاء المساكين الذين تركوا ليهلكهم البرد والظمأ والجـــوع ، أو لتبتلعهم الامواج مع سفينتهم المخربة المنهوبة . ولم يكن هنـــاك أى بصيص من الأمل فى نجاتهم من ذلك المصـــير الرهيب ، لكنهم مع ذلك استمروا يكافحون فى سبيل الحياة ، وكتب لهم أخـــيرا أن يصلوا بسفينتهم المحطمة الى القسطنطينية حيث أسـعفوا بالماء والغـذاء والكساء ، ورثى لهم بعض زملائهم من بحارة السفن الراسية بالميناء ، فألحقوهم بالعمل معهم فى تلك السفن ، الى أن تحين الفرصـــة لعودتهم الى وطنهم سالمين !

على أن « غاريبالدى » لم يستطع مشاركة زملائه فى ذلك الحل لمشكلتهم ، فقد وقع فريسة لمرض شديد ، اضطره الى التخلف فى القسطنطينيـة ، حيث آواه بعض المهـــاجرين الايطاليين ، وسهروا على تمريضه وعلاجه ، حتى كتبت له النجاة من ذلك المرض والتحق بالعمل فى سفينة تابعة لملك سردينيا !

ايطاليا الفتاة

أمضى « جوسيبى غاريبالدى » فى عمله البحرى الجديد زهاء خمس سنين ، طاف خلالها بكثير من بقاع العـــالم ، وواجه كثيرا من العواصف والاخطار . ولكن حب الحيـــاة البحرية بقى مسيطرا على قلبه ، وفى الوقت نفسه كان عقله دائم التفكير فى حال وطنه وما آل اليه من فقر وهوان ، وفيما يمكن أن ينقذ هذا الوطن ويحرره من نير الظلم والطغيان !

وعقد فى ذلك الحين « مؤتمر فينـــا » . وأخذ المؤتمرون المنتصرون يمعنون فى تقطيع أوصال الوطن الايطالى المغلوب على أمره ، ويقتسمون مناطقه فيما بينهم ، فكانت « لومباردى »

و « فينيسيا » من نصيب النمســا ، وكانت « بارما » و « لوكا » من نصيب مارى لويز ، وضمت صقلية بقسميها الى فرديناند الثانى

وعز على « غاريبالدى » أن يقف مكتوف اليدين ازاء هذه المظالم الفادحة التى نزلت بوطنــه الحبيب ، وكان على يقين من أن الموت أو السجن هما نصيب كل ايطالى تحدثه نفسه بالوقوف فى وجوه الطغاة الاقوياء المنتصرين ، أو المجاهرة بمعارضة ذلك التقسيم الذى قرروه فى مؤتمرهم المذكور. لكنه رأى الموت والسجن أحب اليــه من التسـليم بذلك التقسيم المهين. ثم هداه بحثه هذا الامر الى المبادرة بالسفر الى «جنوا» حيث اشترك فى العمل مع محام شاب من أهلها هو «جوسيبى مازينى» كان قد أنشأ جمعية باسم « ايطاليا الفتاة » للعمل على انقاذ البلاد وجعلها جمهورية حرة مستقلة

وفيما كان القائدان الشابان يستعدان لبدء التنفيـذ ، وشى بهما خائن من أعضــاء الجمعية الى السلطات المحتلة ، فتمكنت من احباط تلك المؤامرة ، واعتقلت كل من كانت لهم صلة بها ثم أرسلتهم الى المشنقة .. ولكن «غاريبالدى» تمكن من النجاة بروحه ، وفر متنكرا فى ثياب ريفيــة عبر ممرات الجبال السويسرية ، ثم تمكن من السفر على احدى السفن الى جنوب أمريكا ، حيث انضم الى مواطنيه المهاجرين فى « ريو دى جانيرو » . ولقى من تقديرهم ومساعدتهم له ما مكنه من شراء سفينة صغيرة أخذ يستغلها فى التجـارة على طول الساحل هناك !

الثورة من اجل الحرية

لم يكن « غاريبالدى » لتشغله غربته عن أهله ومواطنيه الغرباء فى ديارهم، وقد تأصل فى نفسه حب الحرية والثورة فى سبيلها ، حتى لو كانت هـــذه الحرية لشخص آخر أو لوطن غير وطنه. وعلى هذا ماكادت جمهورية «ريو جراندى»

تثور على البرازيل لاسترداد حريتها ، حتى اندفع الى التطوع للاشتراك في هذه الثورة ، وأعد سفينة حربية صغيرة لهذا الغرض ، أطلق عليها اسم « مازيني » زميـــله في الجهاد ، ودرب على العمل معه فيها نخبة من الثوار المجـــاهدين ٠ وكللت مغـــامراتهم الاولى بنصر باهر ، اذ تمكنوا من أسر سفينة معادية كبيرة واســـتولوا على حمولتها الثمينة من النحاس،ولكن مغامرتهم التالية لم يقدر لها النجاح،وانتهت بوقوعه ورجاله جميعا فى الأسر ، بعد اصابته فى المعركة بجرح بليغ !

وطال أسره شهورا عديدة ، قاسى فيها ألوانا من العذاب الشديد ، لكنه ما كاد يظفر بحريته بفضل مساعى احـدى السيدات حتى خف الى « ريو جراندى » ليواصـــل كفاحه المجيد مع أبنائها الثائرين الاحرار !

وهناك فى تلك المدينة التي اتخذها وطنا ثانيا ، وجـد الزوجة التي تليق بمجاهد ثائر حر مثله ، وهى مجـاهدة جميلة قوية الشخصية من أسرة عريقة ، كما وجدت فيه هي فارس أحلامها المنشود ، وهكذا كان « غاريبالدى » وزوجته « أنيتا » مثلا أعلى للشريكين الوفيين المتعاونين فى الحيـاة الزوجية ، وفى ميدان الكفاح ضد الطغيان والاستبداد

فى ميدان التحرير

رأى غاريبالدى بعد ذلك أن من حق أسرته الصغيرة عليه أن يتيح لها شيئا من الراحة والهدوء ، فانتقل بها الى مدينة «مونتفيديو» حيث اشترى منزلا بسيطا هناك ، وأخذ يعمل فى التدريس ٠ على أنه لم يقطع صلته باخوانه المجاهدين الاحرار أفراد الفرقة الايطالية التى اشتهرت بمغامراتهـــا الجريئة وأعمالها المجيدة فى كفاح التحرير بجنوب أمريكا

ولم يمض على ذلك قليل حتى كانت هذه الفرقة بقيادته قد برزت الى القتال فى ميدان جديد ، هو ميدان النضـــال

لتحرير جمهورية أورجواى • وسرت أنبـاء الفرقة مسرى الكهرباء حتى سمع العالم كله بأمرها وأعجب بها،وما كادت الحرب تنتهي بانتصار جمهوريةأورجواى حتى سارعشعبها الى تكريم غاريبالدى وفرقته ، وقرر منحه رتبـة جنرال ، ومنح فرقته قطعة كبيرة من الارض•ولكن غاريبالدى رفض في شمم وأباء أنيأخذ أىأجر أو مكافأة لقاء جهاده وفرقته، وقال لمن ألحوا عليه في قبول تلك الهدية :

ـ ان قبولها يتنافى مع أول مبادئنا وهو الجهاد فىسبيل الحرية ، ولا شيء غير الحرية !

في ذلك الحين ، كان غاريبالدى قد بلغ الحادية والاربعين من عمره ، ومضت احدى عشرة سنة على مغادرته وطنـــه الاول ايطاليا هربا من المشنقة !

وترامت الى سمعه أنباء طريفة سارة ، عن اســـــتعداد « شارل البرت » ملك سردينيا لمنح شعبه حرية دستورية تساعده على التحرر من النير النمســـوى الثقيل • فآمن الثائر الطريد أن قد حانت ساعة عودته لوطنه البعيـد كي يستأنف العمل لتحريره ، واختار من أفراد فرقته ســـتة وخمسين رجلا ، أبحر بهم وبأسرته الى « نيس » على سفينة أعدها لهذا الغرض وأطلق عليها اسم « الاسبيرانزا » •• أى الأمل ! وكان يرفرف فوق ساريتها علم سردينىصنعته زوجته من ملاءة بيضاء وقميص أحمر وحلة قديمة خضراء !

على أن « شارل ألبرت » ملك سردينيا ، خشى على عرشه من غاريبالدى ذى الميولالجمهورية المتطرفة ، فرفض تطوعه للجهاد بفرقته في الكفاح مع شعبه ضد النمسويين

وكانت الصدمة عنيفة قاسية ، ولكن غاريبالدى ورجاله ما لبثوا قليلا حتى وجدوا أمامهمميدانا أرحب وأكرم لابراز مواهبهم ومزاياهم ، ففى ٢٨ من ابريل سنة ١٨٤٩،أعلنت الجمهورية فى روما نفسها ، وهب شعبها يدافع عناستقلاله وحريته ، فسارع غاريبالدى الى هناك ، وانضم وفرقتـــه

المشهورة الى القوات الشعبية ، للدفاع ضد الجيوش الجرارة التى أرسلها لويس نابليون من فرنسا وامبراطور النمسا لتأييد البابا بيوس التاسع واخماد ثورة الايطاليين

واستمرت الحرب ثلاثة أشهر ، ثبت فيها غاريبالدى وفرقته فى النضال مع شعب روما ثبات الجبال ، وانتقل القتال من شارع الى شارع ، ومن منزل الى منزل ، ولكن المجاهدين الاحرار كانوا أقل عددا وعدة ، وهكذا لم تستطع قوات الجمهورية الشعبية أن تواصل الصمود أمام الجيوش الفرنسية والنمسوية ، فاستسلمت فى النهاية ، ودخل البابا روما مرة أخرى ليستأنف حكم شعبها بقوة الحديد والنار · ولكن غاريبالدى أبي وحده أن يذعن لهذه النهاية الذليلة ، فقرر الانتقال بفرقته وأسرته الى البندقية « فينيسيا » ليستأنف كفاحه فى سبيل تحرير الشعب

وما أقبلت سنة ١٨٥٩ حتى حانت الفرصة التى طالما تمناها « غاريبالدى » ·· اذ أعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا ، وهب الشعب الايطالى بقيادة السياسى العظيم « كافور » لتحرير نفسه من النير النمسوى الثقيل · وسرعان ما دعاه « كافور » وعينه قائدا للقوات الايطالية الشعبية فى جبال الالب

وحمى وطيس المعارك بين الايطاليين والنمسويين ، ولمع اسم « غاريبالدى » فى جميع الميادين بفضل ما أبداه من ضروب الجرأة والبسالة والخبرة بفنون القتال

ولم تجد النمسا مناصا من الجلاء عن « لومباردى » التى قاد غاريبالدى صفوف المقاتلين من أبنائها الاحرار ، وعلى أثر ذلك سارع على رأس فرقته الى صقلية لتحريرها من حكم الطاغية فرنسيس بن فرديناند الثانى ، وسارع الصقليون جميعا الى الانضواء تحت راية محررهم المحبوب، وكلل جهاده بالفوز المبين · وأصبح الشعب الايطالى كله

يهتف باسمه ويمجده مشيدا ببطولته . ولو أنه شاء في ذلك الحين أن يكون دكتاتورا لايطاليا لبايعه الشعب على ذلك بالاجماع ، ولكنه آثر أن يعود الى حياته البسيطة الهادئة في جزيرة « كابريرا » بعد أن حرر صقلية وأسلمها الى رعاية « فيكتور عمانوئيل » ملك ايطاليا في ذلك الحين !

انتصار الحرية

بقي « غاريبالدى » فترة غير قصيرة يترقب أمر الملك بالزحف على روما واعلانها عاصمة للبلاد ، ونفد صبره أخيرا ، فتولى هو نفسه أمر ذلك الزحف ، على رأس ثلاثة آلاف من جنود فرقته المشهورة . وشد ما كانت غضبة الشعب حين تصدى الملك لوقف ذلك الزحف خشية اغضاب فرنسا ، وأرسل قواته الملكية فأحاطت بالفرقة الزاحفة وأسرت قائدها ، بل قائد جهاد التحرير ، ولم يسع الملك ازاء ثورة الشعب الا أن يطلق سراح غاريبالدى من السجن الذى وضع فيه ، فعاد الى حياته بالجزيرة ، ثم زار انجلترا في سنة ١٨٦٤ فقوبل فيها بأبلغ الحفاوة والترحيب . وما كاد يعود من رحلته حتى عاودته فكرة الزحف على روما ، وما لبث أن حاول تنفيذها للمرة الثانية في سنة ١٨٦٧ ، ولكن الحظ خانه في هذه المرة أيضا ، وانتهى الامر بأسره والزج به في السجن من جديد !

وأخيرا ، قدر لأحلام غاريبالدى أن تتحقق فجأة ، فحاقت الهزيمة بجيوش نابليون الثالث في « سيدان » وانسحبت الفرقة الفرنسية من روما ، فدخلها الملك فيكتور عمانوئيل دون أية مقاومة ، وأعلنها عاصمة لايطاليا !

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسي بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

برقة : السيد محمد على بو قعيقيص ـ بنغازى ـ ص . ب ١٠٤

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brazil.

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية
Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S E 26.

هذا الكتاب

سئل أديب كبير : « أى انواع القراءة احب اليك ؟ » . فأجاب : « قراءة تراجم العظماء » وقد صدق هذا الأديب ، فان لكل عظيم حياة تمتاز بالتجارب النافعة ، والمثل العليا ، ويجد فيها القارىء أصدق العبر ، وأبلغ الدروس

وقد سبق لكتاب الهلال ان اصدر كتبا عن طائفة من العظماء ، ولكنه فى هذه المرة يقدم بمعاونة مؤسسة فرانكلين «القاهرة ـ نيويورك» كتابا من نوع جديد يختص بالعصاميين العظماء

وقد احتوى هذا الكتاب على عشرين حياة عظيمة : عشرة من الشرق ، وعشرة من الغرب لكل من اصحابها لون خاص من العصامية الأصيلة التى حطمت العقبات . وقد كتب الجزء الاول نخبة من نوابغ الكتاب ، وترجم الجزء الثانى عن « كتاب اولاد فقراء صاروا مشاهير » للسيدة سارة بولتون ، وهى كاتبة أميركية نابغة اختصت بالكتابة عن المشاهير . واشرف على وضع هذا الكتاب الأديب الكبير والمربى الجليل الأستاذ محمد فريد ابو حديد ، فكان جديرا بموضوعه ، ممتازا باخراجه



